823.W45tAb

ولز، هربرت جورج.

...اء الى الأرض.

823
W45tAb
[illegible] 87

2 - JAN 1973

JAFET LIB
[illegible] 1976

طعام الآلهة

وكيف جاء إلى الأرض

الطبعة الأولى . . . مارس ١٩٤٧

العنوان الأصلى للكتاب
بالانجليزية

H. G. WELLS

THE FOOD OF THE GODS
AND HOW IT CAME TO EARTH

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصرى ١٩٤٧

فهـــرس

صفحة

مقدمة الترجمة . . . . . ز

الكتاب الأول

فجر الطعام

الفصل الأول : كشف الطعام ١
الفصل الثانى : مزرعة التجارب ١٥
الفصل الثالث : الجرذان الجبارة ٥٥
الفصل الرابع : الأطفال الجبابرة ١٠١
الفصل الخامس : صغائر مستر بتزنجتن ١٣٧

الكتاب الثانى

الطعام فى القرية

الفصل الأول : مجيء الطعام ١٥٣
الفصل الثانى : الطفل الجبار ١٧٩

الكتاب الثالث

حصاد الطعام

صفحة

الفصل الأول : العالم المتبدل ٢٠١

الفصل الثانى : العاشقان الجباران ٢٣١

الفصل الثالث : كادلز الصغير فى لندن ٢٥٥

الفصل الرابع : يومان من أيام ردوود ٢٧٣

الفصل الخامس : معسكر الجبابرة ٢٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة

مؤلف هذه الرواية هو الكاتب الروائى والقصصى الاجتماعى الكبير هربرت جورج ولز الذائع الصيت، وهو ثانى اثنين من كبار الكتاب الإنجليز يشار إليهما بالبنان ويحملان لواء الأدب الإنجليزى فى هذه الأيام. وقد توفى ولز فى الثالث عشر من شهر أغسطس الماضى ولا يزال ثانيهما جورج برنارد شو على قيد الحياة.

ولد هربرت جورج ولز فى برملى من أعمال كنت فى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٨٦٦، وكانت أسرته تنتمى إلى الطبقة المتوسطة الفقيرة، وقد أمكنته هذه النشأة من معرفة أحوال هذه الطبقة وأخلاقها وعاداتها فى عصر الملكة فكتوريا وفى هذا العصر، فاستطاع بذلك أن يصفها فى قصصه ورواياته الشهيرة وصفاً صادقاً ممتعاً تسرى فيه روح العطف والفكاهة.

واضطرت الأسرة ظروفها الاقتصادية السيئة إلى إخراج هربرت من المدرسة فى الثالثة عشرة من عمره للعمل عند بائع عقاقير ثم عند بزاز؛ لكنه استطاع أن يواصل الدراسة، وأن ينتقل بفضل ما منح من مساعدات وإعانات إلى الجامعة حيث أتم دراسته العليا وحصل فى عام ١٨٨٨ على درجة بكالوريوس فى العلوم من جامعة لندن مع مرتبة الشرف من الدرجة الأولى فى علم الحيوان.

واشتغل بعدئذ بضع سنين بتدريس علم الأحياء والمحاضرة فيه ، ولكن شغفه بالكتابة أخذ يزداد رويداً رويداً حتى ألجأه إلى ترك التدريس والمحاضرات إلى الصحافة فى عام ١٨٩٣ . ولم تمض على ذلك سنتان حتى نشر باكورة أعماله الأدبية وهى « أحاديث مختارة مع عم » *Select Conversations with an Uncle.*

وكانت قصة حياة ولز من ذلك الحين هى قصة تطوره العقلى الذى تستدل عليه من كتبه الكثيرة ، وهو تطور بلغ من الكمال حداً جعل أناتول فرانس يقول عنه فيما بعد إنه « أعظم قوة ذهنية فى الناطقين باللغة الإنجليزية » . وفى نفس العام السالف الذكر — عام ١٨٩٥ — نشر ولز أولى رواياته الناجحة « آلة الزمان » *The Time Machine* ، فكشف بها عن عقل علمى ناضج وخيال قوى وثاب . وتتلخص القصة فى أن العلماء قد استطاعوا بعلمهم أن يخترعوا آلة تنقل الإنسان من الزمن الحاضر إلى الماضى وإلى المستقبل كما تنقله وسائل النقل المعروفة فى الفضاء ، وبذلك يستطيع راكبوها أن يطلعوا على ما كان وما سيكون . وتبدو فى هذه الرواية ميوله الاشتراكية وكرهه للنظام القائم فى العالم ، ويتضح ذلك من الصورة التى رسمها لبعض شخصيات الرواية .

ويحدثنا ولز فى سيرته التى كتبها بنفسه بأنه اعتنق المبادئ الاشتراكية بقراءته لأفلاطون ، ولكنه اختط لنفسه من صغره خطة اشتراكية مستقلة عن سائر الاشتراكيين ، وظل طول حياته محتفظاً بهذا الاستقلال . بيد أن حيويته ونشاطه الذهنى الشديد جعلاه سريع التنقل من موقف إلى موقف ، يبدل آراءه من حين إلى حين . غير أنه كانت له وراء هذه العقلية التى حيرت أصدقاءه وأعداءه على السواء فلسفة واسعة ثابتة لا تتبدل أبداً ، فقد كان يشعر شعوراً عميقاً بأن عليه رسالة إصلاح اجتماعى شامل يجب أن يؤديها ، وقد بذل فى أدائها من الجهد وأظهر فى أدائها من الحماسة الشىء الكثير .

وكان ولز قليل الثقة بالعواطف ، شديد الإيمان بالعقل . نعم إنه كان يصب كرهه وحبه جميعاً فى حماسة وقوة ، ولكنه كان ينصاع على الدوام لحكم العقل ؛ ولعل هذه النظرة كانت كبرى أخطائه ، فقد جعلته لا يطيق ما فى حياة الناس العادية من حمق وسخافة ؛ ولقد أعماه عدم صبره على هذا الحمق وهذه السخافة واحتقاره لهما عما فى الطبيعة البشرية من حقائق لا يصح إغفالها بحال من الأحوال .

من أجل هذا بدأ ولز حياته الأدبية داعية من الدعاة — الدعاة لمبدإ يعتنقونه — وظل كذلك إلى آخر أيامه . لقد كانت له مواهب أدبية رائعة يستطيع إذا شاء أن يصير بها أعظم كاتب روائى فى عصره ، ولكن الاشتغال بالفن للفن نفسه كان مبدأ بغيضاً له ، ولما سأله فى ذلك صديق له أديب كان جوابه : « إن الأدب لديك أنت كالتصوير غاية فى ذاته ، أما أنا فإن الأدب عندى كفن البناء مجرد وسيلة لغاية » .

ومن هذه الفكرة نشأت سلسلة الروايات التى تعد من أعظم الآثار فى الأدب الحديث ، ونعنى بها تلك الروايات التى تتابعت بعد « آلة الزمان » ومنها « الرجل الخفى » *The Invisible Man* (وقد مثلت على المسرح بنجاح فى عام ١٩٣٤) و « حرب العوالم » *The War of the Worlds* و « أول من سكن القمر من الناس » *The First Men in the Moon* و « طعام الآلهة » *The Food of the Gods* و « الحرب فى الهواء » *The War in the Air* ١٩٠٨ — وفى هذه الرواية الأخيرة تنبأ بالحرب العالمية الأولى ووصفها كما لو كانت قد وقعت فعلا — و « العالم المحرر » *The World Set Free* ١٩١٤ . وتمتاز هذه الروايات كلها بتقدير كاتبها لآثار العلم وما يستطيع العالم أن يفيد منه ، كما تمتاز بالأسلوب القصصى القوى ، والسخرية اللاذعة . ولا شك فى أن نشأة الكاتب العلمية قد أفادته كثيراً فى هذه الناحية .

وكتب ولز طائفة من القصص تكشف كلها عن فكاهته وعن سيطرته على فن القصة القصيرة ، وتظهر فيها كما تظهر فى رواياته قدرته على وصف حياة الناس الاجتماعية ونقدها .

وتشمل كتابات ولز فى أثناء الحرب العالمية الأولى عدة روايات منها : « الحرب التى ستنهى الحرب » و « السلام العالمى » وروايات أخرى أقل من هذه شأناً أشهرها « العام الرابع » التى وصف فيها عصبة الأمم السابقة وكشف عن عيوبها ونقائصها . ولم تكن الآراء التى تضمنتها هذه الروايات ولا النتائج التى أراد أن يستخلصها قراؤها منها صائبة على الدوام ، ولكن شجاعته جعلته لا يتردد مطلقاً فى أن يعترف بخطئه ويعدل عنه متى تبينه ؛ ومن أجل هذا رفعه مواطنوه بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى إلى مصاف الزعماء فى الحركة الفكرية التى أوحت بها المثل والآراء الجديدة التى ظنوا أن العالم سيقوم على قواعدها . ويتبين الإنسان فيما كتبه بعد تلك الحرب خيبة أمله فى هذه المثل والآمال الجديدة ؛ فبينا يراها تتجلى بأجلى مظاهرها فى روايتى « إنقاذ المدنية » *The Salvaging of Civilisation* ١٩٢١ ، « رجال كالآلهة » *Men Like Gods* ١٩٢٣ ، وهما اللتان يعدهما بعض النقاد أجمل صورة تصورها إنسان لعالم المستقبل ، إذ هو يعود بعدئذ إلى ألمه المرير من سوء حال المجتمع وغضبه الشديد منه ؛ ويُرى ذلك واضحاً كل الوضوح فى رواية « الحلم » ١٩٢٤ ، « الدمقراطية يعاد تنظيمها من جديد » *Democracy under Revision* وفى « محاضرات السربون » و « الطريق الذى يسير فيه العالم » *The Way the World is going* ١٩٢٨ و « بعد الدمقراطية » *After Democracy* ١٩٣٢ و « صورة الأشياء المقبلة » *The Shape of Things to Come* ١٩٣٣ . وتدل كلها على أن ولز ، وإن ظل محتفظاً بحماسته ومثله العليا ، قد تزعزع إيمانه بالإنسانية . وهذا الكتاب الأخير « صورة الأشياء المقبلة » من خير

كتب ولز وأجدرها بالقراءة ، وهو يضم سلسلة من الموضوعات المختلفة تجمع بينها كلها فكرة واحدة هى الصورة التى يرى ولز أن العالم سيكون عليها فى النصف الثانى من القرن العشرين .

وقد كشف ولز فى بعض فصول الكتاب عن مساوئ معاهدة فرساى ، وعن عيوب التسوية التى اعقبت الحرب الأوربية الأولى ، وعن رأيه فيما أقامته هذه التسوية من دول جديدة ، وتنبأ بالحرب العالمية الثانية قبل تطاير شررها بست سنين ، وحدد تاريخها بدقة عجيبة لم يخطئ فيه إلا بأشهر قليلة ، وعين سببها المباشر وهو النزاع على الممر البولندى ، وإن كان قد أخطأ فى تحديد أجلها ، وفى الطريقة التى انتهت بها ، ونرجو ألا يتحقق ما تنبأ به من عواقبها ومنها انتشار الأوبئة الفتاكة فى أنحاء العالم وقضائها على الملايين من بنى الإنسان .

على أن تزعزع إيمان ولز فى الإنسانية لم يؤثر فى عبقريته أو يقلل من نشاطه ، فقد كان يفكر من زمن بعيد فى كتابة قصة الإنسانية الطويلة بأسلوب طريف ، وأنجز بعد الحرب العالمية الأولى الحلقة الأولى من مشروعه الضخم رغم مشاغله الكثيرة . وهذه الحلقة هى تاريخه الشامل الواضح المعروف « بخلاصة التاريخ » *The Outline of History* ١٩٢٠ ؛ وقد نحا ولز فى كتابه هذا منحى جديداً ، فبدأ بتاريخ العالم الفلكى والجيولوجى والحيوانى وتاريخ الإنسان الطبيعى ، ولم يقصره على التاريخ القومى وعلى الحروب والفتوح .

ولكى يفهم الإنسان المبادئ التى سار عليها ولز فى كتابة تاريخه هذا وتاريخه الآخر : « مختصر تاريخ العالم » *A Short History of the World* يجب أن يقرأ محاضرته التى ألقاها على جماعة المدرسين فى أستراليا وزيلندة الجديدة ، والتى نشرها فى كتابه « فى البحث عن مياه حارة » *In Search of Hot Waters* بعنوان « السم الذى يسمى تاريخا » ،

The Poison Called History ، وهو يقول فى هذه المحاضرة إن الطريقة الخاطئة التى يدرس بها التاريخ فى الوقت الحاضر ، واهتمامها الكبير بالتاريخ القومى هما أكبر أسباب المنازعات والحروب التى ستقضى لا محالة على المدنية الحاضرة . ذلك أنها تضفى على الغزاة والفاتحين من المجد ما يغرى بتتبع خطاهم وانتهاج نهجهم ، وتذكى فى نفوس الشعوب الروح القومية الضيقة العارمة . وهو يرى أن التاريخ يجب أن يدرس كما تدرس علوم الكيمياء والطبيعة والأحياء ، فيدرس إلى جانب تاريخ العالم بعد تهذيبه تاريخ المعادن ، وتاريخ الصناعات ، وتاريخ اللغات ، وتاريخ العلوم ، وتاريخ الحركات الإجتماعية الكبرى وما إلى ذلك . هذه فى نظره هى النواحى التى يجب أن يعنى بها فى دراسة التاريخ .

وكانت الحلقة الثانية فى قصة الإنسانية هى كتابه المعروف « بعلم الحياة » *The Science of Life* ١٩٢٩ وقد اشترك معه فى تأليفه چوليان هكسلى و ج . پ . ولز ؛ وهو قصة مفصلة لتطور الأحياء . أما الحلقة الثالثة فهى « عمل الإنسان وثروته وسعادته » *The Work, Wealth and Happiness of Mankind* ١٩٣٣ ويشتمل على خلاصة وافية لعلم الاجتماع .

وكان ولز من أنصار « الدولة العالمية » ومن أقوى الداعين لها . وقد أدرك من زمن طويل أن المنازعات التافهة بين بنى الإنسان بسبب تضارب المصالح الاقتصادية والسياسية هى السبب الأكبر فيما يحل بالعالم من خسائر فادحة فى الأنفس والأموال ، ستقضى إذا استمرت على المدنية . ولهذا وهب حياته للدعوة إلى قيام الدولة العالمية . والطريقة التى تصورها لإنشاء هذه الدولة هى تنظيم الذكاء العالمى كما يبدو فى رؤساء المنشآت التجارية والصناعية الكبرى ، وفى العلماء ورجال الأعمال الفنيين . وقد رسم صورة لهذه الدولة فى كتابه « صور الأشياء المقبلة » وخاصة فى الفصل المعنون « تسامى المقصد » *The Sublimation of Interest* . وقد تألفت فى عام

١٩٢٩ جمعية هـ . ج . ولز لتحقيق هذا الغرض واتخذت مبادئ الكاتب الكبير أساساً لأعمالها .

ولم ينقطع ولز عن الكتابة والتأليف إلى آخر أيام حياته ، وقد أصدر فى عام ١٩٤٥ كتابا عن المسيحية واتجه قبل ذلك إلى وضع روايات سنمائية لاقت نجاحاً منقطع النظير .

وكتب ولز — من روايات وقصص — ، ومقالاته تقرأ كثيراً فى مصر وكثير منها مترجم إلى اللغة العربية .

وكان بين ولز وشو كثير من المنافسة والمداعبة . وقد قال عنه شو مرة إنه الرجل الذى مات فى سن الأربعين ودفن فى سن الثمانين . ولئن كان فى صدر عبارته هذه ساخرا فكأنما كان فى عجزها متنبئاً ، فقد مات ولز بعد أن أتم الثمانين من عمره لا ينقصها إلا شهر واحد وبضعة أيام .

هذا هو هـ . ج . ولز مؤلف الكتاب الذى نقدم ترجمته الآن للقراء وهى ترجمة التزمنا فيها الأصل الإنجليزى إلى أقصى حد ، فلم نجز لأنفسنا حذف شىء من أقوال المؤلف أو إضافة شىء من عندنا إليها . ولسنا نريد أن نتولى عن القارئ مهمة تفهم أغراض المؤلف أو شرح آرائه ونظرياته . وكل الذى نسمح لأنفسنا بقوله من هذه الناحية أنه فى هذا الكتاب يمزج العلم بالقصص كشأنه فى معظم كتبه ، وأن حوادثه تمثل الصراع المقبل بين القديم والجديد كما يراه المؤلف . أما عدا هـذا من المبادئ الاجتماعية والفلسفية التى اشتمل عليها الكتاب فإنا نفضل أن نترك مهة استخلاصه للقارئ نفسه .

محمد بدر الدين

القاهرة ، ديسمبر ١٩٤٦

الكتاب الأول

فجر الطعام

الفصل الأول

كشف الطعام

١

فى أواسط القرن التاسع عشر كثر لأول مرة فى هذا العالم العجيب جيل من الآدميين كثرتهم من كبار السن يسميهم الناس « علماء » ؛ ومع أنهم خليقون بهذا الاسم فقد كانوا أشد الناس بغضاً له . وبلغ من بغضهم له أنك لا تراه قط فى مجلتهم ، مجلة « الطبيعة » التى كانت من يوم صدورها تنطق بلسانهم وتعبر عن آرائهم ، كأن لا فرق بينه وبين ذلك اللفظ الذى هو أساس كل الألفاظ القبيحة فى هذا البلد . أما الجمهور الكبير وصحافته فقد كانا أكثر علماً من العلماء أنفسهم بما لهذه الطائفة العظيمة من مكانة . ولذلك يصر الجمهور على أن يسميهم علماء ، ولا تنفك الصحف تصفهم بهذا الوصف . وإذا ما برز بعضهم فى هذا المضمار كان أقل ما يلقبون به هو « العلماء الأجلاء » و « العلماء الممتازين » و « كبار العلماء » و « العلماء الأعلام » إلى غير ذلك من صفات التعظيم والإجلال .

وما من شك فى أن مستر بنزنجتن والأستاذ ردوود كانا من أجدر الناس بهذه الألقاب ، حتى قبل أن يعثرا على الكشف العظيم الذى ستروى قصته فى هذا الكتاب . فأما مستر بنزنجتن فقد كان زميلا فى الجمعية الملكية ، وكان فى وقت ما رئيساً للجمعية الكيميائية . وأما الأستاذ

ردوود فكان أستاذ علم وظائف الأعضاء فى كلية بندستريت ، إحدى كليات جامعة لندن ؛ وكثيراً ما تعرّض لحملات من يعارضون فى تشريح أجسام الحيوانات الحية ، الذين طالما شهروا به وولغوا فى عرضه ؛ ولا جدال فى أن الرجلين كانا من عهد الصبا من العلماء الممتازين .

ولا حاجة إلى أن نقول بأنهما لم يكونا أجمل منظراً من سائر الناس ، وأنهما لم يكونا يعنيان بمظهرهما الخارجى ، شأنهما فى ذلك شأن سائر العلماء . فأنت تعرف أن الممثل المسرحى يؤثر فى الناس بمظهره أكثر مما يؤثر فيهم أعضاء الجمعية الملكية مجتمعين . وكان المستر بنزنجتن رجلا قصير القامة ، أصلع الرأس ، إذا مشى أو وقف انحنى قليلا إلى الأمام ؛ وكان يضع على عينيه منظارين ذوى إطار ذهبى ، وفى قدميه حذاءين من القماش فيهما خروق كثيرة يتقى بها آلام ثآليله . وأما المستر ردوود فكان من أبسط الناس منظراً . وكان الرجلان إلى ما قبل عثورهما على طعام الآلهة — وهى تسمية أتمسك بها وأصر عليها كل الإصرار — يعيشان فى عزلة بعيدين عن أنظار الناس ، ويقضيان جل وقتهما فى البحث والدرس ، حتى ليصعب علىّ أن أجد ما أقوله للقارئ عنهما .

وكان السبب الذى رفع من شأن المستر بنزنجتن — إذا جاز أن يوصف رجل يلبس فى قدميه حذاءين من القماش ذوى خروق بأنه رجل رفيع الشأن — هو أبحاثه العظيمة فى القلويات السامة ؛ أما المستر ردوود فالذى أذاع شهرته — لست أذكر بالضبط كيف ذاعت شهرته ، بل كل الذى أعرفه أن شهرته ذاعت ونجمه تألق . ذلك أن الشهرة من الأشياء التى تنمو على مر الزمن ، ولعل منشأها أنه ألف كتاباً ضخماً فى أوقات الرجعة ، يحتوى على كثير من الرسوم الدالة على حركات النبض فى هذه الأوقات (وقد أكون مخطئاً فى حكمى هذا وقد أكون مصيباً) ، وأنه وضع كثيراً من المصطلحات الجديدة فى هذا الفرع من فروع العلم .

ولم يكن عامة الناس يرون الرجلين إلا نادراً ، وكانوا فى بعض الأحيان يرون المستر بنزنجتن فى المعهد الملكى أو جمعية الفنون الجميلة ، أو كانوا على الأقل يرون رأسه الأصلع الأحمر أوجزءاً من سترته وطوق قميصه ، وينصتون إلى أجزاء متقطعة من محاضرة أو بحث يظن أن الناس يسمعونه منه .

وأذكر مرة — وكان ذلك فى ظهر أحد الأيام البعيدة الماضية — حين كان مقر الجمعية البريطانية فى مدينة دوفر ، أنى عثرت صدفة على قسمها المرقوم بحرف ح أو ى أوحرف آخر شبيه بهما ، وكان مقر هذا القسم فى حانة المدينة . فدخلته وسرت فيه خلف سيدتين وقورتين بأيديهما أشياء ملففة فى ورق ، حتى دخلتا من باب كتب عليه « بليرد » و « لعب الورق » أوصلهما إلى حجرة مظلمة مريبة ، ليس فيها من الضوء إلا دائرة فانوس رددوود السحرى . ورأيت زجاجاته توضع وترفع ، وسمعت صوتاً (لا أذكر ماذا كان يقول) ولعله كان صوت الأستاذ رددوود ، ينطلق وسط أزيز الفانوس ، وصوتاً آخر هو الذى أطلت من أجله المكث فى ذلك المكان رغبة فى معرفة مصدره ، حتى أضيئت الأنوار فجأة ، فتبينت أنه يخرج من أفواه الحاضرين ، وكانوا يلوكون قطعاً من الفطائر والشطائر وغيرها مما جاءوا به ليأكلوه فى الظلام الذى يسود القاعة حين تعرض صور الفانوس السحرى .

وأذكر أن رددوود ظل يتحدث طوال الوقت الذى كانت الأنوار فيه مضاءة ، ويضرب بعصاه موضع الصور على الشاشة البيضاء ، حتى عادت هذه الصور إلى الظهور بعد أن أطفئت الأنوار من جديد . وإنى لأتصوره الآن رجلا كغيره من الرجال ، قاتم اللون قليلا ، عصبى المزاج ، يخيل إلى من يراه أن أمراً آخر يشغل باله ، وأنه يفعل ما يفعله وقتئذ حرصاً منه على أداء واجب لا أعرف حقيقته .

كذلك سمعت بنزنجتن مرة قبل هذه فى مؤتمر تعليمى عقد من زمن بعيد فى بلومزبرى ، وكان كغيره من كبار العلماء ، علماء الكيمياء والأحياء ،

حريصاً على أن يعلم الناس ما يعلم — وإن كنت لا أشك مطلقاً فى أنه لو طلب إليه أن يدرس لفصل عادى فى إحدى المدارس الحكومية لجن جنونه بعد نصف ساعة — وكان فيما أذكر يشرح ما أدخله من التحسين على طريقة الأستاذ آرمسترنج التى يستطيع بها الطفل المتوسط الذكاء ، بعد أن يتلف من العدد والأجهزة ما قيمته ثلثمائة جنيه أو أربعمائة ، ويهمل سائر الدراسات الأخرى ، ويركز عقله فى هذه الطريقة وحدها كما يركزه المدرس ذو المواهب الممتازة ، نقول يستطيع هذا الطفل أن يحصل من الكيمياء ما يحصله الإنسان من أحد الكتب الكثيرة الكريهة التى تباع فى الطرقات بشلن واحد . . .

وقصارى القول أن كلا الرجلين كان فى غير ميدان العلم رجلا عادياً كغيره من الآدميين ؛ وإذا كان لأحدهما ما يمتاز به عن سائر الناس ، فهو أنه كان أقل منهم خبرة بشئون الحياة العملية . وتلك خلة من خلال «العلماء» فى جميع أنحاء العالم ، فأسباب عظمتهم تبغض فيهم زملاءهم العلماء ، وتخفى حقيقتها عن عامة الناس ؛ أما ماهو غير عظيم فيهم فيبدو واضحاً لاخفاء فيه .

وليس ثمة شك مطلقاً فى هذا النوع الأخير ، فلم يؤت طائفة من الناس ما أوتى العلماء من أسباب الصَّغار الواضحة ، فهم من حيث صلاتهم بغيرهم يعيشون فى عالم ضيق محصور ، وأبحاثهم العلمية تتطلب منهم انصرافاً إليها وعزلة عن الناس لا تكاد تقل عن عزلة النساك ، ولا تبقى لهم من وقتهم إلا القليل . وإذا شاء القارئ أن يرسم فى مخيلته صورة لواحد منهم ، فليتصور إنساناً غريباً خجولا ، مشوه الخلقة ، أشيب الرأس ، معجباً بنفسه ، كاشفاً صغيراً لكشوف عظيمه ، يزين صدره شريط عريض لوسام يسخر منه الناظرون ، يستقبل جماعة من أمثاله ، أو يقرأ فى إحدى المجلات العلمية كلمة كتبها زميل له عن « إغفال شأن العلم » حين لاينال أعضاء الجمعية الملكية نصيبهم من ألقاب الشرف فى عيد الميلاد ، أو يصغى إلى عالم مجد يبحث فى

الأشنيات ، ويعلق على آراء عالم مجد آخر فيها . أليست هذه كلها من صغائر الأمور التى لا يسع الإنسان إلا أن يشاهدها فيهم .

ومع هذا فإن ما أقامه هؤلاء « العلماء » وما لا يزالون يقيمونه من قواعد « العلم » عجيب هائل مفعم بالآمال العظيمة الخفية عن مستقبل البشرية العظيم . ويلوح أن هؤلاء العلماء لا يدركون كنه ما يفعلون . نعم إنى لا أشك فى أن مستر بنزنجتن حين اختار هذه المهنة لنفسه من زمن بعيد ، وحين كرس حياته لدراسة ظواهر القلويات والمركبات التى من نوعها ، كانت لديه لمحة غامضة ، أو لعلها أكثر من لمحة ، من ذلك الخيال أو الأمل . ولولا هذه اللمحة التى أسميها إلهاماً أو وحياً يوحى إلى « العالم » دون غيره ، ويعرف منه مايتوقعه من مجد ومكانة ، لما رأيت شاباً يكرس حياته لذلك العمل الذى يكرس له الشبان حياتهم فى هذه الأيام . ولا شك عندى فى أن هذا المجد كان أمامهم حقاً ، وأنهم قد أبصروه ، ولكنه كان قريباً منهم فبهرهم وأعمى أبصارهم . وما كان ذلك إلا رحمة بنا ، فقد استطاعوا هم أن يظلوا طوال حياتهم يمسكون شعلة العلم بأيديهم تضئ لنا فنبصر ، وهم هادئون مطمئنون !

ولعل السبب فيما كان يبدو على ردوود من قلق وانشغال بال أنه كان يختلف عن سائر زملائه العلماء ، يختلف عنهم فى أن شيئاً من هذه الرؤيا كان لايزال يتألق أمام ناظريه . ولقد تحققت من ذلك الآن .

٢

طعام الآلهة غذاء اصطنعه المستر بنزنجتن والأستاذ ردوود معاً . وبعد أن عرفنا ما كان لهذا الطعام من أثر فى الماضى والحاضر ، وما لابد أن يكون له من أثر فى المستقبل ، فإنى لا أرى فى هذا الاسم شيئاً من المغالاة ؛ ومن أجل هذا لن أعدل عنه فى خلال هذه القصة كلها . أما المستر بنزنجتن فكان

يبغض هذه التسمية بغضه الخروج من مسكنه فى شارع سلون مرتدياً ملابس حمراء وتاجاً من الزهر . وقد نطق بالاسم أول ما نطق حينما استولت عليه نوبة من الدهشة ، ولكن دهشته وحماسته لم تدوما أكثر من ساعة ، تبين له بعدها أنه كان سخيفاً حقاً ، ذلك أنه تصور فى هذه النظرة الأولى مايمكن أن يؤدى إليه طعامه من نتائج خطرة حقًا ، ثم أغمض عينيه عن هذه الصورة بعد تلك النظرة الأولى شأن « العالم » ذى الضمير الحى ؛ ومن هذه اللحظة أصبح طعام الآلهة اسما يستك منه سمعه ؛ وعجب كيف سولت له نفسه أن ينطق به . ولكنه كان من حين إلى حين يستعيد فى ذاكرته هذه الساعة التى مرت به ، وكانت تتراءى له بوضوح تلك الرؤيا التى رآها أول مرة وقت أن أبصرت عيناه الطعام .

ومرت به الآن لحظة من هذه اللحظات قال فيها لزميله وهو يمسح إحدى يديه بالأخرى ويضحك ضحكة عصبية :

— وإنك لتعرف أيها الصديق أن فى هذا الاختراع شيئاً أكثر من اللذة العلمية .

ثم قرب وجهه من وجه الأستاذ ردوود وخفض من صوته وقال :

— إنه إذا أحسن التصرف فيه أمكن أن يتخذ بضاعة تباع فى الأسواق .

ثم قام من مكانه ومشى قليلا وهو يقول :

— لاشك فى هذا . إنه يصح أن يتخذ غذاء ، أو إنه على الأقل يمكن أن يكون عنصراً من عناصر الغذاء . هذا بالطبع على فرض أنه سيكون ذا طعم مستساغ ، وهو ما لا نستطيع أن نعرفه حتى نحضره .

ثم عاد إلى جوار الموقد وأخذ ينظر إلى خروق حذائه ، ثم إلى وجه صديقه ، وقال له ردًا على سؤال أحس أنه يتردد فى خاطره :

— أتسألنى عن اسمه ؟ إنى أنا شخصيًا أميل إلى الألفاظ اليونانية واللاتينية القديمة ؛ لأنها ترفع من مقام العلم وتخلع عليه شيئاً من وقار القدم .

ولقد كنت أفكر . . . ولعلك تسخر منى إذا صرحت لك بما كنت أفكر فيه . . . ولكن شيئاً من الخيال الجامح قد يسمح به فى بعض الأحيان . . . فما قولك فى لفظ « هرقليوفوربيا » أى غذاء هرقل . إنك لتعرف أنه قد يخرج فى العالم . . .

— وإذا لم يرضك هذا بطبيعة الحال . . .

وأخذ ردوود يقلب الأمر فى فكره وعيناه تنظران إلى النار ، ولم يبد على قول زميله أى اعتراض ، ثم قال :

— أتظن هذا الاسم صالحاً ؟

وهز ردوود رأسه فى وقار .

وواصل بنزنجتن حديثه قائلا :

— قد نرى أن نسميه « تيتانوفوربيا » أى طعام الجبابرة . . . فأى الاسمين تفضل ؟ أتفضل الأول ؟

— وهل أنت واثق من أن هذه التسمية غير مفرطة فى الآمال . . .

— لست أعتقد أنها مفرطة .

— إن هذا يسرنى كثيراً .

وهكذا اتفق الرجلان على أن يسميا الطعام فى أثناء بحوثهم هرقليوفوربيا . ومن أجل ذلك نراه يذكر دائماً بهذا الاسم فى تقريرها ، ذلك التقرير الذى لم ينشر قط ؛ لما طرأ أثناء عملهما من أحداث غيرت مجرى تفكيرهما . وقد أخرجا فى أثناء هذه الأبحاث ثلاث مواد متقاربة قبل أن يعثرا على المادة الثالثة التى كانا يجدّان فى البحث عنها ، وسميا هذه المواد هرقليوفوربيا رقم ١ وهرقليوفوربيا رقم ٢ وهرقليوفوربيا رقم ٣ . أما هرقليوفوربيا رقم ٤ فهو الذى أسميه فى هذا الكتاب « طعام الآلهة » مستمسكا فى هذا بالاسم الذى سماه به بنزنجتن أولا .

٣

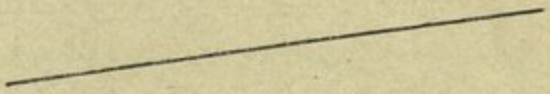
وكان مستر بترنجتن صاحب فكرة هذا الطعام ، ولكن الذى أوحى إليه بهذه الفكرة إشارة وردت فى كتابات الأستاذ ردوود الفلسفية ، ولذلك رأى من واجبه أن يستشير هذا الأستاذ ولا قبل أن يواصل بحوثه . يضاف إلى هذا أن البحث عن الطعام يعد من البحوث الفسيولوجية كما يعد من البحوث الكيميائية .

وكان الأستاذ ردوود من العلماء الطبيعيين المولعين فى بحوثهم بالخطوط والمنحنيات . وإذا كان القارئ من الصنف الذى أميل إليه ، فإنه لا شك يعرف نوع الأوراق العلمية التى أشير إليها ، فهى أوراق ليس فى مقدوره ان يعرف أولها من آخرها ؛ ولكنه يرى فيها خطوطاً عجيبة منكسرة على جانبيها خطوط صغيرة كثيرة كالتى يمثل بها وميض البرق فى الصور ، كما يرى فيها علامات ملتوية لا معنى لها يسمونها « المنحنيات المنبسطة » القائمة على خطوط منبسطة وما إليها . ومهما أنعمت النظر إليها ، والتفكير فيها ، خرجت وأنت تظن أنك لا تفهم منها شيئاً ، وأن كاتبها نفسه لا يفهم منها أكثر مما تفهم . ولكن الحقيقة أن كثيراً من أولئك العلماء يعلمون حق العلم ما تحتويه أوراقهم من معان ، وأن الذى يقيم العوائق بين عقولنا وعقولهم عجزهم عن توضيح ما يريدون .

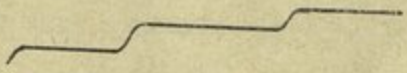
وأكبر ظنى أن ردوود كان يبنى تفكيره على قاعدة الخطوط والمنحنيات . ولما نشر فى العالم بحثه العظيم عن أوقات الرجعة (ونصيحتى إلى القارئ غير العالم أن يصبر قليلا على هذه التسمية حتى يتضح له معناها وضوح الشمس فى رائعة النهار) طلع على العالم بمنحنيات منبسطة ورسوم بيانية تفسر أدوار

النمو . وكانت ورقة من هذه الأوراق التى نشرها عن أطوار النمو هى التى أوحت إلى المستر بترنجتن بفكرته .

وكان المستر بترنجتن ، كما يعلم القارئ ، يشتغل بقياس أدوار النمو فى كثير من الكائنات الحية كالقطط الصغيرة والكلاب والأزهار المعروفة بدوار الشمس ، والفطريات ونبات الفول وعلى ابنه الصغير (إلى أن حرمت عليه زوجته إجراء التجارب عليه) . وقد أثبت بهذه البحوث أن النمو لا يسير بخطاً منتظمة على هذا النحو .



بل يسير فى نوبات متقطعة هكذا :



وأن لا شىء فى العالم ينمو أو يستطيع أن ينمو نمواً مطرداً منتظماً ، وأن الذى يستطيع أن يتبينه أن كل حى فيه يظل فترة من الزمان يستجمع القدرة على النماء ، ثم ينمو بقوة زمناً ما ، حتى إذا استنفد طاقته عاد إلى الانتظار فترة يبدأ بعدها نموه من جديد . وأشار ردوود فى ألفاظ مستورة فنية كما يفعل « العلماء » الحقيقيون الشديدو العناية بعلمهم ، إلى أن عملية النمو تحتاج فى رأيه إلى وجود كمية كبيرة من مادة معينة فى الدم تتكون فيه ببطء ، فإذا استنفدت فى هذه العملية عادت إلى التكون فيه ببطء

شديد ، ووقف فى أثناء تكونها نمو الكائن الحى . وشبه عمل هذه المادة غير المعروفة بعمل الزيت فى الآلة الصناعية ، وشبه الحيوان النامى من بعض الوجوه بالقاطرة ، فهى تستطيع أن تجتاز من الأرض مسافة ما ، ثم تحتاج إلى الزيت يوضع بين أجزائها حتى تقوى على مواصلة السير . وقال بنزنجتن حين قرأ هذه الورقة :

— ولم لا تطلى هذه الآلة بالزيت من خارجها ؟

وقال ردوود بعد ذلك فى حماسة العلماء أمثاله ووثباتهم الفكرية العصبية :

— إن هذا قد يلقى شيئاً من الضوء على مشكلة بعض الغدد الصمّ التى لا تزال مستعصية على الحل .

كأن لهذه الغدد شأناً ما فى هذا النمو .

وذهب ردوود فى بحثه إلى أبعد من هذا ، وجاء بطائفة كبيرة من رسوم بيض وسود ، وخطوط كمجرى السهام ، خلاصتها — إن كان لها خلاصة — أن دماء صغار الكلاب والقطط وماء الحياة الذى يجرى فى ورد الشمس وعصير الفطريات ، إذا بحثت فى أثناء ما يسميه « مراحل النمو » تبين أن بعض عناصرها تختلف نسبتها عنها فى أيام وقوف النمو .

ولما أخذ بنزنجتن يدرك هذا الفرق ، بعد أن نظر إلى الرسوم من جانبيها ومن أعلاها وأسفلها ، دهش أيما دهشة إذ بدا له أن الفرق قد يكون سببه وجود تلك المادة التى كان منذ قليل يبذل جهده لعزلها فى أثناء أبحاثه فى القلويات الشديدة التنبيه للجهاز العصبى . وحينئذ وضع ورقة ردوود على مكتبه الذى كان يتأرجح قرب كرسيه الساند فيضايقه ، وأمسك بمنظاره ذى الحافة الذهبية ، ونفخ فى زجاجتيه ومسحهما بعناية شديدة وقال :

— أقسم غير حانث !

ثم رفع منظاره مرة أخرى وأخذ الورقة من فوق مكتبه — وما كاد يمسه

حتى فرقع خشبه — وأمسك بها ونظر إلى رسومها المتفرقة ثم ألقى بها على الأرض وقال :

— أقسم غير حانث

قالها وهو ينثنى ببطنه على كرسيه الساند وظل على ذلك وقتاً طويلا غير عابئ بالعادات التى يرعاها من يجلسون على هذا المقعد المريح ، ويمد يديه نحو الأرض ليلتقط الورقة الملقاة عليها ، ولكن الورقة كانت أبعد من أن ينالها بهذه الطريقة ، فنزل عن كرسيه وركع على ركبتيه ومد إليها كلتا يديه . وقد خطر له فى هذه اللحظة وهو فى هذا الوضع أن يسمى المادة الجديدة طعام الآلهة . . .

وظن أنه إذا وثق من أنه على حق ، وأن ردوود على حق ، واستطاع أن يحقن الناس بهذه المادة الجديدة أو يمزجها بطعامهم ، أمكنه أن يقضى على « مرحلة الانتظار » فى النمو فيجعله يسير فى خط مستقيم :



بدل أن يسير فى خط منكسر :



ولعلك فاهم ما أقول .

٤

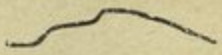
ولم يغمض بنزنجتن عينيه قط فى الليلة التى أعقبت حديثه مع ردوود ، وخيل إليه لحظة أنه أغفى قليلا ، فحلم أنه احتفر فى الأرض حفرة عميقة ، وصب فيها كميات كبيرة من طعام الآلهة ، وأن الأرض قد انتفخت على أثر ذلك ثم انتفخت ، وأن نجوم الدول تحطمت ، وأن الجمعية الجغرافية الملكية حشدت أعضاءها كلهم ليصلوا ما تقطع من أجزاء خط الاستواء . . .

وكان هذا بطبيعة الحال حلماً سخيفاً ، ولكنه أعظم دلالة من كل ما قاله أو فعله فى يقظته على اضطراب عقله ، وعلى ما يعزوه إلى تفكيره الجديد من شأن خطير . ولولا حالته هذه لما قصّ علىّ حلمه ، ولما استطعت أنا أن أقصه على القارئ ؛ لأن الناس أصبحوا فى هذه الأيام لا يعنون كثيراً بأن يقصوا على غيرهم أحلامهم .

ومن غريب المصادفات أن ردوود أيضاً رأى وهو نائم فى تلك الليلة حلماً شبيهاً بحلم زميله .

رأى شكلا مرسوماً فى نار متقدة فى هوة سحيقة ، وكان هو واقفاً على كوكب من الكواكب أمام منصة سوداء ، يلقى محاضرة علمية عن هذا النوع الجديد من أنواع النمو ، وهو الذى أصبح آنئذ مستطاعا . كان يلقيها على عضاء المعهد « فوق الملكى » للقوات الأولية ، وهى القوات التى ظلت تسيّر نمو الشعوب والدول والكواكب والعالم على النمط القديم :

والتى كانت فى بعض الأحيان تسيره على هذا النمط :



وكان فى هـذه المحاضرة يشرح لسامعيه شرحاً واضحاً مقنعاً أنه سوف يستطيع بكشفه الجديد أن يقضى على هذا النمو البطىء ، بل هذا النمو الرجعى أحياناً .

وذلك أيضاً حلم سخيف ولـكنه يدل على أن . . .

ولست أحب أن يحمِّل القارئ هذه العبارات من المعانى أكثر مما يفهم منها صراحة . فلست أريد أن أقول إن هذا الحلم أو ذاك من الأحلام الموحية أو المنبئة بالمستقبل ، بل الذى أريد أن أقوله هو ما قلته دون غيره .

الفصل الثانى

مزرعة التجارب

١

وأراد المستر بتزنجتن أن يجرب المادة الجديدة فى الضفادع الصغيرة بعد تحضيرها فى معمله ، ذلك أن من عادة العلماء أن يجربوا أمثال هذه المادة فى الضفادع أولا ؛ لأن الضفادع لم تخلق إلا لهذا الغرض . واتفق مع زميله ردوود أن يقوم هو نفسه بهذه التجارب ؛ لأن معمل ردوود كان غاصاً بالحيوانات والأجهزة اللازمة للبحوث التى كان يجربها ليعرف ما يطرأ من التغيرات اليومية على قدرة العجول الصغيرة على النطح ، وقد حصل منها على منحنيات من نوع محير شاذ غير مألوف ، وكان وجود السكرات الزجاجية المحتوية على الضفادع الصغيرة أمراً غير مرغوب فيه مطلقاً أثناء قيامه بالبحوث السالفة الذكر .

ولما أن أفضى المستر بتزنجتن إلى ابنة عمه جين بشىء مما كان يعتزمه رفضت رفضاً باتاً أن يجىء إلى مسكنها بعدد كبير من الضفادع أو ما شابهها من حيوانات التجارب . فهى لم تكن تعارض مطلقاً فى أن يخصص إحدى حجر شقتها لتجاريبه فى المواد الكيميائية غير المفرقعة ؛ لأن هذه المواد على ما تعلم لا تأتى بضرر مطلقاً ؛ وكانت تسمح له أن يستخدم فى هذه الحجرة موقداً غازياً وبالوعة وصواناً لا ينفذ إليه الغبار الذى كانت تثيره فى المسكن كل أسبوع أثناء تنظيفه ، وهو العمل الذى لم تكن تغفل عنه بحال من

الأحـوال . ولم يكن يضايقها كثيراً حرص بنزنجتن على أن يتألق اسمه فى المجتمعات العلمية ؛ لأن ذلك فى رأيها خير ما يستعاض به عن ذلك النوع الآخر من الصَّغار الذى ينحدر إليه بعض من تعرفهم من الناس ، وهو إدمان الشراب . كل هـذا كانت تسمح به ، أما أن يأتى بنزنجتن إلى مسكنه بطائفة من الكائنات تتلوى وهى حية ، وتنبعث منها الروائح النتنة وهى موتى ، فهو ما لا تطيقه ولا تسمح به . وكان مما قالته له أنها لا تشك فى أن هذه الأشياء مضرة بالصحة ، وأن بنزنجتن رجل نحيف رقيق — ولم يكن ثمة فائدة فى القول بأنه ليس كذلك . ولما أراد الرجل أن يوضح لها ما قد يكون لكشفه الجديد من شأن عظيم إذا أفلح فيه ، قالت إنها لا تنكر هذا ، ولكنها إذا سمحت بأن يكون كل ما فى البيت قذراً مضراً بالصحة (وهذا ما لابد من حدوثه آخر الأمر) ، فإنه هو نفسه سيكون أول من يشكو من هذه الحالة .

وقام مستر بنزنجتن يذرع الحجرة جيئة وذهاباً غير عابئ بثآليله ، وانطلق يتحدث إلى ابنة عمه فى غضب وشدة ، ولكن ذلك لم يجده نفعاً . ولما قال لها إنه لايصح أن يحول شىء فى العالم دون تقدم العلوم ، قالت إن تقدم العلوم شىء ، ووجود طائفة من الضفادع فى شقة يسكنها الآدميون شىء آخر . ثم قال لها إن من الحقائق الثابتة أنه إذا وجد فى ألمانيا رجل له من الآراء مثل ما له هو ، خُصص له من فوره معمل لا تقل مساحته عن عشرين ألف قدم مكعبة ، مجهز بأحسن العدد ؛ فأجابته بأنها كانت ، ولا تزال ، تحمد الله على أنها ليست ألمانية . ولما أنبأها بأن عمله هذا سيخلد اسمه فى صفحات التاريخ أجابته بأن أكثر من هـذا احتمالا أن تسوء صحته ويمرض لوجود الضفادع معه فى مسكنه . ثم قال إنه سيد الدار ، فأجابته بأنها تفضل أن تترك الدار له لتخدم الأطفال فى مدرسة ، على أن تعنى بطائفة من صغار الضفادع . وأخيراً هدأ روعه وطلب إليها أن تثوب إلى رشدها ، فطلبت هى إليه أن يثوب إلى رشده ، وأن ينفض يديه من الضفادع ومن كل مايتصل بها . وسألها أن تحترم آراءه ،

فردت عليه بأنها لن تحترمها إذا كانت نتنة . تخضع لها آخر الأمر ، ولكنه قال لها كلمة لا تليق — مخالفاً فى ذلك ما قاله هكسلى فى هذا الموضوع بالذات . نعم إن هذه الكلمة لم تكن شديدة ، ولكنها مع ذلك لم تكن مما يصح أن يقال .

فلما سمعتها غضبت غضباً شديداً لم يجد معه بداً من الاعتذار ، وكان من نتائج اعتذاره أن قضى على كل أمل فى تجربة طعام الآلهة فى الضفادع فى مسكنه .

واضطر بترنجتن أن يفكر فى وسيلة أخرى لإجراء تجاربه فى التغذية ، وهى التجارب التى كان لابد من إجرائها ليشرح بها للناس هذا الكشف الجديد حين يتم له عزل مادته وتحضيرها ، وقضى بضعة أيام يفكر فى إسكان ضفادعه عند صديق له يثق به ، ثم خطر له بعد ذلك أن ينشئ لهذا الغرض مزرعة تجارب حين رأى هذه العبارة مصادفة فى إحدى الصحف.

والفراخ : لم تكد فكرة المزرعة تخطر بباله حتى بدا له من فوره أن يجعلها مزرعة دجاج ، فقد استهوته صورة الفراخ نامية أكثر من المألوف ، وتصور الأقفاص والمراكض وقد أخذت تكبر وتتسع تدريجاً لتحتوى هذه الفراخ الجديدة ؛ والفراخ مخلوقات يسهل الحصول عليها وإطعامها وملاحظتها ، وهى أجف من الضفادع ملمساً وأسهل منها قياساً ؛ وقد بدت له الضفادع بالقياس إليها حيوانات شكسة مستوحشة ، وعجب كيف لم يفكر فى فراخ الدجاج بدل الضفادع من بداية الأمر ، ولو أنه فعل لأنجاه هذا من النزاع الذى قام بينه وبين ابنة عمه چين . ولما عرض هذا على ردوود وافقه عليه كل الموافقة .

وقال ردوود إنه لا يشك أن علماء وظائف الأعضاء التجريبيين يخطئون إذ يجرون معظم تجاربهم على الحيوانات الصغيرة ، دون أن تلجئهم الضرورة إلى ذلك . وهذا فى رأيه أشبه بإجراء التجارب الكيميائية فى كمية من المادة

غير كافية ؛ ونتيجة ذلك أن الأخطاء الناشئة من معالجة المادة وملاحظتها تبدو فى أثناء التجارب صغيرة ، ولكنها فى الحقيقة أخطاء جسيمة . وكان يرى أن من المهم جداً فى ذلك الوقت أن يقرر العلماء حقهم فى أن تكون مادة تجاربهم كبيرة . وذلك الاعتقاد هو الذى دعاه إلى أن يجرى تجاربه وقتئذ فى كلية بند ستريت على العجول رغم ما يسببه انطلاقها أحياناً فى طرقات الكلية من متاعب للطلبة والأساتذة الذين يشتغلون بموضوعات أخرى . ولكن المنحنيات التى حصل عليها بتجاربه كانت من الطرافة والغرابة بحيث تبرر هذا الاختيار ، وسيعلم الناس ذلك عند ما ينشرها عليهم . ولولا قلة المال الذى يرصد للأغراض العلمية فى هذه البلاد لما رضى أن يجرى تجاربه على حيوانات أقل حجماً من حيتان البحر إذا وجد إليها سبيلا . ولكنه كان يرى أن وجود مزرعة عامة كبيرة ، تفى بهذا الغرض ، أمل بعيد التحقيق فى هذه الأيام ، وفى هذه البلاد على الأقل ؛ أما فى ألمانيا . . . الخ .

ولما كانت عجول ردوود تشغل كل وقته ، فقد كان اختيار مزرعة التجارب وإعدادها من نصيب بنزنجتن فى الغالب ؛ كذلك كان المتفق عليه أن يقوم بنزنجتن أيضاً بدفع جميع ما يتطلبه ذلك العمل من النفقات إلى أن يتيسر له الحصول على منحة مالية . ومن أجل هذا أخذ بنزنجتن يقسم وقته بين معمله وبين البحث عن مزرعة على الطريق الممتد إلى الجنوب من لندن . وكثيراً ما كان منظاره البرّاق ، وصلعته الساذجة ، وحذاؤه المخرق تبعث الآمال فى نفوس الملاك الذين لم تعجبه مزارعهم ، وأعلن الرجل فى عدة جرائد يومية وفى مجلة « الطبيعة » عن حاجته إلى زوجين مجدين ، يشعران بالتبعة ، ويحافظان على الموعد ، ذوى تجارب فى تربية الدجاج ، وفى وسعهما أن يشرفا على مزرعة تجريبية مساحتها ثلاثة فدادين .

فأما المكان الذى ظن أنه فى حاجة إليه فقد وجده فى هكليبراو بالقرب

من إرشت من أعمال كنت ، وكان موضعاً صغيراً غريباً غير مطروق ، فى واد صغير تحيط به أشجار الصنوبر الكبيرة ، سوداء اللون رهيبة المنظر فى أثناء الليل . وكان إلى غربها تل مرتفع قليلا يحجب عنها الشمس وقت الغروب ، وبها بئر معطلة ذات سور محطم ، تشوه منظر البيت . وكان البيت نفسه خلواً من النبات الزاحف ، محطم كثير من النوافذ ، وكان موضع العربة الذى فيه مظلماً وقت الظهيرة . وكانت المزرعة على بعد ميل ونصف ميل من آخر بيت فى القرية ، فكانت لذلك تصل إليها أصداء أصواتها ، ولكنها لا تقلل من عزلتها .

وبدا لبترنجتن أن هذه المزرعة أنسب الأمكنة للبحوث العلمية ، فأخذ يغدو ويروح فى أرجائها يصور الأقفاص هنا والحظائر والمسارح هناك ؛ ووجد المطبخ يتسع لعدد من المحاضن وأمهات الدجاج دون حاجة إلى تغيير فيه إلا القليل ، ومن أجل هذا استأجر المزرعة فى الحال ، واتخذ طريقه عائداً إلى لندن . ولكنه عرج على دنتن جرين وتعاقد مع رجل وزوجته كانا قد كتبا إليه رداً على إعلانه . وفى هذا المساء نفسه استطاع أن يعزل كمية من هرقليوفوربيا رقم ١ تكفى لتبرير تعاقده مع أصحاب المزرعة ومع الزوجين اللذين سيقومان بالعمل فيها .

وكان الزوجان اللذان شاءت الأقدار أن يكونا أول من يقدمان طعام الآلهة على هذه الأرض بإشراف بترنجتن — رجلا وامرأة طاعنين فى السن ، شديدى القذارة ، ولكن بترنجتن فاته أن يلاحظ هذا العيب الثانى لطول اشتغاله بالعلوم التجريبية ؛ إذ لا شىء فى العالم يفسد قوة الملاحظة العامة كما يفسدها دوام الاشتغال بهذه العلوم . وكان اسم الزوجين المستر والمسز اسكنر ، وقابلهما بترنجتن فى حجرة صغيرة سدت نوافذها كما تسد نوافذ الدير ، واحتوت مرآة قديمة ذهب طلاؤها وبعض الأدوية الجيرية التركيب .

وكانت المسز اسكنر امرأة طاعنة فى السن ، صغيرة الجسم ، عارية الرأس ،

بيضاء الشعر قذرته ، قد عصبته لتمنعه أن يتدلى على وجه كان أظهر مافيه فى عهد صباها أنفها ، وكاد الآن بعد أن سقطت أسنانها وانضمر ذقنها وتغضن جلدها يصبح كل ما فى وجهها . وكانت تلبس جلباباً أردوازى اللون ، إذا جاز أن نقول إن لجلبابها لوناً على الإطلاق ، ويضم فى بعض أجزائه رقعاً حمراً . وفتحت بابها لبنزنجتن وأدخلته إلى حجرتها ، وأخذت تحدثه فى حذر وتنظر إليه من الجانبين ومن فوق أنفها ، بينما كان المستر اسكنر على حد قولها يصلح من زينته قبل أن يستقبله . وكان فى فمها سن واحدة تفسد عليها نطقها ، وكانت فى أثناء حديثها تقبض بكلتا يديها المغضنتين على الأخرى بحالة عصبية ظاهرة ، وكان مما قالته للمستر بنزنجتن أنها قضت فى تربية الدجاج عدة سنين ، وأنها على علم تام بالتفريخ ، بل تجاوزت ذلك إلى قولها إنهما أنشآ لنفسهما مزرعة للدجاج وقتاً ما ، وإن المزرعة لم تفلس آخر الأمر إلا لنقص التلاميذ ؛ لأن التلاميذ فى القرية هم الذين يدرون المال .

ثم أقبل مستر اسكنر فاذا هو رجل كبير الوجه ، ألثغ اللسان ، أحول العين ، إذا نظر إلى وجهك وقعت عينه على قمة رأسك ، وكان يلبس فى رجليه خفين ممزقين أعجبا مستر بنزنجتن كثيراً ، وسترة تنقصها الأزرار ، وأمسك الرجل سترته وقميصه بإحدى يديه ، وأخذ يرسم بسبابته الأخرى أشكالا على مفرش الخوان الأسود والذهبى اللون ، بينما كانت عينه ترقب بنزنجتن وماله فى وجل ظاهر ، ثم قال آخر الأمر :

— أفهم أنك لا تريد أن تدير هذه المزرعة للكثب ... أليث كذلك ياثيدى ؟ وثيان عندى أأردت ذلك أم لم ترده . إنك تريد أن تجرى فيها التجارب . هذا حق .

ثم قال إنه يحسن بهما أن يذهبا إلى المزرعة من فورهما ، فهو لايعمل الآن شيئاً فى دنتن جرين ، اللهم إلا قليلا من الخياطة « وليث المكان بالموضع

الحظ الذى كنت أظنه ، وما أحتل عليه فيه قليل تافه ، ولهذا فنحن على استعداد لأن نذهب معك إذا شئت . . . »

وبعد أسبوع من ذلك اليوم كان المستر والمسز اسكنر يقيمان فى المزرعة ؛ وكان نجار من هكليبراو ينشئ الحظائر والأخنان بعد أن يرشده المستر بنزنجتن فى عمله ، ويحدد له مواضعها أدق تحديد . . .

وأخذ المستر اسكنر والنجار يتحدثان ، فقال الأول :

— إننى لم أره كثيراً قبل الآن ، ولكن ما أعلمه عنه يدل على أنه أبله أحمق إلى حد كبير .

وأجابه نجار هكليبراو :

— لقد ظننت أنا أنه أبله قليلا

ورد عليه صاحبه :

— إنه يشغل نفسه بالدجاج ، حتى لتظن أن لا أحد غيره فى العالم يعرف عنه شيئاً .

قال النجار :

— إنه يبدو هو نفسه كالدجاجة حين يضع هذين المنظارين على عينيه .

ثم اقترب المستر اسكنر من نجار هكليبراو وأسر إليه حديثاً بينما كانت إحدى عينيه تتطلع فى حسرة إلى القرية البعيدة ، والأخرى تلمع لمعاناً خبيثاً :

— يقول إنه ثيقيث كل دجاجة فى كل يوم ! كل دجاجة فى كل يوم حتى يتأكد من أنها تنمو كما يشتهى . . . أتمعت هذا ، كل دجاجة فى كل يوم .

ثم أخذ مستر اسكنر يضحك ويده على فمه ، ويهز كتفيه ويشاركه فى الضحك كل أعضاء جسمه إلا عينه الحولاء . وظن أن النجار لم يفهم كل ما يريد أن يفهمه من قوله ، فهمس مرة أخرى فى أذنه قوله : « يقيث » .

وأجابه نجار هكليبراو :

— إنه شر من حاكمنا القديم . ولك أن تعدّني . . . إذا لم يكن كذلك .

٢

التجارب أشق الأعمال فى العالم وأدعاها إلى الملل ، وليس فيها ما لا يخرج عن هذه القاعدة إلا أخبارها التى تنشر فى صحيفة « الأعمال الفلسفية » ، وبدا للمستر بنزنجتن أن قد مضى عليه فيها وقت طويل حتى تبدلت أحلامه الأولى ، أحلام الآمال العظيمة فى المستقبل ، فتاتاً صغيرة من الحقائق الواقعة . فقد اتخذ المزرعة التجريبية فى شهر أكتوبر ، ولم تبدأ بوادر النجاح الأولى تلوح له إلا فى شهر مايو . وكان لابد له أن يجرب هرقليو فوربيا رقم ١ ورقم ٢ ورقم ٣ ، فجربها كلها ، وتبين أنها لا تؤدى إلى الغرض المطلوب . وكذلك سببت له جرذان المزرعة متاعب جمة لا تقل عن متاعب مستر اسكنر وزوجته . ولم يجد وسيلة يرغم بها هذا الرجل على أداء ما يؤمر به إلا أن يطرده من خدمته ؛ فإذا فعل به ذلك جاءه وهو يمسح ذقنه — ولم يكن يحلقه ولكنه لم يكن يرى قط ملتحياً — بيده المنبسطة ، ونظر إليه بإحدى عينيه ، وإلى ما فوق رأسه بالعين الأخرى ، ثم قال :

— طبعاً يا ثيدى إذا كنت جاداً . . . !

وأخيراً لاحت تباشير النجاح ، وكان ذلك فى صورة خطاب كتبه مستر اسكنر بخطه الطويل الرفيع قال فيه :

« أفرخت الحضنة الجديدة ، ولكنى لا يروقنى منظرها ، فهى مفرطة فى النماء ، لا تشبه الحضنة التى سبقتها قبل أن تصدروا إلىّ أوامركم الجديدة . لقد كانت تلك الحضنة السابقة قبل أن تختطفها القطة جميلة المنظر سمينة ، أما

هذه فهى تنمو كالحسك ، ولم أر لها نظيراً من قبل ، وهى تنقر الأرض بقوة ، وهى أعلى من حافة حذائى ، وليس فى وسعى أن أخبرك بارتفاعها بالضبط كما طلبت إلىّ ، فهى مَريدة بحق ، وهى تلتهم الطعام التهاما ، وستحتاج إلى الحب بعد قليل ؛ لأنى لم أر لها نظيراً فى قدرتها على الأكل . وإذا ظل نموها مطرداً على هذا النحو وجب أن تعرض فى المعارض . وحدث فى الليلة الماضية ما ارتعت له إذ ظننت أن القط هجم عليها ، فاطلعت من النافذة ، وأقسم أننى رأيت القط ينساب نحوها من تحت الأسلاك ، ورأيت الفراخ كلها مستيقظة تنقر الأرض من الجوع ، ولكنى لم أر للقط أثراً ، فألقيت إليها حفنة من الحبوب ، وأقفلت عليها الباب ؛ وأحب أن أعرف هل أستمر فى إطعامها كما أمرت . إن الغذاء الذى خلطته بيدك أوشك على النفاد ، ولست أرغب فى أن أخلط شيئاً منه بنفسى خشية أن يحدث مثل ما حدث فى الحلوى . . .

« وختاماً أرجو قبول أطيب تمنياتى أنا وزوجتى ، كما أرجو دوام عطفكم علينا .

« خادمكم المطيع
« ألفرد نيوتن اسكنر »

والعبارة الأخيرة فى الخطاب تشير إلى حلوى من اللبن اختلط بها قليل من طعام هرقليوفوربيا رقم ٢ ، فنشأت عنها آلام شديدة للمستر اسكنر وزوجته ؛ وكادت تؤدى إلى هلاكهما .

وقرأ بنزنجتن ما بين هذه السطور ، فرأى فى هذا النماء المفرط تحقيقاً لآماله التى ظل يعمل لها زمناً طويلا . ولم تكد تشرق شمس اليوم التالى حتى شوهد المستر بنزنجتن ينزل من القطار فى محطة إرشت ، وفى يده كيس يحتوى على ثلاث صفائح مغلقة ، فيها من طعام الآلهة ما يكفى جميع فراخ كنت .

وكان اليوم من أواخر أيام شهر مايو ، والجو صافياً جميلا ، ولم تكن

ثاكايله تؤلمه كثيراً، فصمم على أن يقطع المسافة إلى المزرعة على قدميه، مخترقاً هكابيراو، وكان طولها يبلغ ثلاثة أميال ونصف ميل، وسط البستان والقرية وعلى أطراف أيكة مروج هكابيراو المسورة. وكانت الحياة قد أخذت تدب فى الأشجار، فأخرجت أوراق الربيع البراقة، وانتثرت الأزهار على أسوار المروج، وكنت أينما سرت سمعت سقسقة العصافير والطيور على اختلاف أنواعها، وكان فى أحد أطراف البستان بركة أقبلت نحوها بعض صغار الغزلان لتستقى منها.

ورأى بنزنجتن هذه الأشياء فأعادت إليه ذكرى مباهج الحياة الأولى ومسراتها المنسية، وصور لنفسه ما يعلقه على كشفه من آمال عظيمة سارة، وخيل إليه أن يومه هذا أسعد أيام حياته على الإطلاق. وأبصر الفراخ فى الحظيرة المشمسة المجاورة للكثيب الرملى الذى تظلله أشجار الصنوبر، ورآها بعد أن أكلت الطعام الذى خلطه لها بيده، ضخمة يزيد حجمها وهى فى هذه السن على حجم كثير من الدجاج الكبير، وهى لاتزال مع ذلك تكبر ولم تنفض عنها زغبها الأصفر كله، وقد بدأت الخطوط السمراء تظهر على أجسامها، فأيقن وقتئذ أن السعادة قد أقبلت حقاً عليه.

وألح عليه مستر اسكنر بالدخول فى الحظيرة ففعل، فلما أن نقرته الفراخ فى خروق حذائه مرة أو مرتين أسرع بالخروج، وأخذ ينظر إلى هذه الكائنات الضخمة من خلال الأسلاك المتشابكة، ثم قرب عينيه من الشبكة وأخذ يتتبع حركاتها كأنه لم ير فراخ الدجاج من قبل فى حياته كلها.

وقطع عليه مستر اسكنر صمته بقوله:

— لئت أتستطيع أن أتثور ماذا تكون هذه الفراخ بعد أن يكمل نموها.

فأجابه مستر بنزنجتن:

— ستكون فى حجم الخيول.

فرد عليه اسكنر بقوله:

— أو قريبة منها .

وقال مستر بترنجتن :

— وسيكفى جناح الواحد منها لإطعام عدد من الضيفان يقطعونه كما يقطع القصاب لحمه .

وقال اسكنر :

— لئت أظن أنها تتظل تكبر بهذه الثرعة العجيبة .

فأجابه بترنجتن :

— ألا تظن ذلك ؟

فقال اسكنر :

— كلا إنى واثق مما أقول . فهى تنمو أولا هذا النمو الثريع ، ولكنها لن تثتمر على هذه الحال يا ثيدى العذيذ . لا ! إنها لن تثتمر .

ثم مضت فترة سكون قال على أثرها مستر اسكنر فى تواضع :

— والعناية بها . . .

ونظر إليه مستر بترنجتن فجأة من خلال منظاريه ، ولكنه اندفع فى حديثه وقد رفع وجهه نحو بترنجتن فى خشوع :

— إنها تكلفنا شططاً أنا وذوجتى .

وتفقد المستر بترنجتن المكان كعادته فى كل زيارة ، ثم عاد مسرعا إلى الحظيرة الجديدة ، وقد وجدها فى واقع الأمر أعظم كثيراً مما كان يتوقع . ذلك أن مناهج العلم على الدوام ملتوية بطيئة ، فبعد أن تلوح للعالم آماله الواضحة ، وقبل أن تتحقق هذه الآمال ، تنصرم السنون يتلو بعضها بعضاً تتناوبه فيها الخيبة والأمل . أما فى هذه المرة فلم تكد تمضى سنة واحدة فى البحوث والتجارب حتى تحققت آماله كلها ، وأصبح طعام الآلهة فى متناول يديه . وبدا له ذلك إفراطاً فى النجاح تجاوز الحد ، وحرمه من ذلك الأمل الآجل ، وهو غذاء الخيال العلمى ومبعث جدته ، وسبب بهجته ، أو أن ذلك

على الأقل هو ما بدا له وقتئذ . وقضى فترة من الوقت رائحاً غادياً ينظر إلى فراخه المرة بعد المرة .

ثم قال :

— فلأنظرن إليها . لقد مضى عليها الآن عشرة أيام ، وإذا قارنتها بالفراخ العادية رأيتها أكبر منها ست مرات أو سبعاً . . .

وقال المستر اسكنر لزوجته :

— وقد حان الوقت لأن يثور العامل على ثيده . إنه شديد الاغتباط بالفراخ التى فى تلك الحظيرة ، إنه شديد الاغتباط بها .

ثم انثنى نحوها ، ووضع يده على فمه ، وأسر إليها قوله : « إنه يظن ذلك من عمل هذا الطعام الذى جاءنا به » قال ذلك وهو يحاول أن يكبت ضحكة فى حلقه ...

والحق أن بترنجتن كان فى ذلك اليوم من أسعد الناس طراً ، ولم يكن مزاجه بحيث يجيز له أن يكشف ما فى إدارة المزرعة من أغلاط . نعم إن صفاء الجو وضوء الشمس الساطع قد كشفا له أكثر مما كشفا فى أى وقت مضى عما يتصف به اسكنر وزوجته من خمول وإهمال تجمعت آثارهما فى المزرعة ، ولكن ما أبداه من الملاحظات كان غاية فى اللطف ولين الجانب . نعم إن أسوار كثير من الحظائر كانت محطمة ، ولكنه اقتنع ، كما يبدو ، حين اعتذر له اسكنر عن ذلك بقوله :

— إن ثعلباً أو كلباً أو غيرهما من الحيوانات هو الذى ثبب هذا التلف .

ولما لاحظ أن المحضن لم ينظف أجابته المسز اسكنر وقد ثنت ذراعها على صدرها وابتسمت ابتسامة عريضة من خلف أنفها :

— يخيل إلىّ يا سيدى أننا مذ جئنا إلى هنا لم نجد من الوقت ما يمكننا من تنظيفه . . .

وصعد إلى الطابق الأعلى لينظر ما فيه من جحور الجرذان التى طلب إليه اسكنر أن يشترى مصيدة لها ، فرآها جحوراً كبيرة ، وتبين فضلا عن ذلك أن الحجرة التى يخلط فيها طعام الآلهة بالنخالة والحبوب قذرة مختلة النظام ؛ فقد كان المستر اسكنر وزوجته نموذجين لذلك الصنف من الناس الذى يجد منفعة فى الصحاف المكسرة والآنية والعلب القديمة ، والصناديق الخشبية التى امتلأ بها المكان . ورأى فى أحد الأركان كمية من التفاح التى اقتصدها اسكنر وقد دب فيها الفساد ، وأبصر عدداً من جلود الأرانب معلقة فى مسمار فى سقف الحجرة المائل ، وكان اسكنر يجرب فيها قدرته على تحضير الفراء ، وكان مما قاله للمستر بنزنجتن :

— إنى لا أجهل الشىء الكثير من شئون الفراء وما إلى ذلك من الأعمال .

ولم يرتح المستر بنزنجتن بطبيعة الحال إلى ما شاهده من ضروب الفوضى فى المزرعة ، ولكنه لم يثر فى هذه الزيارة ما لا حاجة لإثارته من الجلبة ، حتى إنه لما شاهد صرصوراً يتقلب فى إناء مملوء إلى نصفه بهرقليوفوربيا رقم ٤ لم يزد على أن قال إنه يحسن أن تغطى هذه المادة حتى لا تتأثر بالرطوبة ، وألا تعرض للهواء بالصورة التى رآها عليها .

ثم غير مجرى الحديث فى الحال ، وجهر بما كان يجول فى خاطره وقتاً ما فقال :

— إنى أفكر يا مستر اسكنر فى ذبح أحد هذه الفراخ لنزيد علماً بأمرها ، وأرى أن نذبحه فى مساء هذا اليوم وسأحمله معى إلى لندن .

وتظاهر بالنظر إلى إناء آخر ، ثم خلع منظاريه ليمسحهما وقال :

— إنى شديد الرغبة فى أن أحمل معى فى هذا اليوم تذكاراً من نوع ما لطعامنا هذا .

وأضاف إلى ذلك :

— وعلى ذكر الطعام أظن انك لا تعطى هذه الفراخ الصغار شيئاً من اللحم ، أليس كذلك ؟

فأجابه المستر اسكنر :

— كلا يا ثيدى . أؤكد لك يا ثيدى أننا أعلم بتربية الدجاج على اختلاف أنواعها من أن نفعل مثل هذه الفعلة الشنعاء .

— لست أشك فى أنكم لا تلقون فضلات طعامكم — ولقد ظننت أنى رأيت عظام أرنب مبعثرة فى ركن الحظيرة البعيد —

ثم ذهبا ليريا هذه العظام فوجداها العظام الكبيرة لقطة انتزع منها لحمها كله .

٣

وقالت جين ابنة عم المستر بنزنجتن :

— ليس هذا فرخاً مطلقاً .

ثم أضافت إلى ذلك وهى غضبى :

— أظن أننى إذا رأيت الفرخ عرفته من فورى . أما هذا فهو كبير أولا ، وفى وسعك ثانياً أن ترى أنه ليس فرخاً .

أما ردوود فقال حين استدرجه بنزنجتن إلى الحديث على كره منه :

— لا أرى بداً من أن أعترف لك أننا إذا استعرضنا كل ما لدينا من الشواهد . . .

فقاطعته جين ابنة عم مستر بنزنجتن بقولها :

— إنك إن فعلت هذا بدل أن تنظر بعينيك كما يفعل سائر العقلاء . . .

— ولكن الحقيقة يا آنسة بنزنجتن . . .

فقاطعته مرة أخرى قائلة :

— قل ما تشاء ، إنكم كلكم أيها الرجال سواء .

— إنا إذا بحثنا كل مالدينا من الشواهد، فان هذا يدخل حتما ضمن تعريفنا للفراخ، ولست أشك فى أنه شاذ وأنه ضخم، ولكنه مع ذلك — وبخاصة إذا ذكرنا أنه قد خرج من بيضة دجاجة سوية — نعم ياآنسة بنزنجتن إننى لا أرى مفراً من الاعتراف بأنه إذا كان لا بد لهذا الشئ من اسم يسمى به فهو فرخ من نوع ما.

وقالت ابنة العم چين:

— هل معنى ذلك أنه فرخ؟

فأجابها ردوود:

— أظن أنه فرخ.

فردت عليه چين ابنة عم مستر بنزنجتن قائلة:

— ما هذا السخف؟ إن أمرك يا مستر ردوود لعجيب لا يطاق.

ثم ولت وجهها عنه، وقامت من فورها، وخرجت من الحجرة بعد أن أقفلت بابها بشدة.

ولما سكنت الضجة التى احدثتها عند إقفال الباب قال ردوود:

— وإن رؤيتى هذا الفرخ لتحيينى رغم ضخامته من متاعب جمة.

قالها ثم جلس على المقعد الساند المنخفض إلى جانب النار دون أن ينتظر دعوة المستر بنزنجتن، وأفضى إليه بأنه قام بعمل لا شك فى أنه بعيد كل البعد عن الحكمة والتبصر، حتى لو أتاه رجل من غير العلماء... ثم قال:

— لست أشك يا بنزنجتن فى أنك سترمينى بالحمق إذا قلت لك إنى قد خلطت قليلا من هذا الطعام — وأكرر قولى إنه غير كثير — بطعام أحد الأطفال من أسبوع مضى!

وأجابه بنزنجتن فى دهشة:

— ولكن افرض...

فقال ردوود وهو ينظر إلى فرخ الدجاج الموضوع أمامهم على المائدة:

— إنى أعرف . . . ولكن الله سلم .

ثم أخذ يبحث فى جيبه عن لفافات التبغ .

وشرع يقص تفاصيل ما فعل فى كلام متقطع فقال :

— إن الطفل الصغير المسكين لم يكن وزنه يزيد ، وقلق ونكلز عليه . . . وونكلز رجل بليد . . . وهو أحد تلاميذى القدماء . ولكنه لاخير فيه . . . وزوجتى تثق به ثقة لا حد لها . . .

وهى لا تثق بى أنا بطبيعة الحال . . . وقد علمت ونكلز . . . ولم يكن يسمح لى بدخول حجرة الطفل . . . وكان لا بد أن نفعل شيئاً . . . فتسللت إلى الحجرة والمربية تفطر . . . وأخذت زجاجة اللبن .

وقال مستر بنزنجتن :

— ولكنه سيكبر .

— إنه يكبر فعلا . لقد كان يزن سبعاً وعشرين أوقية فى الأسبوع الماضى . . . وليتك تسمع ما يقوله ونكلز الآن فهو يقول إنه يلاقى فى تربية الطفل عناء كبيراً .

— إن هذا ما يقوله اسكنر بنفسه !

ونظر ردوود إلى الفرخ مرة أخرى وقال :

— إن المشكلة هى أن نستمر على تقديم الطعام له . فهم يرتابون فى وجودى فى حجرة الطفل وحدى ؛ لأنى حاولت أن أرسم خطاً منحنياً لنمو چيورچينا فيليس — كما تعرف أنت — ولا أدرى كيف أعطيه جرعة أخرى من الطعام .

— وهل أنت فى حاجة إلى جرعة أخرى ؟

— إنه لا ينقطع عن الصراخ منذ يومين . . . ومهما يكن من شىء ، فإنه لا يستطيع أن يعيش على طعامه المعتاد بعد الآن ، وهو فى حاجة إلى جرعة أخرى فى هذه الساعة .

— قل هذا لونكلز .

فقال ردوود :

— فليشنق ونكلز .

— إن فى وسعك أن تتصل بونكلز وتعطيه بعض المساحيق ليقدمها إلى الطفل .

واتكأ ردوود بذقنه على قبضة يده وأخـــذ ينظر إلى نار الموقد وقال :

— لا بد لى أن أفعل شيئاً من هذا .

وسكت بنزنجتن لحظة وأخذ يمسح بيديه على الزغب النامى على صدر الفرخ الضخم ، ثم قال :

— ستكون هذه الفراخ ضخمة جبارة بلا شك .

فأجابه ردوود دون أن يرفع عينيه عن النار :

— لا جدال فى أنها ستكون كذلك .

قال بنزنجتن :

— إنها ستكون فى حجم الخيل .

فأجابه ردوود :

— وأكبر منها . . . وهذه هى المشكلة !

وحول بنزنجتن نظره عن الفرخ وقال :

— إن هذه الدجاجات ستصبح حديث الناس أجمعين .

وهز ردوود رأسه أمام النار .

والتفت إلى بنزنجتن فجأة ومنظاراه يلتمعان وقال :

— وأقسم أن هذا أيضاً سيكون شأن طفلك الصغير !

فقال ردوود :

— وهذا بالضبط ما أفكر فيه الآن .

ثم جلس وتنهد تنهداً عميقاً ، وألقى بلفافته التى لم ينته من تدخينها فى النار ، ووضع يديه كلتيهما فى جيبى سرواله .

وقال مرة أخرى :

— إن هذا بالضبط ما أفكر فيه . وسيكون أمر هذا الطعام الغريب عجيباً . لقد كانت السرعة التى نما بها هذا الفرخ . . .

وأجابه المستر بنزنجتن وهو ينظر إلى الفرخ :

— إن الطفل الصغير الذى ينمو بنفس هذه السرعة . . . أؤكد لك أنه سيكون ضخماً .

وقال ردوود :

— إنى سأنقص من قدر الجرعات التى أعطيه إياها تدريجاً ، أو إن هذا على الأقل ماسيفعله ونكلز .

— إن هذه تجربة خطرة .

— جداً .

— ومع هذا فإنى لابد أن أعترف لك . . . إنها تجربة لابد من إجرائها على طفل ما ، عاجلا كان ذلك أو آجلا .

— نعم سنضطر إلى إجرائها على طفل ما من غير شك .

ثم جاء بنزنجتن ووقف بجوار الموقد وخلع منظاره ليمسحه ثم قال :

— هذا صحيح

وواصل حديثه قائلا :

— أصدقك ياردوود ، أنى لم أدرك ما سوف يترتب على عملنا هذا من نتائج خطيرة إلا بعد أن رأيت هذه الفراخ الصغيرة رى العين ... والآن فقط بدأت هذه الحقيقة تتراءى لى .. ماذا عسى أن يكون لعملنا هذا من نتائج ؟

وسيرى القارئ أن المستر بنزنجتن حتى فى هذه اللحظة لم يكن يعرف النتائج الخطيرة التى سيؤدى إليها ذلك الاختراع الجديد .

٤

حدث ذلك فى أوائل شهر يونيه ، وأصيب بتزنجتن بعد ذلك بزكام وحمى حاد ، عاقه بضعة اسابيع عن زيارة المزرعة التجريبية ، واضطر ردوود فى خلالها أن يزورها زيارة عاجلة . ولما عاد منها بدا عليه القلق الأبوى أكثر مما كان يبدو عليه قبل هذه الزيارة . ومضت على الفراخ ستة أسابيع كانت تنمو فيها نمواً مطرداً لا يعوقه عائق . . .

ثم بدأت الزنابير تفعل فعلها .

وقتل أول هذه الزنابير الكبيرة فى أواخر شهر يوليه قبل أن يخرج الدجاج هارباً من هكليبراو ، ونشر هذا الخبر فى عدد من الصحف . ولكنى لا أعرف هل وصل إلى مسامع المستر بتزنجتن أو لم يصل ، وإذا كان قد وصل إلى مسامعه ، فهل عرف الصلة بينه وبين الإهمال والتراخى اللذين كانا يسودان جميع أعمال المزرعة التجريبية .

وسواء أكان يعرف ذلك كله أم لم يعرفه ، فقد ثبت الآن أنه بينما كان المستر اسكنر يقدم هرقليوفوربيا رقم ٤ إلى فراخ المستر بتزنجتن ، كان عدد من الزنابير جاداً مثله أو أكثر منه جداً فى نقل بعض هذا الطعام نفسه إلى صغاره التى ولدت فى أوائل الصيف عند الكثبان الرملية وراء أشجار الصنوبر القريبة من المزرعة . ولا جدال أيضاً فى أن صغار الزنابير فى نموها أفادت من هذا الطعام ما أفادته فراخ مستر بتزنجتن ؛ وغير خاف أن الزنابير يكمل نموها قبل الدجاج وقبل سائر الكائنات الحية التى استطاعت بفضل إهمال مستر اسكنر وزوجته الكريمين أن تنال حظها من الفوائد التى حبا بها المستر بتزنجتن دجاجه ، ومن أجل هذا كانت الزنابير أول الخلائق التى عظم شأنها فى عالم الجبابرة .

وكان الذى أسعده الحظ بلقاء أول ما عرفه التاريخ من الخلائق الضخمة والقضاء عليها حارساً يدعى جدفرى يعمل فى مزرعة القائمقام ربرت هك بالقرب من ميدستون . فقد كان يخوض إلى ركبتيه فى مستنقع فى مكان مكشوف بين أشجار الزان المنتشرة فى بساتين الضابط الكبير وعلى كتفه بندقيته ، واتفق لحسن حظه أن كانت البندقية مزدوجة ، فأبصر ، كما يقول ، ذلك الحيوان الضخم مقبلا نحوه من ناحية الضوء ، فلم يتبينه بوضوح . ولكنه كان يطن طنيناً مزعجاً لا يقل شدة عن صوت بوق السيارة ، فارتاع له . أما حجمه فلم يكن يقل عن حجم البومة الكبيرة بل ربما كان أكبر منها . وكان مجربا خبيرا ، فتعرف من طيران هذا الكائن العجيب ومن حركة جناحيه أنه ليس من جنس الطير . ولعل غريزة الدفاع عن النفس امتزجت فى تلك الساعة بعادة الصيد المتأصلة فى طبعه ، فأطلق البندقية من فوره .

وأكبر الظن أن الدهشة التى استولت عليه حين رأى هذا المخلوق الغريب أثرت فى قدرته على إصابة الهدف ، فطاش الجزء الأكبر من الطلقة . وكان كل ما حدث أن حط الحيوان على الأرض مغضباً وهو يطن طنيناً لم يترك لدى الصائد شكا فى أنه طنين الزنابير ، ثم عاد فارتفع ، وكشف الضوء عن جميع خطوط جسمه . ويقول جدفرى إنه فى هذه المرة أقبل نحوه فرماه بالطلقة الثانية وهو على بعد يقل عن عشرين ياردة منه ، ثم ألقى بندقيته على الأرض وجرى مسافة قصيرة والزنبور يتبعه ولكنه انحنى ليتقيه .

ويقول إنه شاهده يطير على بعد ياردة واحدة منه ، ثم سقط على الأرض مرة أخرى على بعد ثلاثين ياردة ، وأخذ يتقلب ويتلوى من شدة الألم ، وهو يلدغ الأرض بإبرته : يخرجها من جسمه تارة ويطويها فيه تارة أخرى . وأطلق الحارس عليه طلقتين أخريين قبل أن يجرأ على الاقتراب منه مرة ثانية .

ثم أقبل على الزنبور يقيسه فوجده سبعاً وعشرين بوصة ونصف بوصة

من طرف جناحه إلى طرف الجناح الآخر . وقاس إبرته فكان طولها ثلاث بوصات ؛ وأطارت الطاقة أحشاءه من بطنه ، ولكنه قدر طول الحيوان من رأسه إلى إبرته بمالا يقل عن ثمانى عشرة بوصة ، وهو تقدير قريب جداً من الحقيقة . وكانت عيناه لا يقل قطر الواحدة منهما عن نصف بوصة .

هذه أول المعلومات الصحيحة التى عرفها الناس عن الزنابير الضخمة . وفى اليوم التالى حدّث راكب دراجة فقال إنه كاد يمر بدراجته فوق واحد منها وهو منحدر إلى أسفل التل بين سڤن أوكس وتونبردج . ويلوح أن هذا الحيوان قد أزعجه مرور الدراجة إلى جانبه ، فطار وأحدث طنيناً مزعجاً ، فقفز الرجل بدراجته فى وجل شديد ، ثم نظر إلى الوراء فرأى الزنبور يطير فوق الأشجار نحو وسترهام .

واستمر فى سيره قليلا ثم وقف ، وأراد النزول عن دراجته ، وكان يرتعد من الخوف فسقط فى أثناء نزوله عنها ، ثم جلس إلى جانب الطريق حتى يهدأ روعه . وكان يعتزم السير إلى آشفورد ، ولكنه عجز لشدة اضطرابه عن أن يذهب إلى أبعد من تونبردج فى ذلك اليوم . . .

ومن الغريب أن الزنابير الضخمة اختفت عن الأنظار ثلاثة أيام بعد ذلك اليوم ، ولما اطلعتُ على الأرصاد الجوية لهذه الفترة علمت أن الجو كان غائماً شديد البرودة ذا أمطار محلية . ولعل هذا هو سبب اختفائها . ثم صفا الجو فى اليوم الرابع ، وأشرقت الشمس فخرجت الزنابير فى كثرة لم ير العالم مثلها من قبل .

وليس فى وسعنا أن نعرف عدد ما خرج منها فى ذلك اليوم ، أما مافعلته فإن لدينا مالا يقل عن خمسين قصة عنه . فقد كان أحد ضحاياها بدّ الاوجد واحداً منها فى وعاء سكر فهاجمه بمجرف حين طار ، وسقط الحيوان على الأرض زمناً ما ، ولكنه أنفذ إبرته فى حذائه ، فكال له ضربة ثانية قسمته نصفين . ومات الحيوان ثم مات البدال نفسه بعد قليل . . .

وكان من أروع القصص كلها قصة الزنبور الذى زار المتحف البريطانى حوالى الظهر ، وسقط من السماء الصافية على إحدى الحمامات الكثيرة التى تطعم فى فناء ذلك البناء ، فاختطفها وطار بها إلى شرفة فى الدار ليلتهمها على مهل ، ثم أخذ بعد ذلك يتحرك فوق سطح المتحف ، ودخل قبة قاعة المطالعة من نافذة فيها ، وأخذ يطن فى داخلها بصوت أزعج القراء ، ثم عثر على نافذة أخرى فخرج منها واختفى عن الأنظار .

وكانت سائر القصص مجرد أنباء عن مرور بعض الزنابير أو سقوطها . مثال ذلك أن طائفة منها فرقت جماعة من الشبان كانوا فى رحلة قرب الدنجتن نل ، والتهمت ما كان معهم من مربيات وحلوى ، وقتل بعضها كلباً صغيراً ومزقه إرباً بالقرب من هوت استيبل على مرأى من سيدته . . .

وضجت الطرقات فى ذلك اليوم بأخبار الزنابير ، وشغلت أعمدة الصحف التى نشرت بحروف ضخمة أخبار « مردة الزنابير فى كنت » . وكان محررو الصحف ومساعدوهم يغدون ويروحون فى قلق واضطراب ينشرون أخبار « الزنابير » . وخرج الأستاذ ردوود من الكلية فى بندستريت فى الساعة الخامسة بعد جدال عنيف مع لجنته عن ثمن العجول ، وابتاع صحيفة من صحف المساء وفتحها ، وامتقع لونه ونسى من فوره كل شىء عن العجول واللجنة وأسرع نحو مسكن بتزنجتن .

٥

ولم يجد ردوود فى مسكن بتزنجتن من الآدميين غير مستر اسكنر ، إذا جاز أن نعد مستر اسكنر من الآدميين . ولم يسمع فيه حديثاً غير حديث اسكنر إذا صح أن نسمى لغطه حديثاً .

وكان صوته عالياً تستشف منه شعور الألم ، وكان أول ما سمعه قوله :

— ليث فى وثعنا يا ثيدى أن نبقى هناك . لقد بقينا حتى الآن وفى ظننا أن الأمور ستنشلح ، ولكنها يا ثيدى تزيد ثوءاً كل يوم ، وليث الأمر يا ثيدى مقشوراً على الذنابير ، بل هناك النمل ، وقد بلغ من الحجم هذا القدر ، (وأبرز إحدى يديه كلها ، ونحو ثلاث بوصات من معصمه القذر) . وكادت زوجتى يا ثيدى تخرّ مغشياً عليها حين أبثرته ، ولا تنث يا ثيدى القراث [1] اللاذع حول الحفيرة ، إنه هو أيضاً يا ثيدى ينمو على غير عادته ، والنبات الذاحف يا ثيدى الذى ذرعناه حولها : لقد أطلت علينا أظافره من النافذة ، وهو لا يقل فى الطول عن مئة اثكنر . هذا من طعامك يا ثيدى فحيثما ترك قليل منه على الأرض نما كل شىء نمواً لم أكن أتوقعه . ليث فى وثعنا يا ثيدى أن نبقى هناك شهراً آخر من الزمان . إن حياتنا كلها يا ثيدى لا تساوى ما نعانيه فى ذلك المكان من عناء مضنٍ ، فإذا لم تلسعنا الذنابير يا ثيدى كتمت أنفاسنا النباتات الذاحفة ، وليث فى وثعك يا ثيدى أن تتصور ما نحن فيه من شدة إلا إذا شاهدت ذلك يا ثيدى بنفسك . . .

ثم رفع اسكنر عينيه إلى ما فوق رأس ردوود وقال .

— ومن يدرى أن الجرذان يا ثيدى لم تنل إليه ، هذا أشد ما يقلق بالى يا ثيدى ويقض مضجعى . نعم إنى لم أر حتى الآن جرذاناً كبيرة ، ولكن من يدرى يا ثيدى ؟ من يدرى ؟ لقد مرت علينا أيام ثوداء بعد أن أبثرنا هاتين النملتين الكبيرتين ، لقد كانتا فى حجم الثرطان البحرى . رأينا اثنتين يا ثيدى ثم شاهدنا النبات الذاحف الذى يفوق كل ما نتصوره ، ثم ثمعت بعد ذلك ثوت الذنابير ، فلما ثمعتها يا ثيدى فهمت ثرّ الأمر كله . فلم ألبث إلا ريثما خطتُ ذراً فى ثترتى ثم جئت إليك لثاءتى ، ولثت أخفى عنك يا ثيدى أننى حتى فى هذه اللحظة أكاد أجن من شدة القلق . ولثت أدرى

---

(١) القراص .

ماذا حل بمث اثكنر يا ثيدى ، فهناك النبات المتثلق ينمو ويلتوى كالأفعى ، ولو أنك يا ثيدى رأيته لقفذت من فورك وتنحيت عن طريقه ، والنمل يزداد حجمه فى كل يوم والذنابير . . . وليث لدى مث اثكنر شىء من الدواء إذا أنابها يا ثيدى مكروه .

وقال له مستر بنزنجتن :

— ولكن ما شأن الدجاج ؟ كيف تركت الدجاج ؟

فاجابه مستر اسكنر :

— لقد كنت أطعمها أمث ، أما اليوم فلم أجرؤ على إطعامها يا ثيدى . لقد كان ثوت الذنابير مروعاً يا ثيدى ، كانت تحوم حولنا عشرات ثم عشرات ، وكانت فى حجم الدجاج . لقد قلت لها : خيطى لى ذرًا أو ذرين فى ثترتى لأنى لا أستطيع أن أذهب إلى لندن بهذه الحال ، وتأذهب إلى مستر بنذنجتن وأشرح له الأمر كله ، وقلت لها إن عليك أن تبقى فى هذا المكان حتى أعود إليك ، وعليك أن تبقى النوافذ مقفلة ، لاتفتحيها أبداً حتى أعود.

وبدأ ردوود حديثه بقوله :

— لو أنك لم تكن مهملا فى ملبسك إلى هذا الحد . . .

فأجابه اسكنر بقوله :

— لا تقل هذا القول يا ثيدى ، ليث هذا يا ثيدى وقت الكلام . لاتقله لى يا ثيدى وأنا القلق على مث اثكنر يا ثيدى . بحقك لاتقله يا ثيدى . إننى لا أجد القدرة على مناقشتك يا ثيدى . ويل لى يا ثيدى . إنى لا أجد القدرة على مناقشتك . إن الذى أفكر فيه على الدوام هو الجرذان ، ومن يدرينا أنها لم تصل إلى مث اثكنر فى الوقت الذى أتحدث إليك فيه ؟

وسأله ردوود :

— ألم ترسم لنا منحنياً واحداً من هذه المنحنيات الجميلة التى توضح نمو الفراخ ؟

فأجاب المستر اسكنر بقوله :

— لقد كنت مضطرب البال ياثيدى . آه لو أنك عرفت ما كنت فيه أنا ومثث اثكنر طول هذا الشهر، لقد تحيرت والله فى أمرى ، رأيت الفراخ تنمو فوق كل حد مألوف ، ورأيت النمل والنبات الذاحف ، ولثت أدرى، هل حدثتك ياثيدى عن النبات الذاحف . . .

فقال ردوود :

— لقد حدثتنا عن كل شىء ، والمهم يا بنزنجتن ماذا يجب علينا أن نفعل ؟

وقال مستر اسكنر :

— وماذا نفعل نحن ؟

فأجابه ردوود :

— إن عليك أن تقوم إلى زوجتك ، فايس يصح أن تتركها هناك وحدها طول الليل .

— ليثت وحدها يا ثيدى ؛ إننى لا أتركها فى ذلك المكان ولو كان معها عشر مثث اثكنر . إن مثتر بنذنجتن . . .

فقال ردوود :

— دعك من هذا العبث . إن الزنابير ستعود إلى أوكارها فى الليل والنمل سيبتعد عن طريقك . . .

— ولكن ماقولك فى الجرذان ؟

فأجابه ردوود:

— ليس هناك جرذان .

٦

ولقد كان فى وسع مستر اسكنر ألا يشغل باله بأمر زوجته . إنها لم تمكث فى المكان طول اليوم .

وظل النبات الزاحف طول ساعات الصباح الأولى ينمو نمواً هادئاً ، ولكنه فى الساعة الحادية عشرة أخذ يتسور الجدار ويدخل من النافذة ويظلم الحجرة ؛ وكلما زادت الحجرة ظلاماً ازدادت المسز اسكنر يقيناً بأن البقاء فيها غدا متعذراً لا يطاق . وأخذت فعلا تحس بطول المدة التى فارقها فيها زوجها ، فأطلت من خلال فروع النبات الذى غطى النافذة ، ثم عادت فى حذر شديد ، وفتحت باب حجرة النوم ، وأخذت تنصت إلى ما حولها . . .

وبدا لها كل شىء هادئاً ساكناً ، فارتدت ثيابها بسرعة المرأة المجرمة واندفعت داخل حجرة النوم ، وتفقدت جوانبها وما تحت سريرها ، ثم أغلقت الباب من الداخل ، وأخذت تعد نفسها لمغادرة المكان . وكان السرير لا يزال على حالته التى كان عليها فى الصباح ، وكانت قطع من النبات الزاحف ملقاة فى أرض الحجرة مذ قطفها اسكنر فى المساء ليستطيع إغلاق النافذة ، ولكنها لم تهتم بشىء من هذا ، ولفت كل ما ظنت نفسها فى حاجة إليه فى ملاءة كبيرة ووضعت فيها ملابسها ، ولم تنس سترة من المخمل القطنى كان زوجها يعتز بها ويلبسها فى أوقات الفراغ ؛ وأخذت معها زجاجة من المخلل لم تكن فتحت بعد . ولم يكن فى كل هذا ما تعاب عليه ، ولكنها أضافت إليه صفيحتين مملوءتين من هرقليوفوربيا رقم ٤ كان المستر بترنجتن قد أحضرها معه فى زيارته الأخيرة . وكانت مسز اسكنر سيدة صالحة أمينة ولكنها كانت جدة ، وكان قلبها يذوب أسفاً حين ترى هذا الغذاء الصالح يضيع على طائفة من الفراخ الملعونة .

وبعد أن أتمت حزم متاعها لبست قبعتها ، وخلعت ميدعتها ، وربطت شريطا جديداً من أشرطة الحذاء حول مظلتها ، وأنصتت فترة طويلة عند باب الحجرة وعند النافذة ، ثم اندفعت من الباب الخارجى إلى العالم المملوء بالأخطار . أخذت المظلة تحت إبطها ، وقبضت على الحزمة قبضة قوية بكلتا يديها النحيلتين. وكانت القبعة أحسن ماعندها ، فرصت عليها ووضعت فيها زهرتين اصطناعيتين تبرقان بين الشريط والخرز ، زاهيتين يظن من يراهما أنهما قد أوتيتا من العزيمة مثل ما أوتيت هذه السيدة نفسها .

وكانت معارفها المجعدة فى أسفل أنفها الكبير تنم أيضاً عن العزيمة الصادقة . لقد ملت طول البقاء وحدها فى ذلك المكان ، ولم تعد تطيق صبراً على عزلتها ، فغادرته وهى تقول فى نفسها : «فليعد إليه مستر اسكنر إذا شاء . »

وخرجت من الباب الأمامى ، ولم يكن سبب خروجها منه أنها تريد الذهاب إلى هكليبراو (فقد كان غرضها أن تذهب إلى تشيزنج آيبريت حيث تقيم ابنتها المتزوجة) ، بل لأنها كان يتعذر عليها الخروج من الباب الخلفى لما تراكم عليه من النبات المتسلق الذى أخذ ينمو نمواً عجيباً مذ وقعت منها علبة الطعام عند جذوره . وأنصتت لما حولها لحظة قصيرة ، ثم أغلقت الباب الأمامى وانطلقت فى الطريق .

ولما وصلت إلى ركن الدار وقفت قليلاً وألقت عليها النظرة الأخيرة . . .

ورأت وهى فى مكانها هذا بقعة سوداء على سفح التل القائم وراء أجمة الصنوبر ؛ وكان هذا المكان عش الزنابير الضخمة ، فأخذت تدرسه بعناية . وكان وقت الصباح الباكر الذى تغدو فيه الزنابير وتروح قد انقضى ، فلم تر شيئاً منها ، وخيم السكون على المكان فلم تكن تسمع فيه إلا صوتاً ضئيلا لا يعلو على الصوت الذى يحدثه منشار بخارى فى أخشاب الصنوبر . كذلك لم تر شيئاً من النمل الكبير . نعم إنها لمحت شيئاً يتحرك بين نبات الكرنب

قد يكون قطة تحاول اصطياد بعض العصافير ، فأخذت ترقبه فترة من الزمان .

ثم سارت خطوات قليلة بعد ركن الدار حتى وصلت إلى حظيرة الفراخ الضخمة ، ووقفت مرة أخرى ؛ ولما أبصرتها هزت رأسها ولم تزد على أن قالت : « آه » . وكانت الفراخ قد أصبحت وقتئذ فى علو السلحفاة المائية ، ولكنها أضخم منها جسما ، وكانت خمساً كلها إناث بعد أن قتل كلا الديكين الآخر . ولما رأتها ذابلة كليلة ترددت قليلا وألقت حزمتها من يديها وقالت :

— مسكينة تلك الفراخ العزيزة ! إنها لا تجد ماء تستقى منه ، ولم تذق طعاماً من أربع وعشرين ساعة ، وهى النهمة الشديدة الرغبة فى الطعام .

ثم وضعت إصبعها النحيلة على شفتها وأخذت تفكر .

وحينئذ فعلت هذه العجوز القذرة فعلة إخالها أنا من دلائل الرحمة والجرأة ، فقد تركت حزمتها ومظلتها فى عرض الطريق المرصوف ، وذهبت إلى البئر وأخرجت منها ثلاث دلاء من الماء ووضعتها فى إناء الفراخ الفارغ ، وتركتها مجتمعة حوله ، ثم فتحت باب الحظيرة فى غير جلبة وخرجت منه مسرعة ، ورفعت حزمتها ومظلتها ونفذت من سور الحديقة ، واخترقت أرض الكلأ الطويل (حتى لا تمر بعش الزنابير) وسارت فى الطريق الملتوية تجر رجليها جراً نحو تشيزنج آيبريت .

وصعدت التل وهى تلهث من شدة التعب ، وكانت تقف من حين إلى حين لتضع حزمتها على الأرض ، وتستعيد قواها ، وتلقى نظرة على الكوخ الصغير المجاور لأشجار الصنوبر عند سفح التل . ولما اقتربت آخر الأمر من قمة التل رأت على بُعد قليل منها ثلاثة زنابير متفرقة تنحدر نحو الغرب ، فاطمأن قلبها وعاد إليها كثير من نشاطها .

وما لبثت أن خرجت من الأرض العارية المكشوفة وسارت فى الطريق الشجراء (وقد بدت لها آمن من غيرها وأسلم) ، ومرت بهيكليبراو كوم

ووصلت إلى التلال الكلئة ، ووجدت عندها شجرة ظليلة فجلست تحتها لتستريح .

وبعد قليل واصلت السير فى طريقها بجد وعزيمة . . .

وفى وسع القارئ أن يتخيلها مندفعة فى الطريق الضيق الأبيض ، وحزمتها البيضاء فى يدها ، وكأنها نملة سوداء تمشى على رجلين ، منحدرة من فوق التلال فى ظهر ذلك اليوم الصيفى الحار ، وتواصل السير خلف أنفها بعزيمة لا تعرف الكلل ، والزهرتان فى قبعتها تتمايلان على الدوام ، وحذاءاها يزدادان بياضاً كلما أوغلت فى المشى . وسارت مسز اسكنز فى طريقها لا تلوى على شىء ، وكانت مظلتها تحاول عبثاً أن تنفلت من يدها ؛ وكانت تشدد قبضتها عليها تارة ، وتعلو بها فوق رأسها تارة أخرى ، وتمسك بحزمتها حيناً وتحرك شفتيها بما تزمع أن تقوله لزوجها حيناً آخر .

ولاح لها من بعيد برج وأجمة ، يبدوان لعينيها تارة ويختفيان تارة أخرى ، يحددان الموضع الهادئ الذى تقوم عليه قرية تشيزنج آيبريت فى عزلة عن ضوضاء العالم ، لا تعبأ كثيراً ولا قليلا بالطعام المخبأ فى تلك الحزمة التى كانت تقترب شيئاً فشيئاً من مستقرها الأخير .

٧

وجاءت الفراخ إلى هكليبراو — على ما أعلم — حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر . وأثار مجيئها إلى القرية حركة شديدة فيها وإن لم يكن أحد من أهلها وقتئذ فى الطريق لينذر من فيها بقدومها . وكان أول نذير بالخطر المحدق بالقرية صراخ الطفل إسكلمرزديل . وكانت الآنسة درجان العاملة فى مكتب البريد واقفة أمام النافذة كعادتها ، فرأت الدجاجة التى قبضت على الطفل المسكين تجرى مسرعة فى الطريق ، والطفل بين منقاريها ، ومن ورائها دجاجتان

أخريان ؛ وأنت تعرف كيف يجرى دجاج هذه الأيام الهزيل — وكان هذا النوع من الدجاج سريع الخطا حتى ولو لم يذق الطعام الجديد — وتعرف أيضاً حرصه على طعامه إذا كان جائعاً !

وأكبر الظن أن مس درجان لم تؤخذ فى هذا الأمر على غرة ، فقد امتلأ جو القرية من أسابيع بالإشاعات المختلفة عن الفراخ الضخمة التى كان مستر اسكنر يربيها ، وذلك على الرغم من حرص مستر بترنجتن على كتمان خبرها ؛ فلما رأت فى ذلك اليوم ما حدث قالت :

— رباه ! إن هذا ما كنت أتوقع .

ويلوح أن مس درجان أدت واجبها وقتئذ فى حكمة وهدوء ، فقد اختطفت الكيس المغلق المحتوى على الخطابات المرسلة إلى إرشت ، وخرجت من باب مكتب البريد . وفى هذه اللحظة نفسها كان مستر اسكلمرزديل فى شارع القرية ممسكا بيديه وعاء ماء ، وهو أصفر الوجه يرتعد من الخوف . ولم تمض لحظة حتى كان كل من فى القرية يندفع نحو باب أو نافذة أو حجرة .

ولعل منظر الآنسة درجان فى عرض الطريق ، وبيدها جميع رسائل هكليبراو فى ذلك اليوم ، قد أثر فى الدجاج ، فوقفت قليلا وهى ممسكة باسكلمرزديل ، وقفت مترددة ثم اتجهت نحو أبواب فناء المستر فلشر . وكانت لحظة من أشد اللحظات خطراً ، اندفعت فيها الدجاجة الثانية واختطفت الطفل من أختها بنقرة قوية مسددة ، وقفزت به من فوق الجدار ، ونزلت فى حديقة القسيس .

واندفعت الدجاجة خلفها وهى تصيح بأعلى صوتها ، وقد أصابتها ضربة من وعاء الماء الذى ألقاه عليها المستر اسكلمرزديل ، ومرت مسرعة بكوخ مسز جلو حتى وصلت إلى حقل الطبيب ، وكانت الدجاجات الضخمة الأخرى تجرى فى أرض القسيس خلف الدجاجة التى اختطفت الطفل .

وخرج القسيس يصيح بأعلى صوته قائلا : « رحمتك اللهم ! » (ويقول

بعضهم إنه قال قولاً أدل من هذا على الرجولة)، وأخذ يلوح بعصاه ويجرى ليقطع عليها الطريق .

وناداها :

— قفى أيتها الدجاجة الشقية !

ولعله ظن أن تلك الدجاجات الضخمة تستمع إلى هذا النداء .

ولما وجد أن ليس فى وسعه أن يقطع الطريق عليها رماها بعصاه بكل ما وهبه الله من قوة ، فمرت على قيد قدم واحدة من رأس الطفل اسكلمرزديل وحطمت زجاج برج الدار ، نعم حطمت زجاج البرج الجديد الجميل الذى كانت زوجة القسيس تعزه وتعنى به أشد العناية .

وألقى ذلك الرعب فى قلب الدجاجة — ولا غرو فإن صوت الزجاج المهشم كان خليقاً أن يلقى الرعب فى قلوب أقسى من قلب الدجاج — فرمت الطفل فى نقع ماء صغير انتشل منه على الفور دون أن يصيبه أذى أكثر من تمزق ثيابه . ثم قفزت الدجاجة إلى سطح حظائر فلشر ، ووضعت قدمها عليها على بقعة ضعيفة فى هذا السقف ، فهوت وأزعجت مستر بمبس المشلول ؛ وقد ثبت الآن بالدليل القاطع أن هذا الرجل شوهد وقتئذ لأول مرة فى حياته تخترق حديقته كلها من أولها إلى آخرها ، ويدخل باب الدار دون أن يعتمد على أحد ، ثم يغلق الباب من خلفه ، ويلقى بنفسه على مقعده دون أن يستعين فى شىء من هذا كله بزوجته !

أما سائر الدجاجات فقد طاردها أهل القرية الذين كانوا يلعبون الكركت فاندفعت إلى حديقة القسيس ومنها إلى حقل الطبيب ، حيث التقت بالدجاجة الخامسة وهى غضبى ؛ لأنها لم تفلح فى اجتياز السياج المنشأ حول مقشأة المستر وذراسپون .

ويلوح أنها وقفت زمناً ما وأخذت تنبش الأرض قليلا وكأنها تفكر فى أمرها ، ثم أخذت واحدة منها تنقر خلية نحل من خلايا الطبيب ، واتخذت

وقتئذ طريقها وسط الحقول نحو إرشت ، وهى تنقنق وتقوقئ وتنتفض ، ولم تر فى طريق هكليبراو بعدئذ ، وعثرت بالقرب من إرشت على شىء من الطعام فى مزرعة من اللفت شرعت تنقره وهى منشرحة الصدر حتى أخرجت منه .

وكانت النتيجة العاجلة لهذه الغارة الدجاجية العنيفة ، أن أثارت فى أهل القرية عاصفة من الاضطراب الشديد ، كانت مزيجاً من الصياح والجرى والقذف بكل شىء فى متناول الأيدى والأرجل ، ولم تمض إلا فترة قصيرة على بدء هذه الغارة حتى كان جميع الذكور من أهل القرية وعدد غير قليل من النساء خارج الدور ، وقد أمسكوا بأيديهم كل ما عثروا عليه من أدوات القتال ليطاردوا به جبابرة الدجاج . واستطاع أهل القرية أن يطردوها أولا إلى إرشت ، وكان فيها حفلة قروية ، فاتخذ أهلها قدوم الدجاج ومطاردتها أكبر وسيلة من وسائل التسلية والمرح فى ذلك اليوم السعيد ، ثم وصلت بعدئذ إلى فندن بيتشز ، فأطلق أهلها عليها البنادق ، ولكنها كانت من بنادق الرصاص الصغير ، ولا حاجة إلى القول بأن فى مقدور طيور بهذا الحجم أن تمتص أجسامها كميات كبيرة من الرصاص الصغير ، دون أن يصيبها منه أذى . فسارت فى طريقها مجتمعة ، ثم تفرقت بالقرب من سڤن أوكس . حتى إذا اقتربت من تونبردج أخذت واحدة منها تقوقئ فى اضطراب شديد ، وتسابق قطار الظهر السريع ، ودهش لذلك كل من شاهد هذا السباق العجيب .

وحوالى الساعة الخامسة والنصف من مساء ذلك اليوم أفلح صاحب ملعب من ملاعب الحيوانات فى القبض على اثنتين منها عند آبار تنبردج ، فقد خدعها حتى دخلت قفصاً لهجين مات من زمن ، بعد أن نثر فيه مقداراً من الخبز والفطائر . . .

٨

خرج المستر اسكنر المسكين من قطار الجنوب الشرقى عند إرشت بعد أن أرخى الليل سدوله . ذلك أن القطار وصل إلى القرية متأخراً عن موعده بعض الوقت — ولم يفت المستر اسكنر أن يبدى تلك الملاحظة لناظر المحطة . ولعله رأى بعض أمارات القلق والاضطراب فى عينيه ، فلم يلبث بعد شىء من الزمن ، وبعد أن أشار بيده إلى ناحية فمه تطميناً للناظر ووعداً له أن يثق به — أن سأله : هل حدث « شىء » فى ذلك اليوم ؟

فأجابه ناظر المحطة فى شىء من الحدة والخشونة :

— وماذا تعنى بهذا القول ؟

— هناك ذنابير وأشياء أخرى ؟

فأجابه ناظر المحطة :

— لم يكن لدينا من الوقت ما نفكر فيه فى الزنابير . لقد شغلتنا عن ذلك دجاجاتكم اللعينة .

ثم أخذ يفضى إليه بأخبار الدجاج كما يفضى السياسى بالأنباء إلى سياسى آخر من معارضيه .

وسأله مستر اسكنر وسط هذه العاصفة الشديدة من الأنباء والتعليقات :

— ألم تشمع شيئاً عن مثث اتكنر ؟

فأجابه ناظر المحطة وكأنه هو أيضاً من أولئك النفر الذين لا يستطيعون أن يفضوا إلى سامعيهم بكل ما يعرفون :

— لا خوف عليها !

فقال مستر اسكنر وهو يبتعد عن ناظر المحطة ؛ لكيلا يستمع إلى رأيه فيمن يجب أن تلقى عليه تبعة الإفراط فى تغذية الدجاج :

— علىَّ أن أبحث هذه المسألة . . .

وقابل المستر اسكنر فى إرشت أتونيا [1] قادماً من الأفران المجاورة لهنكى وسأله الأتونى . . . هل يبحث عن دجاجه ؟

فسأله اسكنر :

— ألم تشمع شيئاً عن مثث اثكنر ؟

وكانت خلاصة ما أجاب به الأتونى — لأن نص هذا الجواب لا يهمنا كثيراً — أن أخذ يتحدث إليه عن اهتمامه الزائد بالدجاج . . .

وكان الجو قد أظلم ، بقدر ما يظلم الجو فى إنجلترا فى ليلة من ليالى شهر يونيه ، عندما دخل المستر اسكنر — أو دخلت رأسه على الأقل — فى حانة چولى دروفرز وسأل من فيها :

— ألم تشمعوا شيئاً عن قتة دجاجاتى ؟

فأجابه المستر فلشر :

— تقول ألم نسمع شيئاً ؟ لقد عرفنا بعض قصتها . إن واحدة منها طارت فوق سطح منزل ، وواحدة أخرى خرقت سطح دار زوجة القسيس ، اقصد قبة الدار لا سطحها ، فلعلها لا تؤاخذنى .

ودخل مستر اسكنر الحانة وطلب بعض الشراب المنعش كما طلب أن يرش بعض الماء على وجهه ، وأخذ كل من فى الحانة يقص عليه شيئاً من أخبار الدجاج .

وصاح بهم مستر اسكنر بعد قليل : « يارباه ! » ثم سكت قليلا وقال :

— ألم تشمعوا شيئاً عن مثث اثكنر ؟

فأجابه مستر وذرسپون :

— أما هذا فلا ! إننا لم نفكر فيها ولا فيك .

---

(١) حارق الحجارة فى أتون .

وسأله فلشر وهو يتناول قدحاً من الشراب :

— ألم تذهب إلى دارك هذا اليوم ؟

وقال مستر وذرسپون :

— إذا كانت إحدى هذه الدجاجات الضخمة قد نقرتها . . . ولم يتم الحديث بل ترك ما بقى منه لخيال المستمع . . .

وبدا للمجتمعين فى هـذا المكان أن خير ما يختمون به حوادث ذلك اليوم أن يذهبوا كلهم مع مستر اسكنر ليروا هل أصاب زوجته مكروه . ذلك أن الإنسان لا يعرف ما عسى أن يصيبه عندما تأخذ الحادثات بعضها برقاب بعض . ولـكن المستر اسكنر فاته أن يلاحظ هـذه الرغبة البادية من الحاضرين حينما كان يتجرع شرابه وماءه ، وينظر بإحدى عينيه إلى محتويات الحانة ، وبالأخرى إلى لاشىء . ثم قال وكأنه فى واد وسـائر من فى الحانة فى واد :

— اظن أن هـذه الذنابير الـكبيرة لم تثب أحداً من الناث بأذى فى هذا اليوم ؟

فأجابه فلشر :

— لقد كنا فى شغل عنها بدجاجاتك .

وقال اسكنر :

— وأظن أنها ابتعدت الآن على كل حال .

— أى شىء ؟ الدجاج ؟

فقال اسكنر :

— كنت أفكر فى الذنابير على الأخث .

ثم قال فى حذر خليق بأن يبعث الشك فى طفل لا تزيد سنه على أسبوع ، مؤكداً معظم الألفاظ التى ينطق بها :

— لثت أظن أن أحداً قد تمع عن اشياء أخرى كبيرة ، عن كلاب

وقطط كبيرة أو نحوها . إنى ليخيل إلىَّ أنه إذا كانت قد ظهرت فى الوجود دجاجات كبيرة وذنابير كبيرة . . .

ثم ضحك ليوهم سامعيه أنه غير جاد فيما يقول .

لكن شيئاً من الكآبة بدا على وجوه رجال هكليبراو ، وكان فلشر أول من عبر عن هذا الوجوم بألفاظ صريحة فقال :

— أتريد قططاً يتناسب حجمها مع حجم هذا الدجاج ؟

وقال وذرسپون :

— أجل أتريد قططاً يتناسب حجمها مع حجم هذا الدجاج ؟

وأجاب فلشر :

— إنها تكون نمورة .

وأجاب وذرسپون :

— بل أكبر من النمورة .

وبعد قليل من ذلك الوقت كان اسكنر يسير وحده فى الطريق المرتفع مخترقاً الحقل الذى يفصل هكليبراو عن المنخفض المظلل بأشجار الصنوبر الذى يتصارع فى ظلاله النبـــات الزاحف مع المزرعة التجريبية .

وأصبح هذا الرجل من ذلك الوقت موضع حديث الناس ، فقال بعضهم إنهم رأوه أخيراً يصعد التلال مقترباً من الأفق الشمالى ، ثم ينحدر فى ظلام الليـل ويختفى حتى ليظن أنه لن يعود مرة أخرى إلى الظهور . ولقد اختفى الرجل فى واقع الأمر ولا يعرف أحد إلى هذا اليوم ما حدث له بعد أن صعد ثم انحدر . ولما خرج فلشر الـكبير وولده ووذرسپون وصعدوا فوق التل لينظروا إلى حيث اختفى اسكنر كان الظلام قد ابتلعه أبد الدهر .

ووقف ثلاثتهم متقاربين لا يصل إلى آذانهم صوت من خلال هذا الظلام الدامس والأشجار الباسقة .

فقال فلشر الصغير وكأنه يختتم جملة بدأها من قبل :

— هذا حسن .

وقال وذرسپون :

— لست أرى فى المزرعة ضوءاً .

— ليس فى وسعك أن ترى ضوءاً من هذا المكان .

وقال فلشر الكبير :

— إن الجو غائم .

وتلت ذلك لحظة سادها السكون .

ثم قطع فلشر الصغير صمتهم وتفكيرهم بقوله :

— لو كان فى الأمر شر لعاد إلينا من فوره .

وبدا ذلك من الوضوح بحيث لم يحتج إلى تعليق إلا من فلشر الكبير فقال: «صحيح» ، ثم عاد ثلاثتهم إلى دورهم وآووا إلى فراشهم — يفكرون دون شك .

وسمع راع من مزرعة هكستر فى الليل صراخاً ظنه صياح الثعالب ، وشوهد فى الصباح حمل مقتول ، وقد جُر إلى منتصف الطريق الموصل إلى هكايبراو أكل بعضه . . .

ولكن الجزء الذى لم يستطع أحد فهمه فى هذه القصة كلها هو اختفاء مستر اسكنر ، وعدم ظهور شىء من آثاره .

نعم إن عظما وجد بين بقايا المزرعة التجريبية المحترقة بعد عدة أسابيع من ذلك الوقت ، وقد يكون عظم كتف بشرية وقد لا يكون ، ووجد فى جزء آخر من بقايا المزرعة عظم آخر طويل أكل بعضه حيوان ، ولكن نسبة هذين الأثرين إلى اسكنر أو غيره من الآدميين مشكوك فيها كل الشك . كذلك وجدت بالقرب من أيبريت عين زجاجية ، وظن كثير من الناس بعد العثور عليها أن اسكنر كان مدينا بالشىء الكثير من محاسنه إلى هذه العين التى كان ينظر بها إلى العالم نظرة المستهين به ، الذى لا يأسف على ما حدث فيه ، ونظرة الرجل الشديد الكآبة التى تفصله كآبته عن هذا العالم .

وعثر المنقبون المجدون بين آثار المزرعة على حلقات الأزرار المعدنية، على غطاءى زرين، وعلى زرين مخرَّمين، وثلاثة أزرار سليمة؛ وكانت هذه ومن الأدلة القاطعة عند ولاة الأمور على أن المستر اسكنر قتل ومزق جسمه. أما أنا فقد كنت أقتنع لو أننى عثرت على أزرار أقل من هذه، وعلى عظام أكثر منها.

نعم إن العين الزجاجية قد تكون من الأدلة المقنعة لبعض الناس، ولكنها إذا كانت هى عين مستر اسكنر — ومن واجبى أن أقول هنا إن مسز اسكنر نفسها لم تكن تعرف أن عينه الثانية عين زجاجية — فقد حدث لها ما بدل لونها من السمرة القاتمة إلى الزرقة الصافية. أما عظم الكتف فأمره أدعى إلى الشك من تلك العين الزجاجية. وأنا أميل إلى الموازنة بينه وبين عظام بعض الحيوانات المستأنسة المعروفة، قبل أن أحكم بأنه لوح آدمى.

ثم أين ذهب حذاء مستر اسكنر مثلا؟ وهل تستطيع الجرذان مهما بلغ من شراهتها أن تلتهم جسم مستر اسكنر عن آخره — بما فى ذلك شعره وعظمه وأسنانه وحذاؤه — وهى التى لم تأكل إلا نصف حمل؟

وسألت كل من استطعت أن أسأله ممن يعرفون مستر اسكنر حق المعرفة فأجمعوا كلهم على أنهم لا يتصورون قط أن شيئاً ما يستطيع أكله. وحدثنى عنه بحار متقاعد يسكن فى أحد أكواخ المستر و. و. يعقوب فى قرية دنتن جرين، فقال بشئ من الحذر العظيم الدلالة الذى اعتاده الناس فى هذه الأمكنة: إنه من ذلك الصنف الذى تراكمت عليه الأقذار، وإن الأجزاء التى تؤكل من جسمه كانت خليقة أن تطفئ النار إذا ألقيت عليها، وإنه لا يمكن أن يغرق فى الماء. وأضاف إلى ذلك أنه لا يريد أن يسئ بقوله هذا إلى المستر اسكنر، وكل ما يريده هو أن يقول الحق ولا شئ غير الحق. وقال البحار المتقاعد فوق ذلك إنه لم يكن يقبل قط أن يخيط له اسكنر ملابسه. ولو اضطره ذلك إلى أن يبقى فى داره لا يخرج منها لعريه. تلك كلها من غير

غير شك أقوال لا تدل على أن لحم المستر اسكنر كان طعاماً شهيًّا .

وليسمح لى القارئ أن أصارحه بأنى لا أعتقد أن المستر اسكنر عاد إلى المزرعة التجريبية . واعتقادى أنه أخذ يجول فى حقول هكليبراو ، وأنه فى الوقت الذى سمع فيه هذا الصياح الشديد اختار أسهل السبل للخروج من متاعبه ، فذهب إلى العالم المجهول .

وفى هذا العالم المجهول — سواء كان فى هذه الدنيا أو فى دنيا أخرى لا نعرفها — أصر المستر اسكنر دون شك على البقاء إلى هذا اليوم .

الفصل الثالث

الجرذان الجبارة

١

حدث بعد ليلتين من اختفاء مستر اسكنر وبالقرب من هنكى أن كان طبيب يُدبورن عائداً فى عربته إلى قريته فى أثناء الليل بعد أن قضى شطراً كبيراً منه يحاول إعادة رجل من عامة الناس إلى هذا العالم الغريب . ولما فرغ من عمله عاد يسوق عربته وهو بين النوم واليقظة . كان ذلك حوالى الساعة الثانية صباحاً ، وكان القمر قد بدأ يظهر شاحباً فى الشرق ، والجو بارد والأرض مغطاة بضباب أبيض منخفض ، يكاد يحجب عن العين ما أمامها . وركب الطبيب وحده لأن السائق كان مريضاً ، ولم يكن يتبين شيئاً على جانبى الطريق إلا أسوار النبات تمر مسرعة على ضوء عربته الأصفر ، ولم يكن يسمع من الأصوات سوى وقع حوافر حصانه وعجلات مركبته . وكان يثق بحصانه ثقته بنفسه ، فلا عجب إذا أرخى له العنان وترك النعاس يعبث بعينيه .

وفى وسع القارئ دون شك أن يصور لنفسه الرجل وهو يغفو إغفاء متقطعاً فوق مركبته ، وفى وسعه أن يتصور رأسه منثنياً على صدره ، يرتفع وينخفض أثناء سير المركبة ، وفى وسعه كذلك أن يتصوره يهب من إغفائه مذعوراً وهو يصيح :

— أى شىء هذا ؟

لقد خيل إلى الطبيب أنه يسمع صوتاً رفيعاً يصيح بالقرب منه ، وطرد هذا الصوت النعاس لحظة قصيرة قال فى أثنائها كلمة أو كلمتين نهر بهما حصانه ، ونظر فيما حوله ، وحاول أن يقنع نفسه بأن ماسمعه صياح ثعلب أو ضغيب أرنب صاده ابن مقرض[1] .

وعاد الصوت من جديد ، وصاح الطبيب مرة أخرى قائلا: « ماذا أسمع ؟ » ثم خيل إليه أنه واهم فهز كتفيه ، وأمر حصانه بالمسير ، وأنصت فلم يسمع شيئاً ، فقال فى نفسه :

— لا شىء . لا شىء .

لكنه مع ذلك قد انطبع فى ذهنه أن شيئاً أطل عليه من سور النبات ، شيئاً ذا رأس كبير غريب ، وأذنين مستديرتين . ونظر حيث ظن أنه أبصر ذلك الرأس ولكنه لم ير شيئاً .

وقال مرة أخرى :

— إنى واهم ما فى ذلك شك .

وجلس فى مقعده وهو يظن أن كابوساً انتابه ، وضرب حصانه ضربة خفيفة بسوطه ، وقال له كلمة أو كلمتين وتطلع مرة أخرى جهة السور ، ولكن بريق المصباح وضباب الليل جعلا الرؤية غير واضحة ، فلم تستطع عيناه أن تبصرا شيئاً ، وبدا له مرة أخرى أنه واهم أو حالم ، فلو أن شيئاً كان فى الطريق حقاً لجفل منه حصانه ، ولكن حواسه رغم هذا الظن بقيت يقظة مرهفة .

ثم سمع فى وضوح وقع أقدام فى الطريق .

لكنه لم يصدق أذنيه ، ولم يستطع أن ينظر وراءه ؛ لأن الطريق فى ذلك الجزء كان ملتوياً شديد الاعوجاج ، فساط حصانه ، وتطلع إلى اليمين ثم إلى اليسار ، وحينئذ أبصر فى ضوء المصباح الذى كان يلقى شعاعاً ضئيلا فوق

---

(١) حيوان شبيه بابن عرس .

جزء منخفض من السور ظهراً مستديراً لحيوان كبير لم يعرف ما هو ، ولكنه كان يقفز مسرعاً فوق السور .

ويقول الطبيب إنه فى هذه اللحظة تذكر قصص السحرة والساحرات ، فقد كان الشىء الذى رآه لايشبه قط أى حيوان عرفه أو وقعت عينه عليه من قبل ، فقبض قبضة قوية على عنان الحصان لأنه خشى مغبة خوفه . ويقر الرجل أنه رغم علمه الواسع سأل نفسه هل فى وسعه أن يرى شيئاً لايستطيع الحصان أن يبصره ؟

وبدت أمامه فى ضوء القمر الشاحب وقت شروقه بيوت قرية هنكى الصغيرة تقترب منه وتطمئنه ، وإن لم يكن فى أحد بيوتها نور ساطع ، وساط حصانه مرة أخرى وتكلم ، ولكنه لم يكد ينطق بما نطق به حتى هاجمته الجرذان !

وكان فى هذه اللحظة قد مر بباب فى السور ، وعنده خرج الفأر الأمامى يقفز إلى عرض الطريق ، وطلع عليه ذلك الحيوان من الظلمة المجهولة إلى وضح النور ، ورأى وجهه الدقيق القاسى ، وأذنيه المستديرتين ، وجسمه الطويل الذى زادته حركاته طولا على طوله . وكان أعظم ما أدهشه فيه قدماه الأماميتان القرنفليتان المشتبكتا الأصابع . وزاده رعباً أن ذلك الحيوان لم يكن شبيهاً بشىء من خلق الله رآه أو سمع به من قبل ، ولم يدرك أنه جرذ ؛ لأن الجرذان لا تبلغ من الحجم ما بلغه . وضرب الطبيب حصانه ضربة قوية بالسوط حين قفز الحيوان إلى الطريق بجواره ، واستيقظ سكان الحى على وقع السوط وصراخ الطبيب ، وتتابعت الحوادث من هذه اللحظة سراعاً .

ويقول الذين رووا القصة بعدئذ إن الطبيب وقف على عربته ، وصاح بأعلى صوته ، وضرب الحيوان بكل قوته . ونظر إليه الجرذ نظرة المستهزئ ، وزاغ من ضربته ، وكان فى وسعه أن يرى أثر السوط على ظهره فى ضوء

المصباح ، فضربه مرة ثانية وثالثة ، وهو لايدرى أن حيوانا آخر يتبعه ويقترب فى كل لحظة من مركبته .

ثم خلى لجواده العنان ونظر خلفه فرأى الجرذ الثالث يتبعه . . .

وجرى الحصان وقفزت عجلات المركبة ، ولاح فترة من الزمان أن الحوادث تتتابع سراعاً .

وكان من حسن الحظ أن الحصان لم يقع قبل البيوت أو بعدها ، بل وقع فى وسط القرية نفسها .

ولا يعرف أحد سبب وقوع الجواد ، فلعله عثر أو لعل أحد الجرذان قبض على ساقه بأسنانه . ولم يشعر الطبيب نفسه بأن أحد الجرذان عضّه ولا متى عضّه إلا بعد أن حُمل إلى بيت بناء القرية ؛ وكل ما فى الأمر أنه شعر وهو فى بيت البنّاء بألم فى كتفه اليسرى ، فكشف عنها فاذا بها جرحان كبيران متوازيان انتزعت من فوقهما قطعتا لحم .

ويذكر الرجل غير هذا أنه وقف فى مركبته لحظة من الزمن ، وأنه قفز بعدها إلى الأرض ، وأن قدمه التوت فى هذه القفزة وإن لم يعرف ذلك وقتئذ ، وأنه أخذ يضرب بشدة جرذاً ثالثاً كان يريد أن ينقض عليه . ولم يتذكر الرجل ساعة أن قفز من فوق العجلة حين انقلبت المركبة ، فقد كانت الحوادث كما قلنا تجرى مسرعة . أما أنا فأظن أن الحصان وقف على خلفيتيه ، والفأر قابض بأسنانه على عنقه ، ثم وقع على جنبه ، ووقعت معه المركبة وصاحبها ، وقفز الطبيب من فوره مدفوعاً بغريزة حفظ البقاء . ولما سقطت العربة ، وحطم مصباحها ، اشتعل الزيت فأضاء منظر المعركة .

وكان ضوءه الساطع أول ما أبصر بنّاء القرية .

وسمع هذا البناء وقع حوافر الخيل وصراخ الطبيب — وان لم يذكر الطبيب أنه صرخ — فقام من فراشه مسرعاً ، وسمع وقت قيامه صوت انقلاب العربة والجواد ، ورأى اشتعال زيت المصباح . ويقول : « إن

الضوء كان أسطع من ضياء الشمس » ، فوقف فى نافذة حجرته وحبل الستار فى يده ، وظل لحظة قصيرة يرقب هذا المنظر الغريب منظر الطريق المألوف الذى كان ماثلا أمامه . رأى شبح الطبيب الأسود والسوط فى يده يرقص أمام اللهب ، ورأى الجواد يضرب الأرض بقدمه وقد أخفى اللهب الجزء الأكبر منه ، والفأر يغرز أسنانه فى عنقه ، ثم أبصر فى ظلال جدار المقبرة عينين أخريين ترقبانه فى هذه الظلمة ، وكان صاحب العينين كتلة ضخمة سوداء ، يسطع على عينيه ضوء المصباح ، يقفز على الجدار حين تحطم المصباح ، وأضاء الزيت .

وليس من القراء من لم ير وجه الفأر الرفيع وأسنانه الحادة وعينيه الخاليتين من معانى الرحمة ؛ وما من شك فى أن هذا المنظر بعد أن تضاعف ستة أضعاف بتأثير الظلمة والرهبة والخيال انوثاب الذى أثاره لهب المصباح ، ما من شك فى أن هذا كله قد قذف الرعب فى قلب البنّاء ، ولم يكن قد مضى على قيامه من نومه إلا لحظات .

واغتنم الطبيب فرصة المهلة التى أتاحها له اشتعال اللهب ، فاختفى عن عين البناء ، وأسرع نحو داره ، وأخذ يدق الباب بمقبض سوطه . . .

ولم يسمح له البناء بالدخول حتى جاء بمصباح تبين به حقيقته .

ويلومه البعض على هذا التباطؤ ، ولكننى لن أشاركهم فى هذا اللوم حتى تتاح لى فرصة أختبر بها شجاعتى خيراً من الفرص التى أتيحت لى حتى الآن .

وأخذ الطبيب يدق الباب بعنف ويصرخ بأعلى صوته .

ويقول البنّاء إنه حين فتح الباب آخر الأمر كانت الدموع تنهمر من عينيه من شدة الخوف .

وصاح الطبيب : « أغلق . . . أغلق . . . » ولم يكن فى مقدوره أن يقول « أغلق الباب » ، وحاول أن يساعد البناء على إغلاقه ، ولكنه لم يستطع . وأغلق البناء الباب وجلس الطبيب على الكرسى بجوار ساعة الحائط برهة من الزمان قبل أن يقوى على صعود درج السلم . . .

وكان أول ما قال لما استطاع أن يتكلم : « لست أدرى ماهى ! » وأخذ يكرر هذه العبارة المرة بعد المرة ويؤكد آخر هذه الكلمات .

وأراد البناء أن يسعفه بشئ من الشراب المنعش ، ولكن الطبيب أبى أن يبقى وحده ، وليس بجواره إلا ضوء مضطرب ضئيل . . .

ومضت فترة طويلة قبل أن يستطيع البناء إقناعه بالصعود إلى الطابق الأعلى .

ولما انطفأ لهب الزيت عادت الجرذان الجبارة إلى مكان الحادثة ، وجرت الحصان الميت إلى المقبرة ثم إلى مضرب اللبن ، وظلت تنهش لحمه حتى مطلع الفجر . ولم يجرؤ أحد حتى فى ذلك الوقت على أن يزعجها أو يحول بينها وبين التهام فريستها .

٢

وذهب ردوود إلى بنزنجتن حوالى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ومعه « الطبعة الثانية » من ثلاث صحف من صحف المساء .

وقطعت هذه الزيارة ما كان بنزنجتن غارقاً فيه من تفكير عميق فى حوادث قصة كان صاحب مكتبة برُمبتن رود أرسلها إليه بعد بحث طويل .

وسأله :

— هل من جديد ؟

— قد لسعت الزنابير رجلين قرب تشارتم .

— يجب عليهم أن يسمحوا لنا باستخدام الدخان للقضاء على هذه الزنابير ، وإذا كان الرجلان قد لُسعا حقاً ، فالتبعة واقعة عليهم .

وأجاب ردوود :

— إن التبعة واقعة عليهم ما فى ذلك شك .

— وهل سمعت شيئاً عن الموضوع الخاص بشراء المزرعة ؟

وأجاب ردوود :

— إن السمسار رجل غبى كثير الكلام ، وهو لا يفتأ يقول إن شخصاً آخر يسعى لشرائها — ولكن هذا ما يقوله السماسرة على الدوام كما تعلم — وليس فى مقدوره أن يفهم أننا نريد الانتهاء من هذا الموضوع قبل فوات الوقت . ولقد قلت له : إن هذه المسألة بالنسبة لنا مسألة حياة أو موت ، هل فهمت ؟ فأغمض الرجل عينيه وقال : ولم إذن لا توافق على الزيادة المطلوبة وهى مئتا جنيه ؟ وأقسم لك أنى أفضل أن أعيش فى عالم كله زنابير على أن أقبل ما يمليه علىَّ هذا الرجل الغبى الذميم . . . إنى . . .

وسكت ردوود لأنه أحس أن هذه العبارة الأخيرة تفقد جمالها وقوتها إذا أتبعها بأقوال أخرى .

وقال بنزنجتن :

— إن الأمل ضعيف جداً فى أن أحد الزنابير . . .

وقاطعه ردوود بقوله :

— إن الزنابير ليست فى رأيى أكثر إدراكاً للمنفعة العامة من . . . سمسار المنازل .

وظل برهة يتحدث عن سماسرة البيوت وعن وكلاء الدعاوى وأمثالهم ، ويرميهم بالتهم الباطلة غير المعقولة التى اعتاد الكثيرون من الناس أن يرموا بها هذه الطائفة من رجال الأعمال . (كقوله : « ومن أعجب الأشياء كلها فى هذا العالم العجيب أنا لا نكتفى بأن نسمح للمحامى أو السمسار بألا يتخلق بغير الحمق الممزوج بالجشع والنفاق وتعطيل الأعمال والخداع . . . وما إلى ذلك ، بل نرى أن هذه الصفات هى التى ننتظر وجودها فيه ، على حين أن الطبيب أو الجندى لا ينتظر منهما غير الشرف والشجاعة والكفاية . ونعد ذلك من الأمور الطبيعية . . . ») وبعد أن أفرغ ما فى جعبته كله ، وهدأت

بذلك سورة غضبه ، ذهب إلى النافذة وأخذ ينظر إلى الغادين والرائحين فى شارع سلون .

ووضع بنزنجتن القصة المثيرة على المنضدة التى كان عليها مصباحه الكهربائى ، وأمسك كلتا يديه بالأخرى ، وأخذ ينظر إلى أصابعه ثم قال .

— أصدقنى يا ردوود : هل يتكلم الناس عنا كثيراً ؟

— إن حديثهم عنا لم يبلغ من الكثرة ما كنت أتوقع .

— أو لم يذكرونا بسوء قط ؟

— لا . ولكنهم لايوافقون على ما أعتقد أنه لابد من عمله . لقد كتبت كما تعلم إلى جريدة التيمز بياناً بالموضوع كله . . .

وأجاب بنزنجتن :

— إننا نعد الديلى كرونكل . . .

وواصل ردوود حديثه قائلا :

— وكتبت التيمز مقالا افتتاحياً طويلا فى هذا الموضوع — مقالا افتتاحياً جيداً من الطراز الأول تخللته ثلاث عبارات لاتينية مما امتازت به هذه الصحيفة — ومنها عبارة *status quo*[1] . وتدل ألفاظ هذا المقال على أن كاتبه شخص ذو مكانة رفيعة يقاسى آلام الصداع المسبب عن النزلة الوافدة ، وأنه يتحدث من خلال طبقات سميكة من الأغطية ، وأن هذا الحديث لايخفف عنه شيئاً من آلامه . لكنك إذا قرأت ما بين السطور اتضح لك على الفور أن التيمز ترى ألا فائدة من تلطيف الأمور ، وأن شيئاً (لم تحدده بطبيعة الحال) يجب أن يعمل على الفور . وإلا فان أموراً أوخم عاقبة (هذه لغة التيمز كما تعلم وهى الطريقة التى تعبر بها عن الزنابير ولسعها ، وتلك مقالة تدل على براعة سياسية عظيمة !)

---

(١) *status quo ante* ومعناها الحالة التى كانت من قبل .

— ولكنك تعلم أن هذا التضخم آخذ فى الانتشار بوسائل مختلفة كريهة .

— لاشك فى هذا .

— ولست أدرى أكان اسكنر على حق فيما قاله عن تلك الجرذان الكبيرة ؟

فأجاب ردوود

— لا . لا . إن هذا بعيد الاحتمال جداً .

ثم اقترب من بنزنجتن ووقف بجانب كرسيه ، وقال له بصوت منخفض قليلا :

— وما رأى ابنة . . . ؟

ثم أشار إلى الباب المغلق .

— تقصد چين ابنة عمى ؟ إنها لا تعرف شيئاً عن الأمر كله . . . ولا تعرف أن لنا صلة بهذا الموضوع ، وتأبى أن تقرأ الصحف ، وتسخر من عبارة الزنابير الضخمة ، وتقول إنها لا تطيق قراءة الصحف .

وقال ردوود :

— إن هذا من حسن حظنا .

— وأظن أن مسز ردوود ؟

فأجابه ردوود :

— كلا . لقد اتفق أن أصبحت فى هذه الأيام فى شغل شاغل بأمر الطفل ، إنك تعرف أنه مستمر فى . . .

— فى النمو .

— نعم وقد زاد وزنه أربعين أوقية فى عشرة أيام . وهو يزن الآن ما يعادل ستة وخمسين رطلا ، مع أن سنه لا تزيد على ستة شهور . ذلك بالطبع شىء مزعج .

— ألا يدل هذا على أنه قوى البنية جيد الصحة ؟

— بل يدل على أنه شديد البطش . إن مربيته ستترك عملها لأنه يضرب برجليه ضرباً قوياً ، وكل شيء بالطبع قد زيد حجمه إلى درجة مروعة ، وأصبح لابد من تغيير كل شيء ، من ملابس وما إليها ، وقد كسرت إحدى عجلات مركبته ، وكان لا بد من حمل الطفل إلى الدار فى عربة اللبن . نعم والتف حوله جمهور كبير . . . ووضعنا چيورجينا فيليس فى مهده وأعطيناه سريزها ، وأزعج ذلك أمه بطبيعة الحال بعد أن كانت فى أول الأمر تفخر به وتمتدح ونكاز . أما الآن فهى تظن أن ذلك الشيء غير صحى .

— لقد كنت أظن أنك ستنقص مقدار الجرعات بالتدريج .

— حاولت ذلك .

— ألم تنجح ؟

— إنه يزأر كالأسد ، وليس فى وسع الإنسان أن يتحمل صراخ الطفل العادى لأنه صراخ شديد مؤلم ، وذلك من مصلحة النوع البشرى . . .

— ولكنه بعد أن أطعم هرقليو فوربيا .

ونظر بترنجتن إلى أصابعه واليأس باد فى عينيه أكثر من أى وقت مضى وتنحنح .

— إن الناس سيعرفون السر حتما ، إنهم سيسمعون عن هذا الطفل وسير بطونه فى عقولهم بالدجاج والأشياء الأخرى ، ثم يردون الأمر كله إلى زوجتى . . . ولست أعرف ماذا تكون حالها وقتئذ .

فأجاب بترنجتن :

— إنها لمشكلة معقدة دون شك ، ولا أعرف سبيلا لحلها .

ثم رفع منظاره ومسحه بعناية وقال :

— وهذه المشكلة مثل آخر مما يحدث حولنا على الدوام . إننا نحن العلماء — إذا صح لى أن أصف نفسى بهذا الوصف — نعمل لنحصل على نتائج نظرية — نظرية محضة — ولكننا أحياناً نطلق قوى كانت من قبل

كامنة ، قوى جديدة لم تكن معروفة . وليس لنا أن نسد السبيل فى وجه هذه القوى ، وليس فى مقدور إنسان آخر فى هذا العالم أن يسد السبيل فى وجهها . وإذا نظرت إلى المسألة من الناحية العملية رأيت ياردوود أن الأمر قد أفلت من أيدينا . إننا نصنع الطعام . . .

وأتم ردوود العبارة وهو يلتفت إلى النافذة قائلا :

— وهم يجربونه .

— أما هذا الاضطراب الحادث فى كنت فلن أشغل بالى به بعد الآن .

— إلا إن شغلونا هم به .

— بالضبط . وإذا شاءوا أن يعكروا علينا صفونا بالالتجاء إلى رجال القانون كبارهم وصغارهم ، وأن يقيموا فى سبيلنا العقبات القانونية ، (الاعتبارات الخطيرة) التى يذكرونها دائماً فى نظامهم السخيف المضحك .. إذا شاءوا أن يعكروا علينا صفونا بأعمالهم لكى يستقر فى هذا العالم جنس من الحشرات الضخمة ، ولست أسمى من فيه من الآدميين إلا حشرات ضخمة — إنك تعلم ياردوود أن الأمور لم تستقم قط فى هذا العالم .

ورسم ردوود فى الهواء خطاً ملتوياً معقداً .

— والذى يهمنا الآن هو أمر طفلك .

وحينئذ جاء ردوود وأخذ يسدد نظراته إلى زميله .

— وما رأيك أنت فيه يا بنزنجتن ؟ إن فى وسعك أن تنظر إلى الأمر نظرة أسلم من نظرتى وأبعد منها عن الغرض ، ماذا أفعل فى أمره ؟

— عليك أن تستمر فى تغذيته .

— أغذيه بهرقليوفوربيا ؟

— نعم بهرقليوفوربيا .

— وإذن سيظل ينمو .

— سيظل ينمو حتى يبلغ طول قامته خمساً وثلاثين قدماً إذا قست

هـذا النمو بما بلغه الدجاج والزنابير ، وسينمو كل شيء فيه بهذه النسبة .

— وماذا نفعل بعدئذ ؟

وأجابه بنزنجتن :

— وهذا هو الذى يضفى على الأمر مافيه من متعة وطرافة .

— ويحك أيها الرجل ! فكر فى ملابسه .

— وعندما يكبر سيصبح جلفر فرداً فى عالم الأقزام .

وأبرقت عين مستر بنزنجتن من خلف حافة منظاره الذهبية ، ونظر نظرة لها دلالتها وقال :

— ولم يكون وحيداً ؟

وكرر السؤال بلهجة أكثر غموضا من المرة الأولى :

— ولم يكون وحيدا ؟

وانبسطت أسارير مستر بنزنجتن . كما تنبسط أسارير الرجل حينما يحس بأنه قال قولا خطيراً ، ثم قال :

— لقد قلت ولم يكون وحيداً ؟

— هل تريد أن تقول إن الإنسان يستطيع أن ينشئ أطفالا غيره . . . ؟

— لا أريد أن أقول شيئاً أكثر من السؤال الذى سألته .

وأخذ ردوود يخطو فى الحجرة جيئة وذهاباً ثم قال :

— إن فى مقدور الإنسان بطبيعة الحال . . . ولكن أى شيء نحن مقدمون عليه ؟

وكان بنزنجتن من غير شك معجباً بتفكيره العلمى الدال على عظيم قدره وصفاء ذهنه .

— إن الذى اعنى به ياردوود أكثر من كل ماعداه فى هذه المسألة هو أن هذه المستقر فى أعلى رأسه سيكون هو الآخر أعلى من مستوى مخنا نحن

بخمس وثلاثين قدماً أو نحوها . هذا إذا سارت الأمور سيرها الطبيعى المنطقى . . . ماذا ترى ؟

وكان ردوود واقفاً عند النافذة ينظر إلى إعلان كبير ملصق على عربة تسير فى الطريق .

وقام بنزنجتن من مقامه وكرر سؤاله :

— ماذا ترى ؟

وصرخ ردوود صرخة قوية .

وسأله بنزنجتن :

— ما هذا ؟

وقال ردوود وهو يهم بالنزول إلى الطابق الأسفل :

— سأشترى صحيفة .

— ولم ؟

— سأشترى صحيفة . إن شيئا . . . لم أتبين الكلمات بالضبط

— جرذان جبارة . . . ؟

— جرذان ؟

— نعم جرذان . لقد كان اسكنر على حق !

— ماذا تقصد ؟

— وكيف أعرف الحقيقة قبل أن أطلع على الصحف ، جرذان جبارة رحماك يارب ! لست أدرى لعلها قد أكلته !

ونظر إلى ما حوله يبحث عن قبعته ، ثم قرر أخيراً أن يخرج عارى الرأس .

وكان الرجل وهو مندفع إلى الطابق الأسفل يخطو درجتين فى كل خطوة ويسمع صوت بائعى الصحف ينادون بأعلى أصواتهم ، وهم يغدون ويروحون فى شارع القرية قائلين :

« حادث خطير فى كنت ! حادث خطير فى كنت . . . طبيب تأكله الجرذان . . . حادث خطير ... الجرذان ... تأكله جرذان جبارة ضخمة . . . أخبار مفصلة . . . حادث خطير . »

٣

ولما وصل الرجلان إلى الباب الكبير وجدا عنده كوسار المهندس المدنى الشهير ؛ وأمسك ردوود بالصحيفة القرنفلية اللون الرطبة يقرأ فيها الأنباء ، ووقف بنزنجتن على أصابع قدميه ليطل على الورق من فوق ذراع زميله . وكان كوسار رجلا كبير الجسم ذا أطراف رفيعة غير متناسبة كأنها ألصقت فى جسمه حيثما اتفق . أما وجهه فكأن مثالا قد بدأه ثم رأى من العبث أن يستمر فيه فلم يتمه ، وكان أنفه عريضاً وفكه الأسفل بارزاً تحت فكه الأعلى ، وقلما كان فى الناس من يعده متناسب الأعضاء ، وكنت تسمع حركة الهواء فى صدره إذا تنفس ، وكان قائم الشعر عالى الصوت قليل الكلام ، نبرات صوته هى نبرات الرجل الغاضب المحتج ، وكان يلبس سترة رمادية اللون وقبعة من الحرير على الدوام . وضع هذا الرجل يده الحمراء الكبيرة فى جيبه العميق وأخرج للحوذى أجره ، ثم أخذ يصعد سلم الباب الخارجى وهو يلهث ، وبيده عدد من الصحيفة القرنفلية يمسكها من وسطها بيده . وأقبل كوسار حين كان بنزنجتن يتحدث إلى ردوود قائلا :

— اسكنر ؟

وقال ردوود :

— لم أسمع عنه شيئاً . وما من شك فى أن الجرذان قد أكلته هو وزوجته ، تلك مأساة مروعة . . . وها هو ذا كوسار .

وقال كوسار وهو يلوح بالصحيفة :

— أهـذه عاقبة طعامكما ؟ ولم لا تضعان لذلك حداً ؟ أتقولان إن هذا محال ؟

وتريدان أن تشتريا المكان ؟ هـذا كلام سخيف . حرقاه . لقد كنت موقنا أن عملكما سيؤدى إلى هـذه العاقبة . أتقولان ماذا نفعل ؟ افعلا ما آمركما به .

اذهبا إلى بائع السلاح واشتريا بنادق . ليس هناك إلا حانوت واحد اشتريا منها ثمانيا على ألا تكون من بنادق الصيد الكبيرة ، ولا من بنادق الجيش الصغيرة ، قولا إنها لقتل الفحول . قولا إنها لصيد الجاموس . الجرذان ! لا ! لا تقولا إنها لقتل الجرذان . إن البائع لا يفهم هذا . إننا فى حاجة إلى ثمان . ولتشتريا معها قدراً من ذخيرتها . لا تشتريا البنادق بلا ذخيرة . واذهبا بها كلها فى عربة إلى أين ؟ إلى إرشت ؟ اذهبا إذن إلى تشيرنج كرس واركبا أول قطار يغادرها بعد الساعة الثانية . أتظنان أن فى وسعكما أن تفعلا ذلك ؟ حسن . والتصريح بشراء البنادق ؟ احصلا على ثمانية تصاريح ، من مكتب البريد بطبيعة الحال . . . تصاريح بشراء البنادق ، لا تصاريح بالصيد . ولم ؟ إنها الجرذان ياصاحبىّ .

وأنت يا بنزنجتن ألديك تليفون ؟ نعم . سأستدعى من إيلنج خمسة من أصدقائى . ولم أستدعى خمسة ؟ لأن هذا العدد الصحيح !

وإلى أين تذهب يا رذوود ؟ أتريد أن تحضر قبعتك ؟ ألا ما أسخف هذا ! خـذ قبعتى . إنك فى حاجة إلى البنادق أيها الرجل لا إلى القبعات . هل معك نقود ؟ وهل معك ما يكفى منها ؟ حسن . وما دمت . . .

وأين التليفون يا بنزنجتن ؟

وقام بنزنجتن من مكانه طوعاً لأمره ، وقاده إلى حيث التليفون .

وتحدث كوسار وأعاد السماعة إلى مكانها ثم قال :

— وتبقى بعد ذلك الزنابير . إن مركباً من الكبريت وملح البارود كفيل بإبادتها . هذا أمر واضح ، أو الجبس وأنت كيميائى . وأين أجد القناطير المقنطرة من الكبريت فى أكياس سهلة الحمل ؟ أتقول لماذا ؟ رحماك يا رب ! لأستخدم دخانها فى عش الزنابير بطبيعة الحال ! أظن أن لا بد من استخدام الكبريت ؟ إنك من الكيميائيين أيها الرجل ! الكبريت أصلح شىء لهذا الغرض ! أليس كذلك ؟

— أظن أن الكبريت هو الواجب الاستعمال فى هذه الحال .

— ليس ثمة خير منه .

— حسن . ليكن هذا عملك إذن . هذا حسن ، خذ أكثر ما تستطيع أخذه من الكبريت ، وملح البارود ليساعد على احتراقه . وإلى أين يرسل ؟ إلى تشيرنج كرس . افهم هذا ونفذه بدقة . هل تريد شيئاً آخر ؟

وفكر قليلا .

— والجبس — خذ أى نوع من الجبس — نسد به العش — والثقوب ، يحسن بى أن أحضر هذا بنفسى .

— ومقداره ؟

— مقدار ماذا ؟

— الكبريت

— طن . ألا ترى ؟

وثبت بنزنجتن منظاره على عينيه ويداه ترتجفان من قوة عزيمته ، ولم يزد على أن قال :

— حسن .

وسأله كوسار :

— وهل فى جيبك نقود ؟

— بئست التحاويل المصرفية . إنهم قد لا يعرفونك ، سأكتب : ادفعوا

نقداً . طبيعى . أين المصرف الذى تعامله ؟ حسن . انزل فى الطريق وخذ أربعين جنيهاً من أوراق العملة والذهب .

ثم ساد الصمت برهة قطعها كوسار بقوله :

— إننا إذا تركنا هذا الأمر للموظفين العموميين رأينا كنت كلها وقد مزقت شر ممزق . والآن هل بقى شىء ؟ كلا . فلأذهبن على الفور .

وأشار بيده الكبيرة إلى عربة أتاه سائقها على الفور ، وقال له :

— أتريد عربة ياسيدى ؟ فأجابه كوسار .

— بالطبع .

ونزل بنزنجتن الدرج وهو عارى الرأس ، وهمّ بالركوب .

ورفع عينيه فجأة ، وهو يضع يده على العربة ، إلى نوافذ مسكنه وقال :

— أظن ألا بد من أن أخبر ابنة عمى چين ؟

فأجابه كوسار وهو يدفعه من ظهره بيده الكبيرة :

— ستجد فسحة من الوقت تخبرها فيها بما تريد بعد عودتك . . .

ما أبرعكما أيها الأخوان ! ولكنكما تعوزكما القدرة على الابتكار . أتريد أن تتحدث إلى ابنة عمك چين ؟ إننى أعرفها جيداً . بئست هى وأمثالها ! إن البلد موبوء بهن ، إننا سنقضى الليلة كلها فى أن نخبرها هى وأمثالها عما يفعلنه ، فى حين أنهن يعرفن حق المعرفة مايجب عليهن أن يفعلنه . ولست أدرى هل الأبحاث هى التى أوصلت الرجلين إلى ما وصلا إليه ، أو أن الذى أدى بهما إلى هذه الحال هو ابنة العم چين ، أو أن هناك سبباً آخر .

وانصرف الرجل عن التفكير فى هذه المشكلة الغامضة ، وأخذ ينظر إلى ساعته ، وبدا له بعد شىء من التفكير أن لديه من الوقت ما يكفى للذهاب إلى مطعم ليتغدى فيه ، قبل أن يذهب لشراء الجبس وإرساله إلى تشيرنج كرس .

وتحرك القطار بعد الساعة السادسة بخمس دقائق ، وكان كوسار قد وصل إلى تشيرنج كرس قبل موعد قيامه بعشرين دقيقة ، ووجد هناك بنزنجتن فى

جدال عنيف مع سائق العربة ورجلين من رجال الشرطة خارج المحطة ، ووجد ردوود فى مخزن البضائع يحاول حل مشكلة فنية خاصة بذخيرة البنادق ، وكان كل من فى المكان من الموظفين يدّعون أنهم يجهلون كل شىء ، وأن ليس لهم من الأمر شىء ، وتلك هى الطريقة التى يتمسك بها موظفو شركة الطرق الحديدية الجنوبية الشرقية إذا ما رأوا إنساناً يسرع لإنجاز عمل ما .

ورآها كوسار على هذه الحال ، فقال وهو يتنهد من أعماق صدره :

— أشد ما آسف له أن الشركة لا تستطيع أن تعدم هؤلاء الموظفين رمياً بالرصاص ، وتستبدل بهم جميعاً غيرهم .

ولكن الوقت لم يكن يتسع للتفكير الجدى فى هذا ، فانتهت المنازعات الصغيرة القائمة بين صاحبيه وبين رجال الشرطة والموظفين ، وأخرج ناظر المحطة — أو من ظن أنه ناظر محطة — من مخبئه ، وسار به من مكان إلى مكان ، يصدر الأوامر إلى مرؤسيه باسمه ، واستطاع بذلك أن يركب القطار هو ومن معه وما معه ، وأن يغادر المحطة قبل أن يدرك ذلك الموظف الكبير ما ارتكبه من الجرائم بمخالفة أقدس النظم والقوانين التى يسير عليها العمل .

وقال ذلك الموظف الكبير ، وهو ممسك بذراعه التى كان كوسار يقبض عليها ، ويبتسم وهو مقطّب الوجه :

— من كان هذا الرجل ؟

فأجابه أحد الحمالين :

— هو أحد الأشراف ياسيدى . ومهما يكن من أمره فقد ركب هو وكل من معه فى الدرجة الأولى .

وقال الموظف الكبير وهو يمسح بيده على ذراعه فى شىء يشبه الرضا والاغتباط :

— أيا كان هذا الرجل فقد أسعفناه حتى ركب وأخذ معه ما كان يريد أخذه .

ثم سار الرجل على مهل وعيناه لا تقويان على مواجهة ضوء النهار الذى لم يتعوده ، وعاد إلى تلك العزلة المهيبة التى يلجأ إليها كبار الموظفين فى تشيرنج كرس لينجوا بها من لجاجة الجمهور ، وكان فى أثناء عودته يبتسم ويفخر بما أبداه من نشاط غير عادى . لقد كان شديد الاغتباط بما أظهر فى حضرة هذا الشريف من مقدرة وكفاية على الرغم من قبضته القوية على ذراعه ، وتمنى لو أن عمله هذا قد شاهده بعض أولئك السخفاء الذين لا ينفكون وهم فى مقاعدهم المريحة ينتقدون السكك الحديدية وإدارتها .

٤

ولم تحن الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم حتى كان كوسار ، ذلك الشخص الغريب ، قد أخرج من إرشت كل ما أعده لقتال الحيوانات الجبارة التى خرجت على سلطان قانون النمو ، وأرسله فى طريقه إلى هكليبراو . وكان مما اشتراه من إرشت نفسها برميلان من الزيت ومقدار من الوقود الجاف ، وجاء من لندن بمقادير موفورة من السكبريت ، وبثمانى بنادق صيد كبيرة مع ذخيرتها ، وثلاث بنادق صغرى ، وحاجتها من الرصاص الصغير لقتل الزنابير ، ومطرقة عادية ومطرقتين معقوفتى الطرف ، وفأس ، وثلاثة مجارف ، ولفتين من الحبال ، وبضع زجاجات من البيرة وماء الصودا والويسكى ، وكمية كبيرة من سم الفيران ، وما كولات باردة تكفيه هو ومن معه ثلاثة أيام . وأرسل هذه الأشياء كلها ، عدا البنادق وذخيرتها ، فى عربة من عربات الفحم وأخرى من عربات السكلأ المجفف كأحسن مايفعل رجل الأعمال . أما البنادق وذخيرتها فقد وضعها تحت المقاعد التى جلس عليها ردوود وخمسة الرجال المختارين الذين جاءوا من إيلنج تلبية لطلب كوسار .

وأعد كوسار ذلك كله من غير أن يبدو عليه شىء من الاضطراب

والقلق ، مع أن إرشت كلها كانت هائجة مضطربة على أثر ظهور الجرذان الضخمة فيها . وكان عليه أن يدفع لسائقى العربات التى أقلت رجاله ومتاعه أكثر مما يدفع لهم فى الأوقات العادية . ولقد وجد كل حوانيت القرية مغلقة ، وطرقاتها خالية من المارة تقريباً . وكان كلما دق أحد الأبواب فتحت له إحدى النوافذ . ويلوح أنه كان يعد الاتفاق مع الناس على أداء ما يحتاجه من الأعمال وهم فى نوافذ الدور من الأعمال المشروعة المألوفة . وأخيراً ركب هو وبنزنجتن عربة صغيرة خاصة ، ولحقا العربة التى تحمل بضاعتهما عند مفترق الطرق ، وسبقاها إلى هكليبراو .

وجلس بنزنجتن إلى جانب كوسار وبندقيته بين ركبتيه ، وغرق فى لجة من الدهشة والتفكير . لقد كان كل ما يفعله هو وزميله الشىء الواضح المألوف الذى لا غرابة فيه . . . ! ولكن الناس فى إنجلترا قلما يفعلون ما هو واضح ومألوف . وأخذ يتطلع إلى قدمى صديقه تارة ، وإلى يديه اللتين كانتا تمسكان زمام الجواد تارة أخرى . ويبدو أن كوسار لم يكن قد ساق عربة من قبل ، ومن أجل هذا كان يسير فى وسط الطريق وهو أسهل أجزائه فى نظر السائق ، وتلك خطة قد يراها بعض الناس طبيعية لا غبار عليها ، ولكنها من غير شك ليست هى الخطة المثلى التى تتبع فى العادة .

وقال بنزنجتن فى نفسه :

— لست أدرى لم لا نفعل كلنا ما هو واضح وطبيعى ؟ ولو فعلناه لكان السفر من أسهل الأمور وأكثرها متعة ! ولست أدرى مثلا لم لا أفعل كثيراً من الأشياء التى لا أشك فى أن فعلها هو عين الصواب — أى الأشياء التى أحب أن أفعلها ؟ فهل كل الناس على هذه الحال أو أن ذلك شأنى أنا وحدى ؟

ثم غاص فى لجة من التفكير الغامض عن الإرادة وحقيقة أمرها ، ففكر فيما فى الحياة اليومية من عبث وسخافات جعل منها الناس نظاماً معقداً غاية التعقيد ، وإلى جانب هذه السخافات أمور واضحة سهلة فى

وسع الناس أن يفعلوها ، وهى إلى ذلك أشياء حلوة يرتاحون إلى فعلها ، وعظيمة فى نفعها ، ولكن قوة لا يؤمنون بوجودها لا تسمح لهم بفعلها . وما شأن ابنة العم چين ؟ لقد كان لابنة العم چين شأن كبير فى هذا الموضوع ، شأن كبير ولكنه دقيق يعسر عليه إدراكه . ثم لم نأكل وننام ونبقى بلازواج ، ونذهب هنا ونمتنع عن الذهاب إلى هناك ، وكل ذلك احتراما لابنة العم چين ؟ لقد أصبحت چين فى فكره رمزاً ، وإن ظلت رمزاً لسر غامض لا يُفهم من أمره شئ !

ورأى بين الحقول طريقاً معبداً ، فأذكرته رؤيته ذلك اليوم ذا السماء الصافية ، والشمس الساطعة ، القريب العهد به ، البعيد فى هذه الساعة عن خاطره وعواطفه ، ذلك اليوم الذى سار فيه من إرشت إلى المزرعة التجريبية ليرى بعينيه فراخه الضخمة . . .

ألا ما أكثر ما تسخر بنا الأقدار .

وأيقظه كوسار من تأملاته .

وكان الوقت ظهراً ، والجو حاراً ، والريح ساكنة ، والطريق يعلوه العِثْير الكثيف ، ولم يكن فيه من المارة إلا عدد قليل . وكانت الغزلان ترعى الكلأ وراء أسوار البساتين باطمئنان وهدوء ، ورأى كوسار زنبورين كبيرين يأكلان أوراق فنن بالقرب من هكليبراو . كما رأى زنبوراً آخر يزحف على الأرض أمام حانوت البدال فى شارع القرية يريد الدخول فيه . وكان فى وسع المارة أن يروا البدال فى داخله ، يقبض بيده على بندقية صيد عتيقة ، ويرقب الزنبور فى وجل . ووقف سائق العربة الصغيرة فجأة فى خارج حانة چولى دوفرز ، وأبلغ ردوود أنه قد أوصله إلى المكان الذى تعاقد معه على أن يوصله إليه . وسرعان ما انضم إليه فى هذا النزاع سائقا المركبتين الأخريين ، ولم يكتفيا بالقول بل رفضا أن تسير خيلهما خطوة أخرى .

وظل أحد السائقين يكرر قوله :

— إن الجرذان الكبيرة ستؤذى الخيل .

ونظر كوسار إلى المتخاصمين لحظة ثم قال :

— أخرجوا كل ما فى هذه العربة الصغيرة .

وأسرع أحد أتباعه ، وهو مهندس طويل القامة أشقر اللون رث الهيئة لتنفيذ أمره .

وقال كوسار :

— هات هذه البندقية .

ثم وقف بين السائقين وقال :

— نحن لا نريد أن تسوقوا أنتم العربات . لكم أن تقولوا ما تشاءون ولكننا نريد هذه الخيل .

وبدأ السائقون يناقشونه ، ولكنه واصل حديثه قائلا :

— وإذا حاولتم أن تهاجمونا ، فسأدافع عن نفسى بإطلاق البنادق على أرجلكم ، وستظل الخيل سائرة فى طريقها .

ورأى أنه بهذا قد حل المشكلة ، وقال لواحد من رجاله ممتلئ الجسم قوى العضلات قصير القامة :

— اركب أنت يا فلاك فى هذه العربة ، وأنت يابون اركب تلك .

وأخذ السائقان يصرخان فى وجه ردوود ، فقال لهما :

— لقد قمتما بما يجب عليكما نحو صاحبى المركبتين . فابقيا فى هذه القرية حتى نعود ، ولن يلومكما أحد على هذا التصرف لأن معنا بنادق كما ترون ، ولسنا نريد أن نسئ إليكما أو نستخدم العنف معكما ، ولكن عملنا لا يحتمل التأخير ، وإذا حدث للخيل سوء فسأعوض أصحابها عنها ، فلا تخشيا شيئاً .

وأمن كوسار على ذلك ، مع أنه لم يكن من عادته أن يعد أحداً شيئاً .

وترك الجماعة العربة الصغيرة خلفهم ، وسار من لم يكونوا يسوقون المركبات راجلين ، وعلى كتف كل منهم بندقيته ، فكانت حملة غريبة قلما شاهدت الطرق الإنجليزية مثلها ، بل كانت أشبه بجماعة من المستعمرين الأمريكيين تسير متجهة إلى غرب القارة فى الأيام الماضية الهنيئة أيام مطاردة الهنود .

وواصلوا سيرهم فى الطريق حتى كانوا على قمة التل ، وأشرفوا على المزرعة التجريبية ، ورأوا على مقربة منها عدداً قليلا من الناس معهم بنـدقية أو ما يشبهها ، بينهم فلشر الكبير وولده ورجل آخر غريب من ميدستون كان واقفاً أمامهم يراقب المزرعة بمنظار مكبر .

والتفت هؤلاء خلفهم ، وأخـذوا ينظرون إلى ردوود ومن معه . وسألهم كوسار :

— هل من جديد ؟

فأجاب فلشر الكبير :

— إن الزنابير لا تفتأ تغدو وتروح ، ولا أراها تحمل شيئا .

وقال صاحب المنظار :

— وقد زحف النبات المتسلق فى هذه الساعة بين أشجار الصنوبر ، ولم يكن هناك فى الصباح ، وفى وسعك أن تشاهد نموه إذا راقبته زمناً يسيراً .

ثم أخرج من جيبه منديلا ومسح به منظاره بدقة وعناية .

وقال اسكلمرزديل :

— أظنكم ذاهبين إلى هناك .

فأجابه كوسار :

— وهل تصحبنا ؟

وبدا على اسكلمرزديل شئ من التردد ، وواصل كوسار حديثه قائلا :

— وسيشغلنا عملنا هناك طول الليل .

وقرر اسكلمرزديل ألا يذهب معهم .

وسأل كوسار :

— وهل رأيتم هناك جرذاناً ؟

— لقد رأينا واحدا منها فى هذا الصباح ، وأظن أنه كان يصيد الأرانب .

وتابع كوسار سيره ليلحق برفاقه .

وشاهد بترنجتن المزرعة التجريبية أمامه ، فاستطاع أن يدرك قوة طعامه الجديد ؛ ورأى البيت فبدا له لأول وهلة أصغر كثيراً مما كان يظنه ، ثم رأى أن كل ما بينه وبين أشجار الصنوبر من نبات قد زاد طوله وحجمه ، وأن الكلأ حول البئر قد طال حتى بلغ نحو ثمانى أقدام ، وغطى سقف البناء القائم عليها ، والتف النبات المتسلق حول مدخنة الدار ، وامتدت أظافره القوية نحو السماء . وكانت أزهاره الصفر ترى فرادى واضحة على بعد ميل كامل ، ورأى حبلا أخضر عظيما ملتفاً حول الأسلاك المحيطة بحظيرة الدجاج الضخمة ، وقذف أوراقاً عريضة لصقت بشجرتين من أشجار الصنوبر . أما أشجار القراص فقد علت إلى نصف هذا الطول خلف مظلة العربة . وكلما قربوا من المزرعة النموذجية أوحى إليهم المنظر كله أنهم جماعة من الأقزام تغير على بيت لعرائس الأطفال تركه أصحابه فى ركن مهجور من حديقة كبيرة .

ورأوا الزنابير لا تنفك تدخل إلى عشها وتخرج منه ، ورأوا فوق قمة التل المجاور أجساماً سوداً تحوم فى الجو وراء أجمة الصنوبر ، وكان ينفرد من بينها من حين إلى حين واحد منها يندفع إلى أعلى بسرعة لا يكاد يتصورها العقل وراء طير يريد أن ينقض عليه . وكان طنينها يسمع على بعد نصف ميل أو أكثر من المزرعة التجريبية . واقترب منهم مرة أحد هذه المردة الصفر ، وظل برهة من الزمن يحوم حولهم ، وينظر إليهم بعينيه الكبيرتين ، ثم عاد أدراجه بعد أن أطلق عليه كوسار بندقيته ولم يصبه .

وحطت طائفة منها على عظام نخرة ملقاة فى أحد أركان الحقل عن يمين المزرعة ، ولعل هذه العظام كانت بقايا حمل جاءت به الجرذان من مزرعة هكستر . وجمحت الجياد حين اقتربت من هذه الكائنات ، ولم يكن أحد بين الجماعة ماهراً فى سوقها ، ولم يكن بد من أن يمسك رجل بكل حصان يقوده ؛ ويشجعه بصوته على المسير .

ولم يروا شيئاً من الجرذان حينما وصلوا إلى البيت ، وكان السكون شاملا لايقطعه إلا طنين الزنابير فى عشها ، يعلو وينخفض هوززززز ، هززززززز .

وقادوا الخيل إلى الفناء ، وأبصر أحد رجال كوسار باب البيت مفتوحاً وجزءه الأوسط كله متأكلا فدخله . ولم يشعر زملاؤه بغيابه أول الأمر لأنهم كانوا منهمكين فى نقل براميل الزيت ، وكان أول ما نبههم إلى غيبته طلقة بندقيته وأزيز رصاصته . وأعقبت ذلك طلقتان أخريان . ويظهر أن الرصاصة الأولى اخترقت إناء الكبريت ، وحطمت قطعة من خشبه وهى خارجة فامتلأ الهواء بغبار أصفر اللون . وكان ردوود قد احتفظ ببندقيته فى يده فأطلقها ساعتئذ على شىء سنجابى اللون قفز إلى جانبه ، وأبصر منه نصفه الخلفى بما فى ذلك ذيله الطويل ذو القشور وقدماه ، ثم أطلق عليه طلقة أخرى . ورأى بنزنجتن يلقى نفسه على الأرض حين اختفى الحيوان وراء ركن البيت .

وأمسك كل واحد من الجماعة بندقيته ، ومرت بهم دقائق ثلاث باعوا حياتهم فيها رخيصة ، وامتلأ فيها الهواء بأصوات الطلقات ، ونسى ردوود فى هذه الهيجاء أمر بنزنجتن فاندفع وراء الجرذان ، واصطدمت قدماه بكومة من الحجارة والبلاط والكلس وشظايا أخشاب متعفنة أطارتها رصاصة أحد زملائه واخترقت الجدار .

ثم رأى نفسه جالساً على الثرى ويداه وشفتاه ملوثتان بالدماء ، والسكون يخيم على المكان من حوله .

ثم سمع فجأة صوتاً من داخل الدار فصاح ردوود :

— من هنا ؟

وأجاب صاحب الصوت :

— من ينادينى ؟

ونادى صاحب الصوت مرة أخرى :

— هل أصبتموه أيها الشبان ؟

وعاد إلى ردوود شعوره بواجبه نحو صديقه فقال :

— هل أصيب مستر بترنجتن بسوء ؟

ولم يحسن من كان فى داخل الدار سماع تلك العبارة فقال :

— إننى لا ألوم أحداً إذا كنت قد أصبت بسوء .

وأيقن ردوود أنه قد أصاب بترنجتن حين أطلق الرصاص من بندقيته . وأنساه ذلك جروح وجهه فقام من فوره . ووجد بترنجتن جالساً على الأرض يدلك كتفه بيده . ونظر إليه بترنجتن من فوق منظاره وقال :

— لقد أصبتُهُ يا ردوود . لقد حاول أن يقفز فى وجهى ، وصدمنى فسقطت على الأرض ، لكننى أطلقت عليه طلقتين ، وما أشد ما آلمتنى كتفى من قوة الطلقة !

وظهر فى هذه الساعة رجل آخر عند الباب وقال :

— لقد أصبته أنا مرتين ، مرة فى صدره ، ومرة فى جنبه .

وظهر كوسار بين أجمة من أوراق النباتات الزاحفة الكبيرة وقال :

— وأين العربات ؟

وما كان أشد دهشة ردوود حين تبين أن أحداً من الجماعة لم يصب قط ، وأن المركبتين ابتعدتا عنهم نحو خمسين ياردة ، وأن الذى عطل سيرهما هو اشتباك عجلاتهما بالنبات النامى فى حديقة مطبخ المستر اسكنر . وحينئذ

وقفت الجياد، ورأوا برميل الكبريت فى منتصف الطريق بينهم وبين المركبتين تعلوه سحابة كثيفة من تراب الكبريت ، ولفت إلى ذلك نظر كوسار ، فسار نحوه . وصاح كوسار وهو يتبعه قائلا :

— هل رأى أحد ذلك الجرذ ؟ لقد أصبته مرة بين أضلاعه ومرة فى وجهه حين هم بالهجوم علىّ .

ثم انضم إليهما رجلان آخران وهما يحاولان تخليص العجلات المشتبكة وقال أحدهما :

— لقد قتلت ذلك الفأر .

وسأل كوسار :

— هل قتلوه ؟

— لقد وجده چم بيتس وراء السور ، وأصبته أنا وهو مقبل من وراء ركن الدار . . . وأصبته خلف كتفه . . .

ولما هدأت ثورتهم قليلا ذهب ردوود ليلقى نظرة على جثة ذلك الحيوان المشوّه ، فشاهد هذا الوحش ملقى على أحد جانبيه ، وجسمه منثن قليلا ، وأسنانه القارضة بارزة فوق فكه الأسفل ، فبدا رغم ضخامته هزيلا ، ورغم شراهته ضعيفاً . ولم يكن منظره وحشياً يقذف الرعب فى القلوب ، وكان مخلباه الأماميان أشبه بيدى إنسان مريض هزيل . وكان جسمه كله سليما إذا استثنينا ثقباً منتظماً ذا حافة محترقة على كلا جانبى عنقه . وفكر ردوود فى ذلك وقتاً ما ، ثم قال وهو يدير وجهه عنه :

— ما من شك فى أنه كان فى المكان فأران .

— نعم وقد هرب الفأر الذى أصابه كل من كان معى .

— ولست أشك فى أن رصاصتى هى . . .

وفى هذه اللحظة انثنت نحو عنقه أظفورة نبات زاحف فى أثناء بحثها العجيب عن شىء تتعلق به ، وهـــو العمل الذى تضطلع به أظافير

النبات المتسلق طول حياتها . فبادر من فوره إلى الابتعاد عن طريقها .

وسمع فى هذه الساعة عينها طنيناً خارجا من عش الزنابير البعيدة هو زززززز هو زووو .

٥

وكان من أثر هذه الحادثة أن زادت الجماعة يقظة ، وإن لم تُنقص يقظتها من توتر أعصابها .

وحملوا متاعهم إلى البيت الذى عبثت به الجرذان كثيراً بعد أن غادرته مسز اسكنر ، وعاد أربعة منهم بالجوادين إلى هكليبراو ، ثم جرُّوا الجرذ الميت إلى مكان تشرف عليه نوافذ البيت ، وعثروا وهم سائرون على طائفة من الديدان الضخمة فى الحفرة المجاورة ، ولكن هذه المخلوقات تفرقت لساعتها حينما أقبلوا عليها . غير أن كوسار أعمل فيها ساقيه الضخمتين ، واستطاع أن يفتك بعدد منها بحذائيه وكعب بندقيته ، وأخذ رجلان من الجماعة يعملان فى تقطيع سوق النبات الزاحف ، وهى أسطوانات ضخمة لا يقل طول قطرها عن قدمين ، نبتت بجوار البالوعة الخلفية . وبينما كان كوسار ينظم البيت ليجعله صالحاً لقضاء الليل كان بترنجتن وردوود وأحد الكهربائيين المساعدين يتجهون فى حذر شديد نحو حفيرة الدجاج يبحثون عن أوكار الجرذان .

وكانوا يسيرون بعيدين عن نبات القراص خشية أن تصيبهم أشواكه السامة التى لا يقل طولها عن بوصة كاملة ، ثم عثروا فجأة على فتحة كبيرة شبيهة بفم الكهف ، كانت أول ما كشفوا من أوكار الجرذان الضخمة . وكانت تنبعث منها رائحة نتنة ؛ وانضم أفراد الجماعة بعضهم إلى بعض .

ونظر ردوود إلى البناء الذى فوق البئر وقال :

— أرجو أن تخرج هذه الجرذان .

وقال بترنجتن لنفسه .

— وإذا لم تخرج .

فأجابه ردوود :

— إنها ستخرج .

ثم صمتوا قليلا .

وقال ردوود :

— وإذا دخلنا تلك الأوكار ، فلا بد لنا أن نستخدم فيها ضوءاً من نوع ما .

ثم ساروا فى طريق ضيق يكسوه الرمل الأبيض بين أشجار الصنوبر ، ثم وقفوا على مرأى من أوكار الزنابير .

وبدأت الشمس تختفى تحت الأفق الغربى ، وأخذت الزنابير تعود إلى أوكارها ، وسقطت أشعة الشمس الصفراء على أجنحتها ، فأحاطتها بهالة مستديرة متنقلة . ونظرت الجماعة إليها من بين الأشجار — لأن أفرادها لم يكلفوا أنفسهم مشقة السير إلى الأجمة — وأخذت ترقب هـذه الحشرات المهولة تسقط على الأرض ، تزحف فوقها قليلا ثم تختفى عن الأنظار . وقال ردوود :

— لن تمضى ساعات حتى تسكن هذه الحشرات . . . كأنى بنا قد عدنا إلى عبث الشباب .

وقال بنزنجتن :

— إننا لن نخطئ هذه الأوكار ، ولو كانت الليلة حالكة الظلام . . . وعلى ذكر الظلام أقول : هل فكرتم فى أمر الضوء ؟

فأجابه الكهربائى :

— سيكون البدر فى هذه الليلة كاملا . لقد رجعت إلى التقويم .

ثم رجعوا ليشاوروا كوسار فى الأمر .

وقال إنه لا بد لهم من نقل الكبريت وملح البارود والجبس فى داخل

الغابة بُعيد الغروب ، ولذلك أفرغوا شحنة العربة وحملوا الأكياس ؛ وبعد أن هدأت عاصفة الصخب التى لابد منها فى إصدار التعليمات الأولى ، لزموا كلهم الصمت التام فلم ينبسوا ببنت شفة . ولما سكن طنين الزنابير لم تكن تسمع فى الغابة كلها أصواتاً إلا وقع الأقدام ، وأنفاساً تتردد فى صدور الرجال المثقلين ، والأحمال التى تلقى على الأرض . واشتركوا كلهم فى هذا العمل ما عدا بترنجتن فقد كان لا يصلح له ، ولذلك وقف فى حجرة نوم اسكنر وزوجته ، وفى يده بندقيته ليرقب جثة الفأر الميت . وأما سائر أفراد الجماعة فكانوا يستريحون من حمل الأثقال من حين إلى حين ، وكان اثنان منهم يقفان بالتناوب عند أوكار الجرذان خلف أشجار القراص . وكانت أكمام الطّلع التى تحملها هذه النباتات قد نضجت ، فكان الرقيبان يسمعان انفجارها من حين إلى حين كأنه طلقات المسدسات ، وكانت حبوب اللقاح تنتشر حولهم كأنها الرصاص الصغير .

وجلس مستر بترنجتن عند نافذة الحجرة التى كان بها على كرسى سائد محشو بشعر الخيل ، عليه غطاء ظلت حجرة اسكنر وزوجته تزدان به عدة سنين . ووضع بندقيته التى لم يتعود حملها على أرض النافذة ، وأخذ يرقب بمنظاره الفأر الميت فى ضوء الشفق ، ويتلفت حوله فى تفكير غريب . وكانت الريح تحمل إليه رائحة الزيت من خارج الحجرة ، لأن إحدى القوارير كانت مثقوبة ، مختلطة بالرائحة الكريهة الخارجة من النبات المتسلق الهشيم .

فإذا أدار رأسه إلى داخل الدار هبت عليه روائح بقايا الخمر والجبن والتفاح الفاسد والأحذية القديمة تذكّره باسكنر وزوجته . ونظر إلى الحجرة المظلمة بعض الوقت . وكان الأثاث كله متناثراً ، ولعل أحد الجرذان قد عبث به وهو يبحث عن شىء يطعمه ؛ ولكنه شاهد سترة على مشجب قرب الباب ، وموسى قديمة ، وعدة أوراق قذرة ، وقطعة من الصابون جمدت لطول عهدها بعدم الاستعمال ، حتى أصبحت وكأنها قطعة مكعبة من الصخر . كانت هذه كلها

من نميزات شخصية اسكنر . ولاحت لعقل بنزنجتن فى هذه الساعة فكرة جديدة لم تلح له من قبل ، فقد بدا له الآن أن اسكنر قد قتله وأكله — أو أكل بعضه على الأقل — ذلك الوحش الملقى على الأرض فى الظلام .

فهل كان بنزنجتن وقتئذ يفكر فيما أدى إليه ذلك الكشف الكيميائى الذى بدا أول الأمر كشفاً عادياً لا ضرر منه ؟

ها هو ذا الآن فى إنجلترا الآمنة ، ولكنه يحدق به الخطر الشديد من كل جانب ، يجلس وحده ومعه بندقيته فى ضوء الشمس داخل بيت مهدم خال من جميع أسباب الراحة ، مرضوض الكتف من كعب بندقيته لا يدرى ما فعل الله به . . . !

وأدرك فى هذه اللحظة كيف تغير نظام الكون كله تغييراً شديداً . ألم يخرج من داره ليقوم بهذا العمل العجيب من غير أن يقول كلمة واحدة لابنة عمه جين ؟

ماذا عسى أن تظن به ؟

لقد حاول أن يصورها لنفسه ولكنه لم يستطع . وطرأ عليه فى هذه اللحظة إحساس غريب هو أنه قد فارقها أبد الدهر ، فلن يلقاها قط فى هذا العالم . وشعر بأنه خطا خطوة أوصلته إلى عالم كل ما فيه ضخم مارد جبار . وماذا عسى أن يكون مختبئاً فى هذه الظلال من مردة وجبابرة ؟ وأقبلت أطراف القراص حادة سوداء فى وسط خضرة الأفق الغربى الشاحبة ولونه الكهرمانى . لقد خشعت كل الأصوات . . . وأصبح السكون شاملا ، وعجب كيف لا يستطيع سماع صوت رفاقه عند ركن الدار ، وبدت الظلال فى داخل حظيرة العربة كأنها هوة سحيقة حالكة السواد .

بانج . . . بانج . . . بانج . . .

وتردد الصوت فى الفضاء ، وسمعت صرخة مدوية .

ثم ساد المكان سكون طويل .

بانج . . . وردد الفضاء الصدى من جديد .

وساد السكون مرة أخرى .

الحمدلله! لقد برز ردوود وكوسار من الظلام الصامت، وسمع ردوود ينادى:

— يا بنزنجتن ! يا بنزنجتن ! لقد أصبنا فأراً آخر .

— لقد أصاب كوسار فأراً آخر !

٦

ثم استراحت البعثة وتناول أفرادها شيئاً من الشراب ، وقبل الليل ، وتلألأت النجوم فى السماء ، وبدت من ناحية هانكى صفرة تنبئ بقرب طلوع القمر . وكانت الرقابة لا تزال قائمة عند أوكار الجرذان ، وإن كان الرقيبان قد انتقلا إلى سفح التل المشرف على الأوكار ؛ لاعتقادهما أن هذا المكان أصلح من المكان الأول لإطلاق النار ، وجلسا هناك فى الظل يكافحان رطوبة الجو بالشراب ؛ أما زملاؤهما فبقوا فى داخل المنزل ، وأخذ الرؤساء الثلاثة يتباحثون مع سائر رجال البعثة فيما هم مقدمون عليه أثناء الليل . وطلع القمر بعد الربع الأول من الليل ، ولما أضاء نوره التلال المجاورة سار الجماعة كلهم — عدا الحارسين المكلفين بمراقبة أوكار الجرذان — بعضهم وراء بعض يقودهم كوسار إلى أعشاش الزنابير .

وأقبلوا عليها فوجدوا هذا العمل الذى هم مقبلون عليه سهلا غاية فى السهولة ، لا فرق بينه وبين إتلاف أعشاش الزنابير العادية إلا فى طول المدة التى يستلزمها . نعم إن هذا العمل لم يكن يخلو من خطر على أرواحهم ، ولكن الخطر لم يعد دائرة التل الذى فيه الأعشاش . وملأ الجماعة الأعشاش بالكبريت وملح البارود ، وسدوا به جميع الثقوب ، ثم أوقدوا

فيها النار وولوا الأدبار مندفعين بغريزة حفظ الحياة ، ما عدا كوسار فقد ظل واقفاً فى مكانه . ولما وصلوا إلى ظلال الصنوبر ووجدوا أن كوسار لم يتبعهم ، وقفوا على بعد مائة ياردة من مكانهم الأول بالقرب من حفرة يستطيعون أن يتقوا فيها الزنابير إذا جاءت فى أثرهم . وتردد فى سكون الليل بياضه وسواده طنين ثقيل مختنق دام برهة قصيرة ، وعلا حتى أصبح زئيراً ثم هدأ ثم انعدم ، وساد السكون من جديد .

وقال بنزنجتن فى صوت لا يكاد يسمع :

— لعمرى لقد أنجزنا المهمة .

ووقفوا جميعاً منصتين . وبدا سفح التل فوق ظلال أشجار الصنوبر نيِّراً براقاً تلتمع فيه ثقوب الأعشاش المحشوة بالكبريت ، وشوهد كوسار يتحرك نحوها .

وقال كوسار :

— إلى هذا الحد . . .

وقبل أن يتم عبارته سمعت طلقة من ناحية البيت ، وعلى أثرها ساد السكون مرة أخرى .

وسأل بنزنجتن :

— ما هذا ؟

وقال أحد أفراد الجماعة :

— أظن أن أحد الجرذان قد أطلَّ برأسه .

وقال ردوود :

— لقد أذكرنى هذا الصوت بنادقنا التى تركناها حيث كنا بجانب الأكياس .

ثم ساد السكون .

وأخذوا كلهم يسيرون نحو سفح التل مرة أخرى .

وقال بنزنجتن :

— لست أشك فى أنها هى الجرذان .

وأجابه كوسار وهو يقرض أظافره بأسنانه :

— وماذا يمكن أن يكون غير هذا ؟

وسمعت طلقة أخرى .

وقال أحد الرجال :

— ها هى ذى طلقة ثانية .

وسمعت صرخة أخرى فجاءة أعقبتها طلقتان ، وعلت على إثرها صرخة قوية ، ثم ثلاث طلقات متتالية سريعة ، ثم صوت خشب يتحطم ، وكانت هذه الأصوات كلها واضحة سريعة الزوال فى سكون الليل البهيم . وتلت ذلك لحظة سادها بعض الاضطراب فى ناحية أوكار الجرذان . وسمع بعدها صراخ وعويل ، ووجد الجماعة أنفسهم يستحثون الخطا لإحضار بنادقهم .

وسمعت طلقتان أخريان .

ووجد بنزنجتن نفسه بين أشجار الصنوبر ، وبندقيته فى يده ، يجرى وراء عدد من الجرذان . ومن أعجب الأمور أن أهم ما كان يشغل باله فى هذه اللحظة هو رغبته فى أن تراه ابنة عمه چين . وكان حذاءاه يضربان الأرض وهو يخطو خطواته الواسعة ، وقد تلوى وجهه وانفرجت شفتاه عن أسنانه ، لأن هذا الانفراج كان يجعد أنفه ، ويمسك عليه منظاره . وكان يقبض بيده على مقدم بندقيته ، ويندفع بأقصى سرعته فى ضوء القمر المضطرب ؛ واصطدم بهم ، وقابلهم الرجل الذى فر من الجرذان بعد أن ألقى بندقيته .

واحتضنه كوسار بين ذراعيه وقال له :

— ما الذى حدث ؟

فأجابه الرجل :

— لقد خَرَجت كلها مرة واحدة .

— الجرذان ؟

— نعم ستة منها .

— وأين فلاك ؟

— على الأرض .

وسأل بترنجتن — وكان قد أقبل وهو يلهث دون أن يلتفت إليه أحد .

— ماذا يقول ؟

— هل سقط فلاك ؟

— سقط على الأرض .

— لقد خرجت بعضها فى إثر بعض .

— أى شىء ؟

— وهاجمتنا وأطلقت عليها أول الأمر طلقتين .

— وهل تركْتَ فلاك ؟

— وهاجمتنا .

وقال كوسار محتداً :

— قم بنا وأرنا أين فلاك . دلنا عليه .

وسارت الجماعة كلها ، وأخذ الذى فر من الجرذان يشرح لهم تفاصيل ما حدث ، وكانوا كلهم ملتفين حوله ما عدا كوسار الذى كان يسير أمامهم .

— وأين الجرذان ؟

— لعلها عادت إلى أوكارها . لقد رأيتها تجرى نحو أوكارها .

— ماذا تعنى بهذا ؟ هل جريت أنت وراءها ؟

— لقد اقتربنا من أوكارها ورأيناها تخرج منها كما قلت من قبل ، وحاولنا أن نحول بينها وبين دخولها فيها ، فأخذت تقفز قفز الأرانب ، فجرينا نحن وأطلقنا عليها الرصاص ، فهاج هائجها بعد الطلقة الأولى وهاجمتنا ، نعم هاجمتنا .

— وكم كان عددها ؟

— ستة أو سبعة .

وسار كوسار أمام الجماعة حتى وصل إلى أطراف أجمة الصنوبر ثم وقف . وقال أحدهم :

— هل تظن أن واحداً منها قد قتل فلاك ؟

— لقد رأيت واحداً منها يهجم عليه .

— وهل أطلقت الرصاص عليه ؟

— وكيف أستطيع ذلك ؟

والتفت إليهم كوسار وسأل .

— وهل كانت كل البنادق محشوة ؟

وأشار الرجل برأسه مؤكداً أنها كانت كذلك .

وقال أحدهم :

— لكن فلاك . . .

وقال آخر :

— هل تعنى أن فلاك . . . ؟

فرد عليه كوسار :

— إن الوقت لا يتسع لهذا الكلام كله .

ثم صاح وهو يقود الجماعة :

— يا فلاك !

وتقدموا كلهم نحو أوكار الجرذان ومن خلفهم الرجل الذى فر منها . واخترقوا فى سيرهم منابت الأعشاب الضخمة ، ومروا بجسم الفأر الثانى القتيل ، وكانوا يسيرون فرادى فى خط واحد ومتباعدين ، وقد أمسك كل واحد منهم ببندقيته ، وسدّدها أمامه ، وأخذوا يتفرسون فى كل ما حولهم فى ضوء القمر الساطع ، يبحثون عن جسم ملقى على الأرض . وسرعان

ما عثروا على بندقية الرجل الهارب . وصاح كوسار

— فلاك ! فلاك !

وقال الرجل الهارب :

— لقد أخذ يعدو بجانب القراص ثم سقط .

— أين ؟

— حول ذلك المكان .

— وأين سقط ؟

وتردد الرجل أولا ثم قادهم مسافة قليلة مخترقاً الظلال السود ، وعاد فالتفت إليهم التفاتة الرجل العارف وقال :

— أظنه سقط هنا .

— ولكنه ليس هنا الآن .

— أين بندقيته ؟

وصاح كوسار :

— لعن الله هذا العمل ! ماذا كانت عاقبة هذا كله ؟

ثم سار بضع خطوات نحو الظلال السود التى تخفى أوكار الجرذان وأخذ يرقبها ثم صاح ثانيا : إذا كانت الجرذان قد أدخلته فى أوكارها . . . !

ثم هدأت ثائرتهم قليلا ، وأخذ كل منهم يقذف صاحبه بقطع متفرقة من أفكاره ، والتمع منظارا بنزنجتن كأنهما قطعتان من الماس ، وهو يقلب الطرف من رجل إلى رجل ، وتغيرت وجوه القوم وهم ينظرون إلى القمر تارة وإلى الأرض تارة أخرى ، فكانت واضحة مشرقة ، ثم أصبحت غامضة لا يُسبر غورها . وكان كل واحد منهم يتكلم . ولكن أحداً منهم لم يتم عبارته . واختط كوسار لنفسه على حين غفلة خطة سريعة فى العمل ، وتبين من حركاته وأقواله أنه يريد مصابيح ، فأسرعوا كلهم ما عدا كوسار إلى البيت .

وسأله ردوود .

— هل تعتزم الدخول فى أوكار الجرذان ؟

فأجابه كوسار :

— من غير شك .

وكرر كوسار طلب المصابيح من العربات .

وأسرع بنزنجتن إلى إجابة طلبه ، فجرى فى الطريق المار بالبئر ، والتفت وراءه وهو يعدو ، فرأى شبح كوسار الضخم واقفاً مكانه كأنه يرقب أوكار الجرذان ويفكر فيما هو مقدم عليه . فلما رآه على هذه الحال وقف قليلا والتفت إليه وأدرك أنهم تركوه !

ولكن كوسار كان يسعه بطبيعة الحال أن يعنى بأمر نفسه .

ورأى بنزنجتن على حين غفلة شيئاً أفزعه فصرخ : ها . ولم تكد تمضى على صرخته لحظة واحدة حتى برزت ثلاثة جرذان من ظلال النبات الزاحف الملبَّد واتجهت نحو كوسار . ووقف كوسار نحو ثلاث ثوان لا يعلم من أمرها شيئاً ، ثم رآها فكان أنشط خلق الله أجمعين ، ولكنه لم يطلق عليها بندقيته ، ولعله لم يجد لديه وقتاً لتصويبها إليها أو للتفكير فى تصويبها ، ولاحت من بنزنجتن التفاتة إليه ، فرآه يتبع فأراً ثم يضربه بأسفل بندقيته على رأسه ، ورأى الوحش يقفز قفزة كبرى ويسقط على الأرض .

واندفع كوسار فوراً واختفى عن الأنظار بين الأعشاب ، ثم ظهر فجأة وهو يجرى وراء فأر آخر ويلوح ببندقيته فوق رأسه ؛ ووصلت صرخة خافتة إلى آذان بنزنجتن ، ثم أبصر الفأرين الآخرين يجريان من مكانين ، ويقصدان هدفاً واحداً ، وكوسار يريد أن يسبقهما إلى وكرهما .

وكان الحادث كله أشبه الأشياء بصور تتحرك على الشاشة . وكان صفاء الجو وضياء القمر يظهران هذه الكائنات الضخمة المقتتلة على غير حقيقتها . وكان كوسار يبدو أحياناً مارداً جباراً ، وأحياناً يختفى عن الأنظار ،

والجرذان تلوح أمام العين تقفز طوراً ، وطوراً تجرى مسرعة كأنها مركبات تسير على عجل . على أن هذا كله لم يلبث أكثر من نصف دقيقة ، ولم يره سوى بنزنجتن ، وكان فى وسعه أن يسمع رفاقه يعدون نحو البيت . وصرخ صرخة لم يتبين أحد معناها ، ثم عاد مسرعاً إلى كوسار فى الوقت الذى اختفت فيه الجرذان .

وأقبل عليه خارج الأوكار ، واستدل من توزيع الظلال المكونة لوجه كوسار على أنه هادئ غير مضطرب . وناداه كوسار :

— ما أعجلك عن قومك ؟ هل جئت بالمصابيح ؟ لقد عادت كلها الآن إلى أوكارها بعد أن حطمتُ عنق واحد منها وهو مار بجانبى . . . أتراه ؟ ها هو ذا ! وأشار إليه بأصبع نحيلة .

وغلبت الدهشة على بنزنجتن ، فما أحار جواباً . . .

وأبطأ الذين ذهبوا ليأتوا بالمصابيح ، وبدت فترة الانتظار كأنها الأبدية ، ثم ظهروا أخيراً . ظهر أول الأمر واحد منهم يلقى ضوءاً مستمراً يسبقه ضياء أصفر قوى ، ثم أخذ يبدو حيناً ويختفى حيناً آخر ، ثم تبعه رجلان آخران ، ثم ظهرت حولهم أشباح أخرى صغيرة وأصوات خافتة ، ثم ظلال كبيرة ، وكانت هذه الجماعة كأنها بقعة ملتهبة وسط ضياء القمر الفضى المنتشر فى جميع الأنحاء .

وسمعت أصوات تقول :

— فلاك ! فلاك !

وترددت فى الفضاء صيحة أخرى قائلة :

— لقد أغلق على نفسه باب العلية .

وكان كوسار كلما مرت عليه لحظة زاد غرابة ؛ فلقد أخرج من جيبه كميات كبيرة من القطن حشا بها أذنيه — وقد عجب بنزنجتن من فعله هذا أشد العجب — ثم وضع فى بندقيته كمية من البارود ، وهل كان فى وسع أحد غير كوسار أن

يفكر فى هذا ؟ وكان أعجب ما فى الأمر أن اختفى حذاءا كوسار الكبيران فى الوكر الأوسط من أوكار الجرذان ، فقد دخله وهو يزحف على أربع .

دخل كوسار الوكر على هذه الصورة ومعه بندقيتان يجرّ كلتيهما إلى جانبه وهى معلقة بخيط تحت ذقنه . وكان مساعده الذى يضع فيه أكبر ثقته رجلا صغير الجسم قاتم اللون تلوح على وجهه سيماء الجد . دخل هذا الرجل الوكر وراءه منحنياً وفى يده مصباح يرفعه فوق رأسه ، ورتب الأمور كلها ترتيباً محكماً معقولا كما ترتب أحلام المجانين . فأما القطن فيلوح أنه وضعه فى أذنيه كيلا تتأثرا بطلقات البنادق ، ومن أجل هذا وضعه مساعد كوسار أيضاً فى أذنيه . . . ذلك أمر لاشك فيه . وأما البنادق فقد أخذها معه ليطلقها بين عينى الجرذان إذا ما أبصر عينيها وهى متجهة برؤسها نحوه ، فهى فى هذه الحال تريد به السوء ، أما إذا كانت أذيالها نحوه ، فإنه لا يخشى أذاها . وإذ كان لا بد للجرذان إذا أقبلت عليه أن تجتاز فم الوكر الأسطوانى فإنه لا يمكن أن يخطئها . وكان كوسار واثقاً بأن هذه هى الخطة المثلى وإن كانت متعبة قليلا . ولما انحنى الزميل ليدخل الوكر رأى بترنجتن أن طرف لفة من الخيط ربط فى أسفل سترته . وكان الغرض المقصود من هذا الخيط أن يستخدم فى جر أجسام الجرذان إلى خارج الوكر إذا احتاج الأمر إلى ذلك .

ورأى بترنجتن أن الشىء الذى يمسكه بيده هو قبعة كوسار الحريرية .

كيف وصلت إليه ؟

ولكنها مهما يكن من أمرها ستذكره بصاحبها .

ووقف أمام كل من الوكرين المجاورين عدد قليل من الرجال ، وأمامهم مصباح على الأرض ورجل راكع على ركبتيه مسدد بندقيته صوب الفجوة المستديرة ، مستعد لإطلاقها إذا رأى شيئاً خارجاً منها .

ومضت ساعة كأنها الأبدية .

ثم سمعوا صوت طلقة كوسار الأولى كأنها فرقعة فى داخل منجم . . .

وحينئذ توترت أعصاب الرجال جميعهم وعضلاتهم ، وسمعت ثلاث طلقات أخرى . لقد حاولت الجرذان أن تهرب ، ولكنهم قتلوا منها اثنين آخرين ، ثم أعلن الرجل الذى كان ممسكا بكرة الخيط أن الخيط يسحب وصاح بنزنجتن :

— لقد قتل فأراً هناك ، وهو يريد الحبل .

وراقب بنزنجتن الخيط يزحف إلى داخل الوكر . وبدا للواقفين فى ضوء القمر كأنه أفعى تتلوى ؛ لأن الظلام أخفى اللفة عن الأعين . ثم سكن الخيط ، وساد السكون طويلا ، وأبصر بنزنجتن أعجب مخلوق فى الوجود يخرج من الوكر على مهل ، وتكشف هذا المخلوق الغريب عن المهندس الصغير خارج من الوكر بظهره ، وجاء على أثره نعلا كوساريشقان فى الأرض خدودين عميقين ، ثم لاح ظهره يسطع عليه نور المصباح .

ولم يبق بعد هذا إلا فأر واحد ، وقد انزوى هذا المخلوق البائس فى أعماق الوكر حتى دخله كوسار والمصباح مرة أخرى وقتله بنفسه . وبعد ذلك أخذ هذا الرجل السفاح يطوف حول حظائر الدجاج ليتأكد من أنها خلت من الجرذان .

ثم قال آخر الأمر لرفاقه وقد هالهم ما رأوا :

— لقد قضينا عليها جميعاً ، ولو لم أكن أبله لخلعت ملابسى إلى وسط جسمى . لقد كان هذا من أوجب الأشياء وأكثرها وضوحاً . انظر يابنزنجتن إلى أكمامى إنها تقطر ماء ، وانظر إلى جسمى إنه يتصبب عرقاً . ولن ينجينى من البرد إلا نصف قدح من الويسكى . لكن المرء لا يستطيع أن يفكر فى كل شىء . ومرت على بنزنجتن فى هذه الليلة العجيبة لحظات خال فيها أنه قدر له فى عالم الغيب أن يحيا حياة مفعمة بالمغامرات العجيبة ، وبدا له ذلك بنوع خاص ساعة من الزمان أو نحوها بعد أن شرب كمية من الويسكى القوى . ولما استراح قليلا همس فى أذن المهندس القذر الطويل الأشقر :

— لن اعود إلى شارع سلون أبداً .

— ألا تعود إليه ؟

فأجابه بنزنجتن وهو يهز رأسه هزة الرجل المنقبض الصدر :

— لا تخف .

وتطلب جر الجرذان السبعة الميتة إلى مكان كومة الوقود الذى جمع من نبات القراص جهداً جباراً ، غرق بنزنجتن على أثره فى لجة من العرق ، وأشار عليه كوسار أن يتناول شيئاً من الويسكى لينجو بذلك من البرد الذى لا بد أن يصيبه إذا لم يتناوله . لقد كان هذا فى رأيه هو الوسيلة الأكيدة لمقاومته . وتناول الرجال جميعاً عشاءهم ، كما يتناوله اللصوص ، فى مطبخ البيت وهم يبصرون فى ضوء القمر الساطع الجرذان الميتة وراء حظائر الدجاج الخارجية . وقضوا فى ذلك ثلاثين دقيقة نبههم كوسار بعدها إلى مابقى أمامهم من أعمال شاقة ، وقال لهم :

— إنكم تعرفون بطبيعة الحال أن عليكم أن تمحوا هذا المكان من الوجود ، وألا تتركوا منه أثراً . وليس فى هذا عيب . انظروا .

ثم دعاهم إلى أن يدمروا كل شىء ، فساروا من فورهم يحطمون كل شظية من الخشب فى البيت ، وجمعوا أكواماً من الخشب المحطم فى كل مكان نما فيه النبات نمواً غير مألوف ، وأنشأوا كومة كبيرة لتحرق عليها أجسام الجرذان ، وغمسوها فى الزيت .

ولم يسترح بنزنجتن دقيقة واحدة ، وبلغ نشاطه وجده غايتهما حوالى الساعة الثانية ، وكان إذا رفع فأسه ليحطم بها شيئاً يريد تحطيمه ابتعد عنه أشجع زملائه . ولم يهدأ قليلا إلا حين فقد منظاره ، وظل كذلك حتى وجده له بعض رفاقه فى جيب سترته الجانبى .

وكان رفاقه يمرون عليه غادين رائحين وهم مثله عابسون نشطون . وكان كوسار أطولهم قامة وأكثرهم نشاطاً !

واغتبط بنزنجتن أيما اغتباط بهذه الزمالة التى لا يعرف كنهها إلا الجنود فى الميدان ، والرفاق فى رحلة شاقة ، والتى لا يحس بها سكان المدن الوادعون . وبعد أن ألقى كوسار فأسه ، وبدأ يحمل الخشب على كتفه ، أخذ يغدو ويروح محييا رفاقه بقوله : « ما أكرمكم كلكم من رفاق ! » وظل يكدح زمناً طويلا بعد أن نقوست نفسه من التعب .

وأخيراً أعد كل شئ وشرعوا يثقبون براميل الزيت ، وبدأ يختفى من السماء ما كان باقياً فيها من نجوم قلائل ، وعلا القمر وبدت تباشير الصباح .

وقال كوسار وهو يغدو بين الجماعة ويروح :

— حرقوا كل شئ . حرقوا الأرض وما عليها . اتركوها جرداء عارية . هل ترون ما أفعل ؟

وأبصره بنزنجتن هزيلا مروعاً فى ضياء الفجر الشاحب ، يهرول بين الجماعة بارز الفك الأسفل ، وفى يده شعلة من الخشب الهش المتقد .

وجذب بعضهم بنزنجتن من ذراعه وهو يقول له :

— ابتعد عن هذا المكان .

وعلت فى سكون الفجر فجأة طقطقة الأخشاب المحترقة ، ولم تكن الطيور قد خرجت من أوكارها لتستقبل الصباح بتغريدها . وسرى فى أسفل الكومة لهب أحمر ضئيل ، استحال إلى لون أزرق حين مس الأرض ، ثم بدأ يعلو من ورقة إلى ورقة ويمتد من ساق إلى ساق ! ثم اختلط حسيس النار بطقطقة الأخشاب .

واختطف الرجال بنادقهم من أحد أركان حجرة اسكنر وزوجته ، وأسلموا سوقهم للريح ، وجاء كوسار من ورائهم يسير بخطاً ثقيلة .

ثم وقفوا ينظرون إلى المزرعة التجريبية . لقد أخذت تلتهمها النيران . وكان الدخان واللهب يتدافعان ، كما يتدافع الغوغاء المروَّعون من الأبواب والنوافذ ومن كل الشقوق والخروق فى الجدران والسقوف . وأثبت كوسار أنه خليق بأن يوثق به أعظم ثقة فى إشعال النار ، وخرج عمود عظيم من

الدخان الكثيف ذى ألسنة من اللهب الأحمر كالدم ، وشرر كالقصر ، يندفع إلى أعلى ، ثم يتشعب شعباً فى الفضاء ، وحجبت أعمدة الدخان وألسنة اللهب باشير الصباح وحمرة الأفق فى الشرق ، فمحت آية النهار ، وكأن الليل قد عاد فخيم على المكان . وأبصرها أهل هكليبراو كلهم فخرجوا بملابس النوم ليتعرفوا جلية الأمر .

وأخذ عمود الدخان خلف القرية يعلو ويتمايل ، وتضاءلت إلى جانبه التلال القريبة . ومن أمامه كان ثمانية من الأشباح السود ، هم الذين أحدثوا كل هذا الدمار والخراب ، يسيرون فى الطريق العام بين الحقول ، يقودهم كوسار فى حذر شديد ، وبنادقهم معلقة على أكتافهم .

والتفت بنزنجتن وراءه وأبصر ما أحدثه هو ورفاقه فى المزرعة ، فسمع فى خبيئة نفسه هاتفاً يناديه : « ماذا فعلت ؟ » ، وترددت أصداء هذا القول فى جوانب مخه المضطرب .

ثم ذكر قول لتمر : « لقد أضأت اليوم — ؟ لقد أضأت اليوم . . لقد أضأنا اليوم فى إنجلترا شمعة لن يطفئها أحد من بعدنا أبد الدهر . . . »

وارتسمت فى مخيلته صورة كوسار ، فأجل الرجل وأكبره وأكبر نفسه أن قد أمسك بقبعته ، وإن يكن هو باحثاً عظيماً ، وكوسار لا يعدو أن يكون من رجال العلوم التطبيقية .

وانتابت بنزنجتن فجأة رجفة عنيفة ، وأخذ يتثاءب ويتمنى لو أنه كان ملقى فوق سريره فى شقته الصغيرة المطلة على شارع سلون . ولم يفده شىء حتى التفكير فى ابنة العم جين .

وخيل إليه أن ساقيه حبال من قطن ، وأن قدميه قطع من رصاص ، وقال فى نفسه : « ترى هل يقدم لى أحد فنجاناً من القهوة فى هكليبراو ؟ » لقد قضاها ليلة نابغية لم يقض مثلها قط فى الثلاث والثلاثين سنة الأخيرة من عمره .

BRIGHT UNIVERSITY LIBRARY

٧

وبينما كان هؤلاء الثمانية المغامرون يقاتلون الجرذان حول المزرعة التجريبية ، كانت سيدة عجوز فى قرية تشيزنج آيبريت على بعد تسعة أميال من المزرعة ، ذات أنف عريض كبير ، تعالج عملا شاقاً فى ضوء شمعة خفاق ضئيل . كانت تمسك بإحدى يديها النحيلتين مفتاح علبة سردين ، وباليد الأخرى علبة فى داخلها هرقليوفوربيا اعتزمت أن تفتحها أو تموت . وظلت تعالج فتحها بلا ملل ، وتتأفف كلما أحست بالتعب ، وتسمع من خلال حاجز رقيق بكاء طفل كادلز .

وقالت مسز اسكنر :

— رحم الله هذا القلب الكسير !

ثم أخذت تعض شفتها بسنتها الوحيدة الباقية لها ، مظهرة عزمها على أن تفتح العلبة أو تموت .

وانفتحت العلبة فجأة وانطلقت منها كمية جديدة من طعام الآلهة ؛ لتنشر فى هذا العالم ما فيها من قوة النماء العظيم .

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
LIBRARY

الفصل الرابع

الأطفال الجبابرة

١

لن يكون اهتمامنا فى هذا الجزء من قصتنا موجهاً إلى النتائج الكثيره المطردة الزيادة التى أسفرت عنها أعمال بترنجتن وردوود وكوسار فى المزرعة التجريبية ، بل سنضرب صفحاً عن هذه النتائج إلى حين ، وحسبنا أن نذكر منها هنا أن قوة النماء العظيم فى النبات الطفيلى والضفادع والكلأ والعشب أخذت تنتشر حول هذا المركز المحترق الذى لم تقو النار على محو مافيه من قوة كامنة . وليس فى مقدورنا أن نفصل القول هنا فيما أصاب الدجاجتين الحزينتين اللتين بقيتا بعد موت صاحبتيهما ، وكيف قضتا حياتهما عقيمتين لم تبيضا ولم تفرخا . وإذا كان فى القراء من يحرص على معرفة هذه التفاصيل فليرجع إلى صحف تلك الأيام ، وإلى الملفات الضخمة والسجلات الحديثة . أما نحن فسنقصر كلامنا على مستر بترنجتن مصدر هـذا الاضطراب كله .

عاد بترنجتن إلى لندن فألفى نفسه رجلا عظيما ذائع الصيت ، قد تغير رأى الناس فيه بين عشية وضحاها ، وعرفوا كلهم حقيقة أمره . ولعل ابنة العم چين هى الأخرى عرفت كل شىء ، وعرف رجل الشارع كل شىء ، وعرفت الصحف كل شىء وأكثر من كل شىء . وكان توقع لقاء ابنة العم چين حادثاً رهيباً بطبيعة الحال ، فلما أن تم اللقاء لم يكن من الرهبة كما كان بترنجتن

يتوقع . فقد تبينت هـذه السيدة الصالحة أن سلطانها على الحقائق الواقعية ليس سلطاناً مطلقاً من جميع القيود . وما من شك فى أنها فكرت فى الأمر ورضيت أن تعد الطعام الجديد من طبيعة الأشياء .

ووقفت منه موقف المحايد المسلح فلم تكن راضية عنه قط ، ولـكنها لم تحرمه ؛ ولعل فرار بتزنجتن — وما من شك فى أنها عدت تغيبه عن الدار فراراً منها — قد أثر فى أعصابها ؛ وكان أشد ما يضايقه منها إصرارها على معالجته من برد لم يصب به ، ومن تعب زال عنه من عهد طويل ، وإرغامه على ارتداء ملابس داخلية من الصوف ، إذا أراد أن يلبسها انقلب بعضها إلى الداخل وبعضها إلى الخارج ، ولا تناسب قط من كان مثله مشتت العقل ببغضها بغضه لغشيان المجتمعات . وظل هذا الرجل بعد تلك الحوادث ردحاً من الزمن — وبقـدر ما تسمح به أوقاته — يعنى بتطور الأمور الخاصة بطعام الآلهة ، ذلك العامل الجديد ذى الأثر الـكبير فى تاريخ الإنسانية .

واختارت عقول الجماهير هذا الرجل — طبقاً لسنن الاختيار الغامضة التى تجرى عليها هذه العقول — وألقت عليه وحده تبعة اختراع الطعام العجيب ونشره . وأبت أن تسمع شيئاً عن ردود ، وتركت كوسار يتبع ميوله الطبيعية فلا يكاد الناس يذكرونه ؛ وقبل أن يدرك حقيقة ذلك التيار الجارف أصبح اسمه على كل لسان ، وأضحى لونه القرنفلى وصلع رأسه ومنظاراه الذهبيان ملـكا للأمة . وجاء الشبان المتحمسون ذوو الهيبة والوجاهة ومعهم آلات التصوير الـكبيرة الغالية ، وأقاموا فى مسكنه وقتاً ما ، وأطلقوا فيه الأنوار الوهاجة ، وملأوه بالدخان والأبخرة الـكثيفة أياما عدة ، ثم غادروه ليملأوا المجلات بصور بتزنجتن العجيبة ، مرتدياً سترته وحذاءه المخرق . وجاءه غير هؤلاء أشخاص من كل سن ولون ليقصوا عليه أنباء طعام البُدن — وكانت صحيفة « پنش » هى التى أطلقت عليه هـذا الاسم — ثم يعودوا فينشروا هذه الأقوال على أنها من أحاديثه وإملائه .

ووجد أحد المتظرفين فى هذا شيئاً آخر لم يفهمه ، فبذل كل ما يستطيع من جهد ليستعيض عن علمه به السخرية منه ، فأخذ يطوف النوادى ويحدث كل من استطاع أن يتحدث إليه قائلا :

— إن أولئك العلماء أبعد الناس عن روح الفكاهة . هذا حق لا مراء فيه . إن العلم يقتل فيهم هذه الروح .

واستحالت سخرية هذا الساخر من بتزنجتن طعناً وافتراء عليه . . .

وتطوعت إحدى الهيئات التى تتجر بإرسال المقطوعات من الصحف فبعثت إليه بمقال طويل عنه قطعته من مجلة مجهولة عنوانه « هول جديد » ، وعرضت عليه أن تبعث له مائة مقال من هـذا النوع مقابل جنيه واحد . وجاءته سيدتان جميلتان فى مقتبل العمر وشربتا معه الشاى غير عابئتين بغضب ابنة العم جين الصامت ، ثم أرسلتا إليه فيما بعد كتابى مولدهما ليوقع بإمضائه فيهما ، تذكاراً لهذه الزيارة . وسرعان ما أصبح من الأشياء المألوفة أن يرى اسمه فى الصحف مصحوباً بأغرب الآراء وأكثرها تناقضاً ، وأن يجد فى المجلات مقالا عنه وعن طعامه يكتبها قوم يدّعون أنهم من أقرب الناس إليه وألصقهم به ، وإن لم يكن قد سمع باسمهم مرة واحدة فى حياته . ولو أن الشهرة كانت محببة إليه وهو مغمور لأضحت لديه الآن مبغضة ذميمة .

ولم يكن الجمهور فى أول الأمر يضمر له شيئاً من البغض إذا استثنينا ذلك المستظرف بروديم ؛ ولعل هذه الجماهير لم تفترض قط أن الطعام الجديد قد يتسرب إلى العالم مرة أخرى ، ولعلها لم تفطن إلى أن العصبة الصغيرة من الأطفال الذين يربّون على هذا الطعام سيكبرون ويفوقون غيرهم فى الأجسام والعقول . وكان أحب شىء إلى الجماهير الصورة الساخرة الفكهة التى أخذت بعض الصحف ترسمها لكبار الساسة ، بعد أن عكفوا زمناً على تناول الطعام الجديد ، وللأموال المدخرة بعد أن عولجت بهذا الطعام ، وللزنابير الميتة التى فرت من النيران ، وللدجاجتين الباقيتين على قيد الحياة .

ولم تعن الجماهير بالتفكير فى غير هذه الأشياء إلا بعد أن بذلت جهود جبارة لإلفات نظرها إلى النتائج البعيدة الخطيرة ؛ وبقيت رغبتها فى العمل جد قليلة حتى بعد أن أدركت هذه النتائج . وأكثر ما يتردد على ألسنة الجماهير قولهم : « إن هناك شيئاً جديداً على الدوام . » ذلك أن عقل الجماهير مسمم يحب كل جديد حتى إنها لتسمع عن انشقاق الأرض فى غير دهشة كما تسمع عن انشقاق تفاحة ! وكل الذى يسمع منها إذا ما حدث ذلك هو قولها : « ولسنا نعرف ماذا عسى هم فاعلون بعد هذا . »

غير أن البلد لم يخل وقتئذ من شخص أو شخصين كانا كأنهما خارج دائرة الجماهير ، ينظران إلى الأشياء نظرة بعيدة ، ولم يخل كذلك من أقوام قليلين يخشون العواقب . وكان من هؤلاء مثلا الشاب كترهام ابن عم إيرل پيوتراستون ، وهو رجل يرجى له فى ميدان السياسة مستقبل عظيم . كتب هذا الشاب مقالا فى مجلة « القرن التاسع عشر وما بعده » يقترح فيه القضاء على هذا الطعام . وكان من هؤلاء أيضاً بترنجتن نفسه فى بعض حالاته .

وقال مرة لكوسار :

— لعلهم لا يدركون . . .

— أجل إنهم لا يدركون .

— وهل ندرك نحن ؟ إنى حين أفكر أحيانا فيما سيؤول إليه الأمر فى هذا الطفل المسكين ابن ردوود ، وفى أطفالك الثلاثة بطبيعة الحال . . . وقد يصل طولهم إلى أربعين قدماً ! أسائل نفسى : هل من واجبنا أن نستمر فيما نحن فيه ؟

فأجابه كوسار وقد تقلصت عضلاته ، وأخذ منه العجب كل مأخذ ، وعلا صوته علواً غير مألوف :

— أتسأل هل نستمر ؟ نعم ! ستستمر بطبيعة الحال ! ولم خلقت إذن ؟ هل خلقت لتتسكع فى الطرق بين أوقات الطعام ؟

وصرخ بأعلى صوته :

ـ أتقول نتائج خطيرة ؟ نعم ستكون له نتائج خطيرة بطبيعة الحال ، خطيرة جداً . هذا أمر واضح لا شك فيه . هذه هى الفرصة الوحيدة التى تحصل فيها على نتائج خطيرة . ثم تريد أن تضيع هذه الفرصة

ثم غلبه الغضب فعقد لسانه ، فلما حُلت عقدته قال بأعلى صوته :

— هذا خبث ومكر سيئ .

وكرر قوله :

— خبث ومكر سيئ .

وأخذ بترنحتن من ذلك الوقت يشتغل فى معمله ، تدفعه العاطفة أكثر مما تدفعه الحماسة ، ولم يكن يعرف هل يريد أن تكون لبحوثه نتائج خطيرة أو لا يريد ، فقد كان رجلا هادئ الطبع . لقد كان هذا الكشف عظيما — عظيما حقاً — ولكن . . . ولقد أصبح الآن يمتلك عدة أفدنة من الأرض القاحلة بالقرب من هكليبراو ابتاعها بنحو تسعين جنيهاً ثمناً للفدان ، ومرت عليه أوقات حسب فيها أن هذه الصفقه من أهم النتائج التى تسفر عنها الأبحاث الكيميائية . وكانت فى الحق من الصفقات التى لا يطمع فى أكثر منها الرجل المعتدل المطامع . ولا حاجة إلى القول بأن شهرته طبقت الآفاق — طبقت الآفاق إلى حد لا يطاق . لقد بلغت هذه الشهرة حقّا حداً لا يطاق .

ولكن البحث العلمى كان عادة له لا تفارقه . . .

وكانت تمرّ به أويقات — أويقات قصيرة نادرة — وخاصة حين يكون فى معمله — يجد فيها عوامل أخرى غير عادية ، وحجج كوسار نفسه ، تستحثه على مواصلة العمل . فقد كان هذا الرجل الصغير الجسم ذو المظارين الذهبيين والحذاءين المخرقين ، الجالس على مقعده وبيده ملقط أثقال موازينه ، كان هذا الرجل يتراءى له أحياناً وميض من ذلك الخيال المختبأ فى عالم الغيب ، فيشهد بعين بصيرته تفتّح تلك البذرة التى زُرعت فى تلافيف مخه ، يبصرها

فى السماء مستكنّة وراء صور الحاضر وحوادثه التافهة الحقيرة، ويرى مايخبئه المستقبل من كائنات ضخمة جبارة، كانت له غامضة غير محدودة، ولكنها فخمة وعظيمة كأنها قصر يلتمع فى أشعة الشمس البعيدة ... ثم لا تلبث هذه الصور الفخمة الرائعة أن تختفى عن عينه كأنها لم ترتسم فى مخيلته، فلا يعود يبصر شيئاً أمامه غير الخيالات التافهة الحقيرة، ومنحدرات التلال والظلام، ومايحتويه هذا العالم من أبعاد شاسعة، ومن برد ووحشية، وأشياء مروعة رهيبة.

٢

وبينما كانت هذه الأحداث المعقدة المضطربة التى أذاعت اسم المستر بتزنجتن تسير سيرها، ظهرت فى الميدان شخصية مجدة نشيطة، وتألق نجمها حتى خالها المستر بتزنجتن نفسه المسيطرة على مستقبل اختراعه الجديد، تلك هى شخصية الدكتور ونكلز الطبيب الشاب الواثق من نفسه، المقنع فى حديثه، الذى سبقت الإشارة إليه فى هذه القصة حين قلنا إنه هو الذى استعان به ردوود على إيصال الطعام لولده. ولم يكن ثمة شك فى أن المساحيق العجيبة التى أعطاه إياها ردوود قد أثارت اهتمام هذا الرجل وشغلت باله قبل أن يحدث من آثارها ما حدث. ولم تكد الزنابير الأولى تظهر فى سماء المزرعة التجريبية حتى كان هذا الرجل يفكر جدياً فى أمر هذا الطعام.

كان ونكلز الرجل الذى تؤهله عاداته وأخلاقه، ووسائل عمله ومظاهره، لأن «يرقى» إلى ذروة المجد. كان كبير الجسم، أبيض اللون، أزرق العينين قويهما، أبيض الشعر، متناسب المعارف، قوى عضلات الفم، حليق الشارب واللحية، معتدلا نشيط الجسم، سريع المشى، أنيق الملبس، يرتدى سترة سوداء طويلة، ورباط رقبة من حرير أسود، وسلسلة وأزراراً ذهبية خالية من الزخرف، وقبعة من الحرير يبدو فيها أجمل وأعقل من سائر الناس.

ولم يكن هذا الرجل أكبر أو اصغر سنًّا من أى رجل اكتمل نموه ؛ وأخذ بعد سورة الطعام الأولى يعنى بأمر هذا الطعام وبأمر بترنجتن وردوود عناية جعلت بترنجتن نفسه يعده مخترعه الأول ، على الرغم مما كانت تذيعه الصحف من الأخبار التى كانت تكذب هذا الزعم .

وحدث أن أشار بترنجتن مرة إلى ما قد ينجم عن انتشار الطعام من خطر جسيم ، فأجابه ونكلز بقوله :

— تلك كلها حوادث لا أهمية لها . إنها حوادث لا يعبأ بها . إن كشف الطعام هو كل شىء ، وإذ اما أتقن طعامنا هذا الإتقان المرجو ، وأحسن العمل به والإشراف عليه ، كان حقاً اختراعاً عظيماً يسفر عن نتائج غاية فى الخطر ... يجب ألا نغفل لحظة عن العناية به .. ويجب ألا تضعف سيطرتنا عليه كما ضعفت مرة من قبل و . . . يجب علينا ألا نتركه ساكنا مستقراً .

والحق أنه لم يكن يريد للطعام هذا السكون والاستقرار ، وكان من أجل ذلك يأتى إلى بترنجتن فى كل يوم تقريباً ، فإذا أطل هذا من النافذة رأى مركبته مقبلة من شارع سلون ، ولا تكاد تمضى إلا فترة قصيرة حتى يدخل الحجرة بحركة خفيفة قوية ، ثم يخترقها من أولها إلى آخرها ، ويضع فيها عدداً من الصحف ويدلى إلى بترنجتن بما لديه من المعلومات وما يبدو له من الملاحظات .

فكان يقول وهو يفرك يديه : « كيف يسير عملنا ؟ » ثم ينتقل من هذا إلى ما يتحدث به الناس عنه .

فيقول مثلا :

— ألا ترى أن كترهام كان يتحدث عن طعامنا الجديد فى جمعة رجال الدين ؟

فيجيبه بترنجتن قائلا :

— ما أخطر هذا الرجل ! إنه ابن عم رئيس الوزراء ، أليس كذلك ؟

فيقول ونكلز :

— نعم وهو شاب قدير ، جد قدير . إن آراءه خاطئة كما تعرف ، وهو من أشد الناس رجعية ، ولكنه جد قدير . ولا شك فى أنه يريد أن يتخذ طعامنا هذا وسيلة يصل بها إلى غاياته ، وأن يختط لنفسه فى ذلك خطة حازمة ، ويتحدث عن أننا نرى استخدامه فى المدارس الأولية .

— ومن قال إننا نقترح استخدامه فى المدارس الأولية ؟

— لقد أشرت أنا إلى شىء من هذا القبيل فى أحد الأيام الماضية ، قلته عرضاً بمناسبة حادث تافه فى مدرسة الفنون ، حين كنت أحاول أن أثبت لسامعىَّ أن الطعام الجديد ذو فائدة عظيمة ؛ وأنه لا خطر منه مطلقاً على الرغم من الحوادث الصغيرة الماضية ، وهى حوادث لا يمكن أن تتكرر مرة أخرى . . . وقلت إنه سيكون طعاما طيبا كما تعلمون ، ولكن كترهام حمل ألفاظى من المعانى ما لم أقصد منها .

— ماذا قلت فعلا ؟

— لم أقل شيئاً أكثر مما يعرفه الناس ، ولكنه كما ترى أخذ أقوالى على أنها أقوال جدية ، واتخذها وسيلة للهجوم علينا ، فقال إنه يكفينا إسرافاً وتبذيراً فى المدارس الأولية ، ثم أخذ يكرر القصص القديمة عن دروس البيان فى تلك المدارس ، ويقول إن أحداً لا يرغب مطلقاً أن يحرم أبناء الطبقات السفلى من أن يتعلموا التعليم الذى يلائم أحوالهم ، ولكن إطعامهم طعاماً من هذا النوع يقضى على ما بينهم وبين سائر الطبقات من تناسب . ثم يتوسع فى هذا الموضوع ويسائل ساخراً : وما الفائدة التى تعود علينا من جعل أبناء الفقراء يبلغون ستاً وثلاثين قدماً فى الطول ؟ وهو يعتقد حقاً أنهم سيبلغون ستا وثلاثين قدماً فى الطول

وأجابه بنزنجتن :

— وسيكونون كذلك حقاً إذا أطعمتهم طعامنا بانتظام ، ولكن أحداً لم يقل قط شيئاً . . .

— لقد قلتُ شيئاً . . .

— ولكن يا عزيزى ونكلز !

وقاطعه ونكلز متظاهراً بأنه يعرف كل شيء ويسخر من آراء بترنجتن الفجة :

— سيكونون كباراً بطبيعة الحال ، كباراً من غير شك ، ولكن اسمع ما يقول : هل يجعلهم ذلك أسعد حالا ؟ هذه هى المسألة التى يثيرها ، وهى مسألة غريبة ! أليس كذلك ؟ هل يجعلهم أصلح مما هم ؟ هل يصبحون أكثر احتراماً للسلطات الشرعية القائمة ؟ وهل هو من مصلحة الأطفال أنفسهم ؟ ألا ما أشد دهشتنا من عناية هذا الصنف بالعدالة وما يختص منها بتنظيم المستقبل ! وهو يقول إن نفقات إطعام الأطفال وكسوتهم حتى فى هذه الأيام أكثر مما يطيقه آباؤهم ، فإذا ما سمح لهذا الطعام أن ينتشر . . . فماذا تكون النتيجة ؟

فأنت ترى من هذا أنه يجعل مجرد الإشارة العابرة اقتراحاً إيجابياً . ثم يحسب ما تكلفه سراويل شاب طوله عشرون قدماً ، كأنه يعتقد حقاً أن . . . ويقول إنها تكلف عشرة جنيهات على أقل تقدير . ألا ما أعجب هذا الرجل . . . وما أشد جموده ! وهو يضيف إلى ذلك أن دافع الضرائب الشريف الذى يكافح من أجل عيشه هو الذى سيتحمل هذه النفقات آخر الأمر ، وأن من واجبنا ألا نغفل حقوق الآباء . . . إن الذى يقوله كله فى هذه الصحيفة وهو يملأ عمودين منها . ومن أقواله أن من حق كل أب أن ينشأ أطفاله بحيث لا يزيدون على حجمه هو . . .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى المقاعد المدرسية فيحسب ، حساب نفقات تكبير تلك المقاعد والقماطر التى تبهظ الآن كاهل مدارسنا . وماذا نجنى من هذا كله ؟ جماعة من الصعاليك الضخام الجياع ! ويختم مقاله بفقرة خطيرة كل الخطورة ، فيقول إنه حتى إذا أخفق هذا الاقتراح الغريب ، اقتراح إدخال هذا

الطعام فى المدارس — ولم يكن فى الحقيقة اقتراحاً بل كان مجرد إشارة عابرة أساء هو فهمها — فإن ذلك لا ينهى المسألة ، فطعامنا فى رأيه طعام عجيب يخيل إليه لغرابته أنه شر مستطير ، ويقول إنه لقلة عناية القائمين عليه قد انتشر من قبل انتشاراً واسعاً ، وقد يعود إلى الانتشار فى المستقبل ، وإنه إذا تناوله إنسان مرة تسمم به جسمه وأصبح لابد له من الاستمرار على تناوله (وقد رد عليه بزنجتن قائلا إن هذا صحيح) ، وهو يقترح تأليف جمعية وطنية للمحافظة على نسب الأشياء الصحيحة ؛ أليس هذا غريباً ؟ وقد استهوت هذه الفكرة عقول الناس .

— وماذا يريدون أن يفعلوا ؟

وهز ونكلز كتفيه وبسط يديه وقال :

— سيؤلفون جمعية ويحدثون لغطاً ، وسيطلبون أن يحرَّم صنع الطعام ، أو أن يمنع نشر العلم به على الأقل . ولقد كتبت أنا مقالا قصيراً قلت فيه إن رأى كترهام فى هذا الطعام مبالغ فيه كل المبالغة ، ولكن يلوح أن ذلك لم يحل دون انتشار هذا الرأى . ومن عجب أن يقف الناس من الطعام هذا الموقف الذى لا مبرر له ! ولقد أنشأت جمعية الاعتدال الأهلية فرعاً للاعتدال فى الماء .

ومسح بنزنجتن بيده على أنفه وغمغم بين أصابعه وقال :

— إن هذا اللغط كان متوقعاً بعد أن حدث ما حدث . ويبدو أن الموقف جد خطير .

وخطا ونكلز فى الحجرة بضع خطوات ، ووقف متردداً وقتاً ما ثم غادر الدار .

وكان ظاهراً من أقواله أن لديه سراً خطيراً يريد أن يفصح عنه ، وقد أشار إلى هذا السر إشارة غامضة فى زيارة مقبلة كان فيها ردوود وبنزنجتن مجتمعين معاً .

فقد قال لهما وهو يمسح إحدى يديه بالأخرى

— كيف تسير الأمور ؟

— إنا نعد تقريراً أو ما يشبه التقرير .

— أتكتبونه للجمعية الملكية ؟

— نعم .

وغمغم ونكلز غمغمة مَنْ لديه سر خطير واتجه نحو المصطلى وقال :

— تلك هى المسألة الهامة . هل ترون أن من واجبكم . . . ؟

— من واجبنا أن نفعل ماذا ؟

— هل من واجبكم أن تنشروا ؟

وقال ردوود :

— لسنا نعيش فى العصور الوسطى .

— أنا أعرف ذلك .

— تلك هى الطريقة العملية الصحيحة كما يقول كوسار ، وهو كما تعلم رجل حكيم أديب .

— هو كذلك فى معظم الأحوال دون شك ولكن — تلك حالة شاذة .

وقال ردوود :

— سنضع الأمر كله وضعاً صحيحاً أمام الجمعية الملكية .

وعاد ونكلز إلى هذا الموضوع نفسه فى زيارة أخرى .

— إن هذا كشف غير عادى من وجوه كثيرة .

فأجابه ردوود :

— إن هذا لا يهمنا .

— إنه من المعلومات التى يمكن أن يساء استخدامها إلى أبعد حد ، والتى قد تنشأ عنها أخطار عظيمة كما يقول كترهام .

وصمت ردوود ولم يحر جواباً .

— إن إهمالا قليلا كما تعلمون . . .

— إننا إذا أنشأنا لجنة من بعض الرجال الموثوق بهم للإشراف على صنع طعام البُدن . أقصد هرقليوفوربيا ؛ فقد يكون فى مقدورنا . . .

ثم سكت . ولم يشأ ردوود أن يظهر ان صاحبه يريد منه ومن زميله جواباً . . .

وأصبح ونكاز الحجة الذى يُرجع إليه فى سر طعام البُدن خارج بيت ردوود وبترنجتن ، وإن كانت معلوماته فى هذا الموضوع ضئيلة لاتشفى غليلا . وصار يذيع الرسائل فى الدفاع عنه ، ويكتب مذكرات ومقالات يشرح فيها طرق الانتفاع به . وكان يغشى اجتماعات الجمعيات العلمية والطبية ليتحدث عنه . وربط مصيره بمصير الطعام ، ونشر رسالة عنوانها « حقيقة طعام البُدن » قلل فيها من خطورة حادث هكليبراو حتى جعله من أتفه الأشياء ، وأعلن أن من السخف أن يقول قائل إن طعام البُدن سيطيل قامة الناس إلى سبع وثلاثين قدماً ، وأن ذلك «لاشك مبالغة» لا أساس لها . والحقيقة أنه سيزيد حجمهم بلا شك ، ولكن الأمر لا يعدو هذا . . .

ولم يكن يخفى على الصديقين ، بترنجتن وردوود ، أن ونكاز كان شديد الرغبة فى أن يساعدهما على صنع الطعام الجديد ، وأن يصحح تجارب الرسائل التى يكتبونها فى هذا الموضوع ، وأن يفعل كل شىء قد يؤدى إلى اشتراكه فى تفاصيل إعداد هذا الطعام . وكان لا يفتأ يقول لهما إنه يشعر بأن عملهما هذا عمل عظيم ، إونه يرجى منه نفع كبير على شريطة « أن يأخذوا حذرهم بطريقة ما » . وأخيراً صرح لهم فى يوم من الأيام أنه يريد أن يعرف كيف يُصنع الطعام .

وأجابه ردوود :

— لقد كنت أفكر فيما سألت .

فأبرقت أسارير ونكلز وقال :

— ثم ماذا ؟

فقال ردوود :

— إن هذا من المعلومات التى يمكن بسهولة أن يساء استخدامها .

وأجاب ونكلز :

— ولكنى لا أرى أن هذا ينطبق علىّ .

فرد عليه ردوود :

— إنه ينطبق عليك تمام الانطباق .

وفكر ونكلز فى هذا القول يوماً و يومين ثم جاء إلى ردوود وقال له إنه لا يرى من واجبه أن يطعم ابنه الصغير بمساحيق لا يعرف عنها شيئاً ، وإنه يرى أنه يتحمل بذلك تبعة عمل خطير لا يعرف كنهه ؛ وقد بعث هذا القول ردوود على التفكير .

وقال ونكلز وهو يحاول تغيير مجرى الحديث :

— إنكما تعرفان أن جمعية تحريم طعام البدن تدعى أن أعضاءها يبلغون الآن عدة آلاف .

ولقد أعدوا مشروع قانون ووضعوا أمرهم فى يد كترهام ، وقد قبل ذلك على الفور . وهم جادون فى عملهم ، آخذون فى تأليف اللجان للتأثير فى المرشحين لمجلس النواب ، وهم يريدون أن ينص القانون على عقاب من يصنع الطعام ويخزنه دون ترخيص خاص ، وأن يكون تقديم طعام البدن ، كما يسمونه ، لأى شخص دون الحادية والعشرين جناية يعاقب عليها بالسجن دون غيره من العقوبات . وهناك جمعيات أخرى من نوعها تضم أعضاء من مختلف الطوائف منها « جمعية المحافظة على أطوال الناس القديمة » ، وهى تريد أن تجعل مستر فردرك هرسن عضواً فى مجلس إدارتها . ولا أظنكما تجهلان أنه كتب مقالا فى هذا الموضوع قال فيه : إن هذا الطعام شىء حقير لا يتفق

مع وحى الإنسانية الوارد فى تعاليم أوجست كونت ، وإنه من نوع الأشياء التى لم يكن فى وسع علماء القرن الثامن عشر أن يصنعوها حتى فى أسوأ سنى ذلك العهد . وفكرة هذا الطعام لم تدر قط بخلد كونت ، وهذا وحده دليل قاطع على أنها فكرة خبيثة حقاً ، وكل من فهم كونت حق الفهم لا . . .

وازعج هذا القول ردوود فقال فى احتقار ظاهر لمحدثه :

— لست أظنك تريد أن تقول . . .

فأجابه ونكلز :

— إنهم لن يفعلوا هذا كله . ولكن الرأى العام هو الرأى العام ، وأصوات الناخبين هى أصوات الناخبين . وإن فى وسع كل مخلوق أن يرى أنكما مقدمان على أشياء لا بد أن تحدث اضطرابات خطيرة . والغرائز البشرية كما تعلمان تكره الاضطرابات . إن أحداً على ما يبدو لى لا يصدق ما يقوله كترهام عن الناس الذين يبلغون سبعاً وثلاثين قدماً فى الطول ، ولا يستطيعون الدخول من أبواب الكنائس أو أماكن المجتمعات أو المعاهد الإنسانية أو الاجتماعية . ولكن الناس مع ذلك تساورهم كثير من الشكوك ، وليسوا مطمئنين إلى المستقبل كل الاطمئنان ، وهم يعتقدون أن المستقبل سيتمخض عن شىء ، وبالأحرى عن كشف ، غير عادى .

وقال ردوود :

— إن فى كل كشف شيئاً غير عادى .

— ومهما يكن من شىء فان القلق آخذ فى الازدياد ، ولا يفتأ كترهام ينبه الناس إلى ماسوف يحدث إذا أفلت الطعام من أيدى صانعيه مرة أخرى ، ولطالما قلت لهم مراراً وتكراراً إنه لن يفلت من أيدينا ولا يمكن أن يفلت ، ولكن هذا هو الموقف !

ثم انتفض واقفاً فى الحجرة لحظة قصيرة كأنه يريد أن يتحدث مرة أخرى فى سر صنع الطعام . لكنه عدل عن ذلك بعد أن فكر فى الأمر وغادر المكان .

ونظر العالمان أحدهما إلى الآخر وظلت أعينهما وحدها فترة من الوقت هى التى تتحدث .

وأخيراً قطع ردوود هذا الصمت وقال بصوت هادئ قوى :

— إذا تأزمت الأمور فسأقدم الطعام بنفسى إلى ولدى تدى الصغير .

٣

وبعد بضعة أيام من هذا اللقاء فتح ردوود صحيفته فوجد أن رئيس الوزراء وعد بتأليف لجنة ملكية لبحث مشكلة طعام البدن ، ولم يكد يطلع على هذا النبأ حتى خرج من فوره والصحيفة فى يده وذهب إلى مسكن بترنجتن .

— إنى أعتقد أن ونكلز يعمل للاضرار بقضية الطعام . ألا تراه قد لقى بنفسه فى أحضان كترهام ، وظل يتحدث عن الطعام وعن مستقبله حتى أثار مخاوف الناس منه ، وإذا تُرك له الحبل على الغارب فسيكون عقبة فى سبيل أبحاثنا ، بل إنه حتى فى هذا الوقت قد أوجد لى شيئاً من القلق بسبب علاقته بولدى الصغير . . .

وقال بترنجتن إنه يرجو ألا يسبب لهما ونكلز شيئاً من المتاعب .

فرد عليه ردوود بقوله :

— ألا ترى كيف أصبح من عادته أن يسميه طعام البدن ؟

وقال بترنجتن وهو ينظر إليه من فوق منظاره :

— إنى لا أحب هذا الاسم .

— ولكن ونكلز لا يراه إلا كذلك .

— ولماذا لا ينقطع عن الحديث عنه ؟ إنه ليس طعامه !

فقال ردوود :

— وكلما تحدث عنه سماه طعام البدن .

— إن فى المسألة سراً لا أفهمه ، وإذا لم يكن له شأن به فلمَ أصبح الناس كلهم يعتقدون أنه هو صاحبه ؟ ولست أقول هذا لأنه يهمنى كثيراً .

وقال بنزنجتن :

— إذا ما أصبح هذا الهياج السخيف القائم على الجهل أمراً خطيراً . . .

فقاطعه ردوود قائلا :

— إن ابنى الصغير لا يستطيع العيش بغير هذا الطعام ، ولست أدرى ماذا أفعل الآن . وإذا ما تأزمت الأمور . . .

وسمعا وقع أقدام رأيا على أثره ونكلز مقبلا ، ثم ما لبثا أن أبصراه فى وسط الحجرة يمسح إحدى يديه بالأخرى .

وألقى عليه بنزنجتن نظرة غاضبة من فوق حافة منظاره وقال له :

— أحب أن تستأذن قبل الدخول .

واعتذر ونكلز ، ثم التفت إلى ردوود وقال له :

— يسرنى أن وجدتك هنا ، والحق أن . . .

فقاطعه ردوود بقوله :

— هل بحثت موضوع اللجنة الملكية ؟

فقال ونكلز مضطرباً :

— نعم ! نعم !

— وما رأيك فيها ؟

فاجاب ونكلز :

— فكرة صائبة جداً . وما من شك فى أنها ستقضى على معظم هذا الضجيج وتهدئ الثورة القائمة ، وتسكت كترهام ؛ ولكن ليس هذا هو الذى جئت من أجله يا ردوود والحق أن . . .

وقاطعه بنزنجتن مرة أخرى .

— لست أحب هذه اللجنة الملكية .

— أؤكد لك أن المسألة ستنتهى على أحسن وجه ، وفى وسعى أن أقول — ولست أظن أن فى هذا إفشاء للسر — إننى قد أكون من أعضاء هذه اللجنة . . .

وغمغم ردوود وهو ينظر إلى نار الموقد :

— وإذن يكون فى وسعى أن أصلح الأمر كله فأثبت لهم بالدليل القاطع أن السيطرة على الطعام أمر مستطاع ، وأن الكارثة التى حدثت فى هكليبراو لا يمكن أن تتكرر إلا إذا حدثت معجزة من المعجزات . وهذا بالضبط هو ما يحتاجونه ، إنهم لا يحتاجون إلا إلى تصريح حازم من شخص مسئول ، وفى وسعى بطبيعة الحال أن أتكلم وأنا أعظم ثقة مما أنا الآن إذا عرفت . . . وهذه مسألة عرضية غير مقصودة بالذات ، وهناك مسألة أخرى صغيرة أريد أن أستشيركما فيها — إن الواقع أن — نعم — إن أمامى الآن مشكلة صغيرة فى وسعكما ان تساعدانى على الخروج منها .

ورفع ردوود حاجبيه وبدا عليه السرور .

— إن المسألة . . . سرية جداً .

فصاح ردوود :

— قل ولا تخش شيئاً .

— لقد عهد إلىّ من وقت قريب بطفل ينتمى إلى شخصية عظيمة .

وسعل ونكلز .

وقال ردوود :

— لقد وصلت الآن إلى أهم النقط .

— ولا يسعنى إلا أن أقر أن الفضل الأكبر عائد لطعامكما — وإلى النجاح الذى أصبته فى طعام طفلك — ولست أخفى عنكما أن ثمة شعوراً قوياً مقاوماً لاستعماله . ولكنى أجد بين من يتمتعون بنصيب أوفر من الذكاء . . . وأنتما

تعلمان أن من واجب الإنسان أن يكون هادئاً حذراً فى مثل هذه الأمور — وأن يسير على مهل . ومع هذا فانى فى حالة صاحبة المجد — أقصد المريضة الجديدة التى أعالجها — أريد أن أقول إن الاقتراح قد جاء من جانب أبيها وإلا لما رضيت مطلقاً . . .

وأدرك ردوود أنه مرتبك فقال له :

— كنت أظن أنك لا تستصوب استعمال هذه المساحيق .

— لقد كانت هذه فكرة عارضة لم تلبث أن زالت

— ولست تفكر الآن فى الامتناع عن . . .

— فيما يختص بطفلك على الأقل لا أريد أن أمتنع مطلقا .

— مبلغ علمى أن الامتناع عن إطعامه لا بد أن يقضى على حياته .

— ولن أفعل هذا ولو أعطيت ملك هذا العالم .

وقال ردوود :

— وسنعطيك المساحيق .

— وأظن أنكما لا تستطيعان . . .

فأجابه ردوود :

— لاتخف . ليست هناك مذكرات تصف تركيبه . فلا تحاول يا ونكلز ، وأرجو ألا تغضبك صراحتى ، سأصنع لك المساحيق بنفسى .

فنظر ونكلز إلى ردوود بملء عينيه برهة وجيزة ثم قال :

— هذا وذاك لدى سواء . إنهما لدى سواء .

ثم أضاف إلى ذلك قوله :

— أؤكد لكما أنى لا يهمنى قط . . .

٤

ولما خرج ونكلز جاء بتزنجتن ووقف على بساط الموقد ونظر إلى ردوود وقال :

— صاحبة المجد !

وقال ردوود مندهشاً :

— صاحبة المجد !

— إنها أميرة ويزر دريبرج .

— ليست أكثر من قريبة بعيدة .

وقال بتزنجتن :

— اسمح لى يا ردوود أن أسألك — وإن يكن هذا السؤال غريباً من غير شك — هل تظن أن ونكلز يفهم ؟

— يفهم ماذا ؟

— يفهم حقيقة هذا الذى صنعنا .

ثم واصل حديثه بعد أن خفض صوته وصوب ناظريه نحو باب المسكن :

— هل يفهم حقيقة أن من أسرة — أسرة مريضته الجديدة . . .

وقال ردوود :

— قل .

— من كانوا على الدوام دون ...

— المتوسط ؟

— نعم . وها هو ذا يعمل دون أن يشعر به أحد على إيجاد شخصية ملكية — شخصية ملكية ضخمة الجسم — لست أخفى عنك يا ردوود أن فيما يفعله هذا الرجل شيئاً يكاد يقرب من الخيانة . . .

ثم حول نظره عن الباب إلى ردوود .

وانتفض ردوود قائماً واتجه نحو النار وهو يشير بسبابته وقال :

— أقسم أنه لا يعرف !

ثم قال :

— إن هذا الرجل جاهل كل الجهل ، ولقد كانت هذه هى الصفة التى تضايقنا منه وهو طالب ، إنه لم يكن يعرف شيئاً ، ولكن ذلك لم يحل دون نجاحه . فلقد اجتاز الامتحانات جميعها ، لأنه حفظ ما يراد منه عن ظهر قلب ، وكان يحمل من العلم بقدر ما يحمل رفٌ دوار وضعت عليه دائرة معارف جريدة التيمز . وهو الآن لا يعرف شيئاً . فهو هو ونكاز كما كان ، عاجز كل العجز على أن يهضم شيئاً لا يتصل اتصالا قريباً بشخصه الضئيل ، وهو رجل مجدب الخيال ، لا يستطيع لذلك أن يتصور شيئاً . وليس فى الناس من يستطيع أن يجتاز كل هذه الامتحانات ، وأن يكون مثله أنيقاً فى ملبسه ، حسناً فى مظهره ، ناجحاً فى مهنته ، إلا إذا كان متصفاً بما يتصف به هذا الرجل من عجز عن الفهم . تلك هى الحقيقة . ومع هذا كله فهو يجىء إلينا ، ونستمع منه ، ونتحدث إليه ، وها هو ذا ، هاهو ذا لا يعرف ماذا يفعل ، لقد عهدنا إليه بطفل وهو يطعمه طعام البدن ، وقد اتصل بطريق ما بطفلة من سلالة ملكية وذلك أشد خطراً من كل شىء . ولم يخطر ببال هذا الرجل أن ويزر دريبرج ستشهد بعد قليل أميرة يبلغ طول قامتها أكثر من ثلاثين قدماً . لم تخطر هذه المشكلة بباله ولا يمكن أن تخطر بباله !

فاجابه بنزنجتن :

— وسيحدث هذا ضجة عظيمة .

— بعد عام أو نحوه .

— حين يدركون حقيقة أنها تنمو نمواً مستمراً !

— إلا إذا أخفوا الأمر كعادتهم .

— إنه أكبر من أن يخفى .
— أحق هذا ؟
— ولست أدرى ماذا هم فاعلون ؟
— إنهم لا يفعلون شيئاً قط ـ تلك عادة الملوك .
— ولكنهم لا بد أن يفعلوا شيئاً .
— قد تفعل هى شيئاً .
— رباه ! إنها قد تفعل .
— ولكنهم سيمنعونها . لقد حدثت أشياء من هذا القبيل .
وضحك ردوود بأعلى صوته ضحك اليأس وقال :
— إن هذه الطفلة الملكية البدينة ، هذه الطفلة المقنعة بقناع حديدى ، ستوضع فى أكبر برج من أبراج قلعة ويزر دريبرج القديمة ، وسيخرقون لها سقفها كلما كبرت سقفاً بعد سقف ! . . . ولست أنا بمنجاة من هذه المشكلة . وثمة أيضاً كوسار وأولاده الثلاثة ، ثم . . . حسن . حسن .
وكرر بتزمجتن قوله دون أن يشترك فى الضحك مع ردوود .
— سيحدث هذا ضجة عظيمة ، ضجة عظيمة حقاً .
ثم واصل حديثه قائلا :
— أظنك يا رودوود قد بحثت الأمر من جميع وجوهه . ألا ترى من الصواب أن تحذر ونكلز من عاقبة عمله ، وأن تفعلم ولدك الصغير شيئاً فشيئاً ، ثم تكتفى بنجاحنا النظرى دون العملى ؟
وقال ردوود وقد بدا فى صوته الغضب :
— ليتك أيها الزميل تمضى نصف ساعة فى حجرة طفلى حين يبطئ عليه الطعام قليلا . ولست أظنك حينئذ تقول مثل هذا القول . هذا إلى أن . . . ثم تصور ما سيحدث إذا حذرت ونكلز ! . . . لا ! إن هذا السيل

جرفنا أمامه ونحن على غرة ، وسواء علينا أخشينا عاقبته أم لم نخشها ، فليس علينا إلا أن نخوض غماره !

ونظر بتزنجتن إلى أصابع قدميه وقال :

— أظن أن لا مفر لنا من هذا . نعم إن علينا أن نخوض غماره ، وعلى ولدى أن يخوضه هو وأطفال كوسار ، فلقد أطعمه ثلاثتهم بعد أن رأى أنه إما أن يطعمهم جميعاً أو لا يطعم أحداً منهم ، وصاحبة المجد — وكل شيء ، وها نحن أولاء نواصل صنع الطعام ويصنعه أيضاً كوسار ، ولم تخط الآن يا ردوود إلا الخطوة الأولى فى المرحلة البدائية ، وما من شك فى أن أحداثاً كثيرة ستعقب هذه الخطوة الأولى ، أحداثاً عظيمة خطيرة ، ولست مستطيعاً يا ردوود أن أتصورها إلا أنى . . .

ثم أطرق ملياً ونظر إلى أظافر يديه ، ثم رفع عينيه إلى ردوود ، ونظر إليه من خلال منظاره نظرة فيها شيء من الرقة والدعة وقال أخيراً :

— أكاد أعتقد أن كترهام على حق — أحياناً — إن هذا الطعام سيقضى على توازن الأشياء . إنه سيقلقل — وأى شيء لن يقلقله ؟

وقال ردوود :

— فليكن ما يكون ، ولكن طفلى سيظل يأكل الطعام .

ثم سمعا صوت إنسان يصعد السلم بخطى ثقيلة سريعة ، ومالبثا أن رأيا كوسار داخل المسكن . فلما وقعت عينه عليهما ورأى القلق بادياً فى وجهيهما قال :

— هأنذا ! ماذا تقولان ؟

وحدثاه عن النبيلة فقال :

— أتعدان هذه مشكلة ؟ إنها من أسهل الأمور ، إن الأميرة ستنمو وسينمو طفلك ، وسينمو كل شيء تقدمونه إليه كما ينمو أى شيء . وأى صعوبة فى هذا ؟ إن الأمر هين بين ، وفى وسع أصغر طفل أن يقول لكما هذا . وأى شيء يقلق بالكما ؟

وأرادا أن يشرحا له الأمر ولكنه صاح فيهما قائلا :

— أتقولان إنكما تفكران فى الانقطاع عن العمل ؟ ولكن إن زمام الأمر أفلت الآن من أيديكما ، فكأنكما قد خُلقتما له وخلق له ونكلز أيضاً . لاتخشيا شيئاً ، وكثيراً ماحيرنى أمر ونكلز ولم أعلم ما خلق له . . . أما الآن فقد وضح الأمر فهو قد خلق لهذا العمل . وماذا يقلق بالكما ؟

أظنه الاضطراب . نعم هو ذلك من غير شك . أهو قلقلة الأشياء ؟ فليتقلقل كل شىء ولتضطرب شئون البشر كلها . هذا أمر واضح لا يخفى على إنسان ، وسيحاولون أن يقفوا فى سبيله ، ولكنهم لن يفلحوا . لقد جاءوا بعد فوات الفرصة شأنهم فى كل أمر من الأمور . فلتمضيا فى سبيلكما ولتصنعا منه قدر ما تستطيعان ، وأشكر الله الذى أخرج على أيديكما خيراً !

وقال بنزنجتن :

— ولكن المعركة والصدام . لست أدرى هل فكرت فى . . . ؟

وأجابه كوسار بقوله :

— لقد كان خليقاً بك يا بنزنجتن أن تكون نبتة صغيرة فوق صخرة . . . هذا ما كان يجب أن تكون . نبتة صغيرة فوق صخرة .

إنى أراك هنا خائفاً مرتاعاً عجيباً فى أمرك ، تعتقد أنك لم تخلق إلا لتجلس على المقاعد وتأكل الطعام . أتظن أن هذا العالم قد وجد ليكون مسرحاً للعجائز يتسكعن فيه ؟ وحتى إذا كان كذلك فقد أفلت زمام الأمر من يدك ، وليس لك إلا أن تسير فى الطريق الذى أنت سائر فيه .

وقال ردوود :

— أظن أن لا مفر لنا من هذا . ولكن لنسر فيه على مهل .

وصرخ كوسار بأعلى صوته قائلا :

— لا ! لا . اصنعا منه ما تستطيعان . وأسرعا فى صنعه بقدر ما تستطيعان ، والشراه فى كل مكان !

وانطلق كوسار يتحدث فى حماسة لم تعهد فيه من قبل ، ورسم بذراعه فى الهواء قوساً من أقواس النماء التى كان ردوود يرسمها فى أبحاثه ، وقال يوضح إشارته :

— فلتجعله يا ردوود هكذا !

٥

يخيل إلى أن إعجاب الأمهات بأبنائهن ينتهى عند حد ، وقد وصل إلى هذا الحد إعجاب مسز ردوود بطفلها حينما بلغ الشهر السادس من عمره على هذه الأرض ، وحطمت عربته الصغيرة ، وجىء به وهو يصخب فى عربة نقل اللبن . وكان الطفل وقتئذ يزن تسعة وخمسين رطلا ونصف رطل ، وكان طول قامته ثمانى وأربعين بوصة ، وكان فى وسعه أن يمسك بيده نحو ستين رطلا ، وكان الطباخ والخادمة يتعاونان على حمله . ولم يمض بعد هذا إلا بضعة أيام حتى كشف السر كله ، فقد جاء ردوود ظهر أحد الأيام إلى بيته من معمله ، فوجد زوجته المسكينة منهمكة فى قراءة صفحات شيقة من كتاب « الذرة العظيمة » .

ولما رأته وضعت الكتاب إلى جانبها وهرولت إليه وأمسكت بكتفه وهى تبكى وتنتحب .

وقالت له وهى تجهش بالبكاء :

— قل لى ماذا فعلت به ؟ قل لى ماذا فعلت ؟

وأمسك ردوود بيدها وقادها إلى أريكة فى أحد جوانب الحجرة وهو يفكر أثناء سيره فيما يدافع به عن نفسه .

ثم قال :

— لاتخشى شيئاً يا عزيزتى . لا تخشى شيئاً . كل مافى الأمر أنك

مجهدة قليلا . أما هذه العربة الرخيصة فقد اتفقت مع رجل يصنع كراسى الحمام على أن يأتى إلينا غداً بشىء أحسن منها .

ونظرت إليه مسز ردوود من فوق طرف منديلها وعيناها مغرورقتان بالدموع :

— أطفل فى كرسى حمام ؟

ثم أجهشت بالبكاء وقالت له :

— ولم لا ؟

— إنه يبدو فيه كالمقعد .

— بل يبدو يا عزيزتى كأنه شاب جبار ، وليس فى هذا ما يدعو إلى الخجل منه .

فقالت له :

— لقد فعلت به شيئاً . إنى أتبين ذلك فى وجهك .

فقال ردوود فى جفاء :

— مهما يكن ما فعلته فانى لم أفعل ما يحول دون نموه .

فأمسكت مسز ردوود منديلها وطوته فى يدها طى الكرة ونظرت إليه فى قسوة ظاهرة مفاجئة وقالت له :

— لقد عرفت ؟ قل لى ماذا فعلت بابننا ؟

— هل أصابه سوء ؟

— لقد كبر جسمه . لقد أصبح شخصاً هائلا ضخماً .

— هذا كلام سخيف . إنه نظيف معتدل القامة ، لم تلد النساء أحسن منه . فأى شىء يسوءك فيه ؟

— ولكن أنظر إلى حجمه .

— لا ضرر فى هذا مطلقاً . انظرى أنت إلى الخلائق الصغيرة الحقيرة التى تدب حولنا . أما ابننا فهو أجمل طفل . . .

فأجابته مسز ردوود :

— أجمل مما يجب أن يكون .

فأكد لها ردوود أن ذلك لن يستمر طويلا ، وأنه مجرد بداية .

ولكنه رغم هذا كان يعلم حق العلم أنه سيستمر ، ولقد استمر فعلا ، فان الطفل لم يكد يبلغ اثنى عشر شهراً حتى كان طول قامته اثنتى عشرة قدماً إلا بوصة واحدة ، وحتى كان وزنه مائة رطل وخمسة عشر رطلا ، لايقل حجماً عن تمثال الملاك فى كنيسة القديس بطرس فى قصر الفاتيكان ، وحتى كان أهل كنزنجتن الغربية يتندرون فى سمرهم بشدة قبضته على شعر الزائرين وأعضائهم ، وحتى خُصص له كرسى من كراسى المرضى فى المستشفيات ليحمل فيه من مخدعه وإليه ؛ واختيرت لتربيته فتاة قوية أتمت تدريبها من وقت قريب ، وكانت إذا أخرجته إلى الهواء الطلق أركبته عربة صنعت له خاصة . وكان من حسن الحظ أن ردوود يجمع بين عمله وخبرته العملية التى كسبها من مشاهداته .

وكان الانسان إذا نظر إلى ردوود الصغير وزالت دهشته الأولى من ضخامة جسمه بدا له طفلا ذكياً جميلا ، وذلك ما أخبرنى به من كانوا يرونه فى كل يوم تقريباً حول هيدپارك . وقلما كان يبكى أو يحتاج إلى من يسليه ، وكان يمسك عادة بلعبة كبيرة ذات جلاجل ، وكان فى بعض الأحيان يحيى سائق السيارات العامة ورجال الشرطة وهم سائرون فى الطريق ويدعوهم « دادا » و « بابا » فى دعة ولطف .

فإذا سمعه سائق السيارة يدعوه بهذا اللفظ أو ذاك قال :

— ها هو ذا الطفل العظيم آكل طعام البدن .

ويقول الراكب الأمامى فى السيارة :

— إنه يبدو صحيح الجسم قوى البنية .

فيجيبه السائق بقوله :

— إنه يمتص طعامه من زجاجة يقولون إنها تتسع لأربعة لترات وإنها صنعت له خاصة .

ويختم الراكب الأمامى حديثه بقوله :

— مهما يكن طعامه وحجم زجاجته فهو سليم الجسم قوى البنية .

ولما رأت مسز ردوود أن نماء الطفل يسير سيراً مطرداً لا هوادة فيه — وقد عرفت ذلك أول مرة حين جيء له بعربته الجديدة — استسلمت للحزن العميق ، وكان مما قالته إنها لاترغب فى الدخول إلى حجرة الطفل بعد الآن ، وإنها تتمنى لو أنها قضت نحبها من قبل ، أو لو أن الطفل قد مات ، ولو أن الناس كلهم قد ماتوا ، ولو أنها لم تتزوج ردوود ، ولو أن رجلا لم يتزوج قط امرأة . وأثر ذلك فى نفسها فآوت إلى حجرتها وظلت فيها ثلاثة أيام لاتذوق فى أثنائها إلا حساء الدجاج . ولما ذهب إليها ردوود يهدئ من سورتها أخذت تضرب وسائدها بيدها وتبكى وتقبض على شعرها .

وقال لها ردوود :

— إنه لم يصب بأذى قط ، بل إن من الخير له أن يكون كبيراً . فهل تحبين أن يكون أصغر من أطفال الناس ؟

— بل أحب أن أراه مثل أطفال الناس ، لا أكبر منهم ولا أصغر ، وكنت أريده طفلا صغيراً ظريفاً شبيهاً بچيورچينا فيليس الطفلة الصغيرة الظريفة . وكان أحب الأشياء إلىّ أن أربيه تربية لطيفة بطريقة لطيفة ولكن هاهوذا . . . (واختنقت المسكينة بعبراتها) هاهو ذا يلبس حذاءين رقم ٤ من أحذية الرجال ، وينتقل فى عربة تسير بالبترول !

وبكت مرة أخرى وقالت :

— إنى لا أستطيع أن أحبه . كلا ! لا يمكن أن أحبه أبداً ، إنه أكبر من أن أحبه ، ولا يمكن أن أكون أماً له ، كما كنت أحب أن أكون !

ثم استطاعوا أخيراً أن يدخلوها مخدع الطفل ، وهناك رأت إدورد

منسن ردوود (أما بُنتَجرويل فلم يكن إلا لقباً تهكمياً لقب به فيما بعد) يتأرجح فى كرسى هزاز صنعت له دعائم تسنده وتقويه ، وكان يبتسم ويغمغم قائلا : « جو . وو » . وفى هذه الساعة لان قلب مسز ردوود لطفلها من جديد ، فذهبت إليه وحملته بين ذراعيها وبكت .

وقالت وهى تذرف الدمع من عينيها :

— لقد فعلوا بك يا ولدى شيئاً لا أعرفه ، وستنمو يا أعز الناس علىّ ، وسأفعل كل ما أستطيع لأربيك تربية حسنة ، وليقل والدك ما يقول .

ثم خرج ردوود من مخدع الطفل بعد أن زال عنه كثير من قلقه واضطرابه ، ولكنه كان يحدث نفسه قائلا :

— من أحقر الأعمال أن يكون الإنسان رجلا إذا ظل النساء بحالتهن الحاضرة .

قال ذلك بعد أن أوصلها إلى باب الحجرة .

٦

وقبل أن يمضى العام كان الناس يرون فى غرب لندن فضلا عن عربة ردوود عدداً آخر من عربات الأطفال التى تسير بالبترول ؛ وقيل لى إن عددها بلغ سبعاً ، ولكن الأبحاث الدقيقة أثبتت بالدليل القاطع أنها لم تزد فى داخل دائرة العاصمة الكبرى على ست عربات . ويبدو أن الطعام كان يختلف أثره باختلاف بنية من يتعاطونه . ولم يكن فى أول الأمر صالحاً لأن يؤخذ حقناً ، وليس ثمة شك كذلك فى أن عدداً كبيراً من الآدميين لا يستطيعون تمثيل المواد التى يصنع منها ، كما يمثلون الطعام العادى . وقيل إنه أطعم أضعف أولاد ونكاز ، ثم بدا أن هذا الطفل عاجز عن النمو عجز أبيه عن تلقى العلم إذا صدق قول ردوود فيه . أما غيرهم — على حد

قول جمعية منع طعام البدن — فقد أضعف صحتهم لسبب ما ، ولم يتحملوا أولى النزلات المعوية التى تصيب الأطفال عادة ، بل ماتوا ميتة سريعة . أما أبناء كوسار فكانوا يلتهمونه التهاماً .

ولا حاجة إلى القول بأنه ليس من السهل أن يصبح هذا الطعام وأمثاله من الأشياء المألوفة فى حياة الناس ؛ فالنماء بنوع خاص ظاهرة معقدة ، وكل قانون عام يراد تطبيقه عليها لا يخلو من أخطاء ، ولكن يلوح أن القانون العام الذى ينطبق على هذا الطعام بوجه عام هو أنه إذا تقبله الجهاز الهضمى بطريقة ما كان أثره فى جسم الشخص الذى يتقبله ذا قوة واحدة فى جميع الحالات ، فهو يضاعف النمو العادى ستة أضعاف أو سبعة ثم يقف عند هذا الحد مهما زدت من كمية الطعام ؛ بل وُجد أنه إذا زادت الكمية على الحد الأدنى الضرورى[1] أدى ذلك ألى اضطراب التغذية وإلى السرطان والأورام ، وتحول بعض أجزاء الجسم إلى عظام ، وما إلى ذلك . ووجد كذلك أنه متى بدأ النمو الغير العادى أصبح لا بد من اطراده ، ولا بد من تقديم الطعام للشخص النامى بجرعات قليلة ولكنها كافية .

وإذا منع الطعام فى أثناء النمو بدا على صاحبه شىء من القلق الغامض المبهم ، ثم ظهرت عليه الكآبة ، ثم أعقبت ذلك فترة من الشراهة شبيهة بالتى أصابت الجرذان فى هنكى ، يصاب الشخص أو الحيوان بعدها بفقر الدم الشديد ثم يمرض ويموت . ويحدث هذا بعينه للنبات ولكنه كما قلنا لا يصدق إلا على فترة النمو ، فإذا ما بلغ الحيوان سن المراهقة — وإذا ما أخرج النبات براعيم الزهر الأولى — تقل الحاجة إلى الطعام والرغبة فيه ، حتى إذا كمل نمو الحيوان أو النبات انعدمت حاجته إليه ، فكأنه والحالة هذه قد استقر على درج السلم الجديد . وشاهد ذلك ما حدث لنبات القراص

---

(١) هذه بالطبع مغالطة مقصودة والقارئ يتوقع « الحد الأعلى » .

فى هكليبراو ، والكلأ على سفوح التلال ، وقد أخرجت جذورها نباتات ضخمة من نوعها .

ولم يلبث ردوود الصغير ، طليعة الجيل الجديد وأول من طعم الطعام ، لم يلبث أن أخذ يزحف فى حجرته يحطم أثاثها ويعض بأسنانه كالجواد الجامح ، ويقرص بيده كالكلبتين ، ويصرخ منادياً مربيته وأمه وأباه المروع أصل هذا البلاء كله .

وأكبر الظن أن الطفل قد خرج إلى هذا العالم وهو حسن النية . فقد كان إذا رأى الأشياء المحطمة تتطاير أمامه يقول : « كخ . كخ . بادا » ولفظ بادا هو كيفية نطقه للفظ بنتاجرويل ، اللقب التهكمى الذى فرضه عليه والده . وأما كوسار فقد استطاع أن يشيد على قطعة خالية من الأرض مجاورة لمنزل ردوود حجرة مريحة حسنة الضوء لأبنائهما الأربعة ، يتخذونها للعبهم ودراستهم ونومهم ، وقد تجاهل فى تشييدها القانونى القديم الذى كان يحدد سعة النوافذ ، وخالف كذلك بعض الأنظمة المحلية الخاصة بالبناء ، وكانت سعة هذه الحجرة ستين قدماً مربعة وكان ارتفاعها أربعين قدماً .

وأحب ردوود هذه الحجرة بعد أن شيدها هو وكوسار ، وقل اهتمامه بالمنحنيات إلى حد لم يكن يحلم به قط ، لأن حاجات ولده الملحة كانت تستأثر بكل عنايته وكثيراً ما كان يقول :

— إن إعداد مخدع للأطفال يتطلب جهداً عظيماً ؟

فجدران الحجرة وأثاثها يجب أن توائم هذه العقلية الجديدة وتستجيب لها وتوحى إليها بآلاف الأشياء ولا توحى إليها بآلاف أخرى .

وأجابه كوسار وهو يختطف قبعته اختطافا :

— هذا لا شك فيه .

وكان الرجلان يعملان معاً فى وئام وانسجام ، وإن يكن ردوود قد تكفل بما يحتاجانه من مبادئ التربية ونظرياتها .

وما كان أشد غبطتهما ونشاطهما وهما يأمران بطلاء جدران الحجرة وأخشابها ، وكان اللون الغالب هو اللون الأزهر [١] . وتتخلله فى بعض الأماكن أجزاء لامعة من ألوان قوية خالصة ، تساعد على إبراز المنحنيات البسيطة فى البناء . وكثيراً ما كان ردوود يقول :

— لا بد لنا من الألوان القوية الخالصة .

واختيرت مساحة فى أحد الجدران وضعت فيها أوراق مربعة من ذات اللون القرمزى والأرجوانى والبرتقالى والليمونى والألوان الزرقاء والخضراء على اختلاف درجاتها وظلالها ، تشهد لصانعيها بالمهارة وحسن الذوق . وكان من الواجبات المفروضة على الأطفال الجبابرة أن يرقبوا هذه المربعات بطرق مختلفة كما يشاءون . وكان ردوود يقول :

— إن الأطفال إذا عرفوا الألوان جميعها فى بادئ الأمر استطاعوا بعدئذ أن ينشئوا منها الزخارف التى يختارونها هم .

ولم يكن يرى ما يدعو إلى تحبيبهم فى لون أو زخرف خاص .

ومن أقواله المأثورة : « إن مكان الأطفال يجب أن يكون ممتعاً ظريفاً ؛ ذلك أن المتعة ذاتها غذاء للطفل وأن انعدامها يعذبه ويهلكه ، وأن لا بد للطفل من صور لا عداد لها » . ولم تكن هناك صور معلقة على جدران الحجرة باستمرار ، ولكن كانت عليها إطارات خالية توضع فيها صور ثم ترفع لتحفظ فى قطر متى زالت جدتها وطرافتها . وكان فى الحجرة نافذة يرى منها امتداد الشارع ، وأقام ردوود فوق سطحها غرفة مظلمة يستطاع منها مشاهدة شارع كنزنجتن الكبير وجزء غير قليل من الحدائق .

ووضعت فى أحد جدرانها تلك الأداة القيمة المعروفة بالمعد [٢] وكانت تبلغ مساحتها أربع أقدام مربعة مصنوعة من حديد مقوى ، ذات أركان

---

(١) الأبيض بياضاً محموداً تخالطه أدنى صفرة .

(٢) آلة مركبة من أسلاك وكرات خشبية لتعليم الأطفال الحساب .

مستديرة ، ليتعلم عليها الأطفال الجبابرة مبادئ العد والحساب . وجيء للأطفال بعدد من الدمى ، لم تشتمل إلا على عدد قليل من الخراف المغطاة بالصوف ، ولكن كوسار استبدل بها فى يوم من الأيام عدداً كبيراً من اللعب ، دون أن يخبر أحداً بما يريد أن يفعله . وجاء بها فى ثلاث عربات ذات أربع عجلات . وكانت كلها أكبر من أن يتسع لها فم الأطفال ، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يضعوها بعضها فوق بعض ، ويرتبوها صفوفاً ، ويدحرجوها ويعضوها بأسنانهم ، ويقذفوها ويهزوها ، ويتبينوا صلابتها ويجذبوها ، ويفتحوها ويقفلوها ، ويضربوها ، ويجروا عليها تجارب لا حصر لها . ووضع فى الحجرة كذلك قطع من الخشب ذات ألوان مختلفة ، منها المستطيل والمكعب ، وأخرى من الفخار المصقول والزجاج الشفاف والمطاط . وفى ناحية أخرى صفت لوحات صغيرة وألواح من الاردواز ، وأجسام هندسية ، منها مخروطات كاملة أو ناقصة ، واسطوانات وأجسام شبه كرية ، مستطيلة أو مفلحطة القطبين ، وكرات من مواد مختلفة ، بعضها مصمت وبعضها مجوف ، وصناديق متعددة الأحجام والأشكال ، منها ما هو منفصل الغطاء ومنها ما هو متصله . ولم تخل الحجرة من قطع من الجلد والمطاط ، ومن أجسام صغيرة خشبية قاسية ، إذا ضمت بعضها إلى بعض مثلت صورة الإنسان . وقال كوسار :

— أعطوهم هذه الأشياء واحداً بعد واحد .

ووضعها ردوود كلها فى خزانة مغلقة فى أحد أركان الحجرة . وعلق على أحد جدرانها سبورة على ارتفاع يناسب طفلا طوله ست أقدام أو ثمان ، لكى يكتبوا عليها بالطباشير الأبيض والملون ؛ ووضع إلى جانبها مجموعة من ورق الرسم يستطيع الأطفال أن يأخذوا منه ورقة بعد ورقة ليرسموا عليها بالفحم ، كما وضع مكتباً صغيراً وعليه عدد من الأقلام الرصاص الضخمة المتفاوتة الصلابة ، وكمية كبيرة من الورق ، ليتعلم عليها الأولاد الكتابة

والرسم . وأمر ردوود فضلا عن هـذا — وقد كان واسع الخيال إلى حد كبير — أن يعد أيضاً مقدار من أنابيب الألوان السائلة ، وصناديق من الأقلام الملونة حتى تكون حاضرة لدى الأطفال عندما يأتى وقت الحاجة إليها . ثم جاء بكمية من الصلصال وأمر بوضعها فى إناء كبير ، وهو يقول :

— سيعمل الطفل هو ومعلمه أول الأمر معاً ، حتى إذا مرن على العمل استطاع أن يقلد نماذج أمامه ثم يشكلها إذا شاء فى صورة حيوانات . ويذكرنى هذا بأن من واجبى أن آتيه بصندوق من العُدد !

ثم يأتى دور الكتب . وسأطّلع أولا على عدد كبير منها لأضع ما يصلح له بين يديه ، ويجب أن تكون كلها مطبوعة بخط كبير واضح . ولننظر الآن فى أى الكتب يحتاجها . يجب أولا أن نغذى خياله ، فالخيال تاج التربية ، كما أن العادات والعقل هما عرشها . وإذا فقد الخيال كان الرجل حيواناً ، وإذا فسد كان نذلا وجباناً . أما الخيال السامى فصاحبه ملك يمشى على الأرض ، ويجب أن يحلم الطفل بما هو جميل رائع على هذه الأرض ، وبعالم خيالى غير عالمنا هذا ، ولكن الحقائق الواقعية يجب أن تكون أساس تربيته كلها ؛ ويجب أن يقرأ كتب الروّاد الذين جابوا أقطار الأرض ، وأن يعرف كيف مهدها الإنسان وأخضعها لسلطانه . وسيتزود بطائفة من الكتب عن الحيوان والطب والنبات والحشرات ، وعما فى أطباق الثرى وأعماق البحار وأجواز الفضاء ، وسيؤتى له بكتب فى تواريخ دول العالم قديمها وحديثها ، ورسوم وقصص عن قبائل الأرض وعادات الناس وأخلاقهم . وسيعد له من الكتب والصور ما يقوى لديه حاسة الجمال ، منها صور يابانية دقيقة تحببه فى جمال الطير والنبات والزهر ، وصور غريبة تمثل الجمال الإنسانى وجمال الطبيعة فى البر والبحر ، وستكون لديه كتب فى بناء الدور والقصور ، وسيكون فى وسعه أن يخطط المنازل والمدن .

ولا بد لى من أن أعد له ملهى صغيراً .

ولن أنسى الموسيقا !

لقد فكر ردوود فى ذلك وقرر أن يبدأ ابنه بتعلم بعض النغمات البسيطة ثم يتدرج منها إلى ما هو أعقد منها « سنعلمه ذلك أولا ثم نعلمه الغناء وأسماء النغمات وبعدئذ . . . ؟ »

ونظر ردوود إلى اسكفة النافذة وقدر بعينه حجم الحجرة ثم قال :

— وعليهم أن يضعوا بيانه ، فى هذا المكان ، وسيأتون به من الخارج قطعاً منفصلة .

وأخذت هذه الاستعدادات كلها تطوف بخياله ، وكان يخيل إلى من يراه فى هذه الحجرة المتسعة أنه مخلوق ضئيل لايزيد على عشر بوصات . وكان فى الحجرة بساط تركى عظيم لايقل عن أربعمائة قدم مربعة فرشت به أرضها لكى يحبو عليه ردوود الصغير بعد قليل ، وكان يمتد حتى المدفأة الكهربائية التى جىء بها لتدفئة الحجرة ، وكان فيها وقتئذ رجل جاء به كوسار وأركبه على سلم من الخشب لكى يضع إطار الصور المتحركة ، وكان يستند إلى أحد الجدران كتاب ضخم لا يقل عن حجم باب عادى ، ويحتوى على أوراق سميكة ليلصق عليها نماذج من النباتات ، وكانت تبرز من بين أوراقه سوق نبات وأوراق وأزهار كلها من ذلك الحجم الكبير الذى سيذيع عما قريب اسم إرشت فى العالم النباتى كله .

وبدا لردوود فى هذه الساعة وهو واقف بين هذه الأشياء أن ما يتصوره حلماً لا يمكن أن يتحقق . وقال فى نفسه وهو ينظر إلى السقف البعيد :

— إذا صح أن هذا سيظل مطرداً . .

وخيل إليه أنه يسمع من بعيد صوتاً كأنه خوار ثور يجيبه بأنه سيظل .

وقال ردوود :

— لا شك فى أنه سائر إلى غايته .

وتلا ذلك صوت يشبه صوت ضربات على منضدة ، تبعه صراخ شديد .

ثم عاد ردوود إلى تفكيره ، ولكنه كان فى هذه المرة تفكيراً من نوع جديد فقال :

— إن خير ما أفعله أن أتولى تعليمه بنفسى .

وتوالت الضربات وزادت شدة وخيل إلى ردوود لحظة ما أنها تشبه صوت آلة بخارية مضطربة اضطراب الحادثات التى كانت تتوالى تباعاً فى مخيلته . وأيقظت ردوود من تفكيره ، وعرف أن إنساناً يدق الباب .

فناداه « ادخل » . وفتح باب الحجرة قليلا ، وكان باباً كبيراً كأنه باب كنيسة ، ثم انقطع صريره وبدا بتزنجتن فى مدخل الحجرة تبرق أساريره من تحت رأسه الأصلع ومن فوق منظاره .

وهمس بصوت خافت هادئ :

— لقد جئت لأرى

فناداه ردوود « أقبل » ، ودخل بتزنجتن بعد أن أغلق الباب وراءه .

وأقبل نحوه ويداه من وراء ظهره ، وتقدم خطوات قليلة ، وأخذ يقلب الطرف كالعصفور الحائر فى الحجرة المتسعة ، ثم مسح ذقنه بيده وأسلم نفسه للتفكير العميق .

وقال وهو يحاول تخفيض صوته :

— كلما جئت إلى هذا المكان بدا لى كل شىء فيه ضخما كبيراً .

وأجابه ردوود بعد أن ألقى هو أيضاً نظرة على المكان كله كأنه يحاول ألا تفلت من خياله الصورة التى أوصلتها إليه عيناه :

— نعم هو كبير . وأنت تعرف من غير شك أنهم أيضاً سيكونون كباراً .

وأجابه بتزنجتن بصوت يبدو فيه ما يشبه الفزع :

— كباراً جداً .

ونظر كل منهما إلى صاحبه نظرة أشبه ما تكون بنظرة الخائف المروع .

وقال بنزنجتن وهو يمسح أرنبة أنفه ويرقب ردوود بإحدى عينيه ليقر في ملامحه هل كان جاداً في قوله :

— سيكونون في الواقع كباراً جداً . نعم سيكونون كلهم كباراً كباراً يخشى بأسهم ، ويخيل إلى أني وأنا في هذه الحجرة نفسها لا أستطيع أن أتصور ... ما سيصلون إليه كلهم من الكبر .

الفصل الخامس

صغائر مستر ننزبجتن

١

وبينما كانت اللجنة الملكية التى تبحث فى طعام البدن تعد تقريرها بدأت تتضح للناس قدرة هذا الطعام على التسرب والانتشار. وكان من سوء الطالع — من سوء طالع كوسار على الأقل — أن الثورة الثانية التى نشأت عن الطعام قد شبت مبكرة. ذلك أن صورة التقرير التى لا تزال باقية إلى الآن تدل على أن اللجنة تألفت تحت إشراف أقدر أعضائها وأعظمهم خبرة الدكتور استيفن ونكلز (الزميل بالجمعية الملكية والحائز على درجة الدكتوراه فى الطب والعلوم والقانون، والزميل بكلية الجراحين الملكية، وقاضى الأمن العام ... الخ)، وقد أكدت اللجنة فيه أن تسرب هذا الطعام من غير قصد مستحيل، وأنها على استعداد لأن توصى بأنها إذا عهدت بصنع «طعام البدن» إلى لجنة من أعضاء ذوى كفاية (مثل ونكلز) وجعل له الاشراف التام على بيعه، فان هذا يدحض جميع حجج المعارضين فى انتشاره. وكان المتفق عليه أن تحتكر اللجنة وحدها صنعه. ولقد كان من سخريات الأقدار أن أول حوادث تسرب الطعام للمرة الثانية وأروعها حدث فى مكان لا يبعد أكثر من خمسين ياردة عن كوخ صغير فى كستن كان يسكنه فى أشهر الصيف الدكتور ونكلز نفسه.

وليس ثمة شك الآن فى أن إصرار ردوود على ألا يطلع ونكلز على تركيب الطعام قد بعث فى هذا الرجل رغبة قوية فى الاشتغال بالكيمياء التحليلية . ولم يكن هذا الرجل دقيقاً فى عمله . ولعل هذا هو الذى حدا به إلى أن يقوم بتجاربه فى معمل ناقص صغير فى حديقة بيت من بيوت كستن لا فى أحد المعامل الصالحة الكاملة العدة التى وضعت كلها تحت تصرفه فى لندن . وقد فعل ونكلز ذلك سراً دون أن يستشير أحداً ، ويلوح أنه لم يظهر كثيراً من الجد أو الكفاية فى بحوثه هذه ، بل إن لدينا من الشواهد ما يدل على أنه لم يواصل العمل إلا فى فترات متقطعة لم تدم أكثر من شهر ، ثم انقطع عنه نهائياً .

ولم يكن هذا المعمل القائم فى الحديقة حسن الاعداد كما قلنا ، وكان فيه صنبور يؤخذ منه الماء وبالوعة ينتقل فيها إلى بركة ينبت على جوانبها الغاب فى ناحية منعزلة من أرض الكلأ المباح خارج سور الحديقة . وحدث أن كسرت البالوعة وتسرب من خروقها فى مستهل الربيع ما كان فى الماء من رواسب طعام الآلهة إلى حمأة صغيرة بين أجمة من الغاب .

وسرعان ما بدت فى هذه البركة وما حولها حيوية غريبة . فقد كان يسبح فيها وقتئذ عدد من الضفادع الصغيرة ، لم يكد ينفرج عنها غشاؤها الغروى اللزج . وكان فيها قواقع حيوانات فى أول مراحل الحياة ، وكانت ديدان خنافس الماء تعالج الخروج من قشور بويضاتها تحت جذور سيقان الغاب . ولست أعلم هل يعرف القارئ شيئاً عن دود الخنافس الذى يسميه الناس (لسبب لا أعلمه) خنافس الماء . إنه كائن عجيب عُقَدِى عضلى لجائى الحركات ، يسبح فى الماء ورأسه إلى أسفل وذيله مرتفع فوق الماء ، ويبلغ طوله قدر سلاميه أحد أصابع يد الرجل — نحو بوصتين إذا لم يكن قد أكل الطعام — وله فكان حادان يلتقيان أمام رأسه — وهما أنبوبتان محدودتا الأطراف يمتص بهما دماء فريسته . . .

وكان أول ما تلقى حبيبات الطعام السابحة هى الضفادع والقواقع الصغيرة . ولم تكد تذوقه الضفادع بنوع خاص حتى أخذت تلتهمه التهاماً ، ولكن واحدة منها لم تكد تبدأ نموها العظيم وتبرز إلى عالم الضفادع وتبتلع أخاً لها تضيفه إلى غذائها النباتى ، حتى هجمت عليها خنفسة مائية وأنفذت أشواكها فى قلبها ، وجرى إلى بطنها مع دم الضفدعة الأحمر البارد طعام الآلهة الجديد الذائب . ولم يطعم هذا الطعام غير هذه الحيوانات إلا بعض الغاب والنباتات المائية الصغيرة الخضراء ، والأعشاب التى فى قاع المستنقع . وحدث أن غسلت أرض المعمل فحملت المياه معها كمية أخرى من الطعام إلى المستنقع ، فقام التنازع على الحياة فى البركة المجاورة عند جذور شجرة الدبوغ . . .

وكان أول من كشف هذا الصراع رجل يدعى لوكى كرنجتن أحد أساتذة العلوم المنتمين إلى مجلس التعليم فى لندن ، ومن المشتغلين فى أوقات فراغهم بدراسة النباتات الأشنية التى تنمو فى المياه العذبة . ولم يكن كشفه هذا الصراع مما يحسد عليه . وكان المستر لوكى قد جاء كستن ليملأ عدداً من الأنابيب بنماذج من هذا النبات المائى ليختبرها فيما بعد . وأقبل الرجل ومعه نحو اثنتى عشرة أنبوبة مقفلة يصطدم بعضها ببعض فى جيبه ، وبعد أن اعتلى قمة الكثيب الرملى يمم شطر البركة متوكئاً على عصاه ، ورآه فى هذا المكان النائى غير المطروق صبى بستانى كان واقفاً على درج مطبخ الدكتور ونكلز يقلم سور الحديقة ، وكان وجود الرجل فى ذلك المكان والعمل الذى يقوم به مما أثار دهشة الصبى ، فأخذ يرقبه باهتمام كبير .

رأى مستر كرنجتن ينحنى عند طرف البركة ويتكىء بإحدى يديه على جذع شجرة الدبوغ الكبيرة ، وينظر إلى الماء ، ولكن الصبى لم يدرك بطبيعة الحال مقدار ما استولى على المستر كرنجتن من الدهشة عند ما أبصر فى قاع المستنقع عُقد نبات الأشنة وخيوطه التى لم ير قط مثلها من قبل . ولم يشاهد شيئاً من الضفادع — وكانت كلها قد قتلت من قبل — ولعل مستر كرنجتن

لم ير شيئاً غير مألوف اللهم إلا النبات الضخم الطويل . وكشف الرجل عن ذراعه حتى مرفقه وانحنى إلى الأمام ودفعها فى قاع البركة ليخرج منها شيئاً من النبات ، وانغمست يده فى الطين ، وانطلق فى الحال كائن حى غريب من خلال الظلال الباردة .

وأنفذ هذا الكائن أنيابه فى ذراع كرنجتن . وكان مخلوقاً عجيباً حقاً ، طوله أكثر من قدم ولونه سنجابى ، وجسمه معقد كالعقرب

وخارت قوة كرنجتن من منظره المشوه القبيح ، والآلام الحادة المبرحة التى شعر بها فى ذراعه ، فارتمى على وجهه فى البركة وصرخ بأعلى صوته .

وأبصره الولد يختفى من أمامه ، وسمع صوت وقوعه وكفاحه فى الماء ، ثم رآه مرة أخرى يقوم على قدميه عارى الرأس مذعوراً ، يصرخ ويقطر الماء من جسمه .

ولم يسمع الولد قبل ذلك رجلا يصرخ .

ورآه فضلا عن ذلك يحاول التخلص من شىء عالق بوجهه ، والدم يسيل من تحت يديه ، ثم يرفع ذراعيه بعد أن أعجزه التخلص منه ، ثم يقفز فى الهواء كمن به مس ، ويجرى بأقصى سرعة يستطيعها نحو عشر ياردات أو اثنتى عشر ياردة ، ثم يسقط وينقلب على الأرض ويختفى عن عينى الصبى .

ونزل الصبى عن سلم المطبخ ، وخرج من باب السور فى أقل من غمضة عين ، وأخذ معه لحسن الحظ مقص الحديقة . ويقول إنه لما وصل إلى الأعشاب الملتفة أوشك أن يعود مسرعاً ، فقد ظن أنه لابد ملاق رجلا مجنوناً حقاً ، ولكن وجود المقص فى يده قوى قلبه . وكان مما قاله وهو يقص قصته بعد رجوعه . « لقد كان فى وسعى أن أفقأ به عينيه » . ولما رآه مستر كرنجتن عاد إليه صوابه ولكنه لم يفارقه يأسه ، وقام على قدميه ثم سقط ، ثم قام مرة أخرى وأقبل نحوه . وقال :

— انظر إنى لا أستطيع أن أنزعها عن وجهى !

وانتابت الصبى نوبة من الهلع حينما رأى على وجه مستر كرنجتن وعلى ذراعه العالية وعلى فخذه ثلاث ديدان بشعة تضرب بجسمها فى قوة وعنف ، وقد أنفذت أفواهها فى لحمه ، وأخذت تمتص دمه . وكانت قبضتها لا تقل قوة عن قبضة كلاب الصيد على فريستها ؛ وكل ما جناه المستر كرنجتن من محاولته نزع هذه الحيوانات النهمة عن جسمه أن تمزق الجلد الذى كانت أفواهها فيه ، وجرى الدم الأحمر على وجهه وعنقه وثيابه .

وصاح الصبى :

— أمسك بها وسأقطع أجسامها .

واندفع نحوه بقوة الشباب وحماسته ، وفصل رؤوس الحيوانات الضارية عن أجسامها ، والرجل يصرخ صرخة قوية كلما سقطت واحدة منها أمامه وبلغ من شدة قبضتها على مستر كرنجتن أن ظلت رؤوسها ، حتى بعد أن تقطعت أجسامها ، عالقة به تعضه وتمتص دمه ، والدم يجرى من أعناقها على جسمه . ولكن الولد لم يلبث أن قص هذه الرؤوس نفسها بمقصه ، ولم يسلم مستر كرنجتن نفسه من أذى هذا المقص .

وكرر مستر كرنجتن قوله : « لم يكن فى وسعى أن أنزعها » ، ثم وقف ساعة يتمايل ويجرى الدم غزيراً من جراحه ، وضغط بيديه على هذه الجروح ، ثم نظر إليها لعله يدرك حقيقتها ، ثم خارت قواه وارتمى على وجهه عند قدمى الصبى ، وأجسام أعدائه لا تزال تقفز من حوله . ومن حسن الحظ أن الصبى لم يفكر فى أن يرش الماء على وجهه — لأن طائفة من هذه الوحوش كانت لا تزال جاثمة عند جذور الشجر — ولكنه مر بالبركة وعاد إلى الحديقة ليطلب العون ممن فى الدار ، وهناك قابل سائق عربة البستانى وقص عليه القصة بقضها وقضيضها

وعاد الاثنان إلى مستر كرنجتن فوجداه جالساً مشتت العقل منهوك الجسم ، ولكنه كان يسعه أن يحذرهما من الأخطار الكامنة فى البركة .

٢

تلك هى الظروف التى عرف فيها العالم أن الطعام قد أفلت مرة أخرى من أيدى المسيطرين عليه ؛ ولم ينقض أسبوع واحد حتى غدا كلأ كستن المباح « مركز توزيع » لهذا الطعام كما يسميه علماء الأحياء . ولم يكن فيه هذه المرة زنابير وجرذان ونمل وقراص ، بل كان فيه ما لا يقل عن ثلاث عناكب مائية ، وعدد كبير من دود الذباب الفارسى لم تلبث إلا قليلا حتى كانت ذباباً ، تتلألأ أجسامها الياقوتية فى سماء كنت ، ونباتات كثة لزجة عند أطراف البركة اخترقت أعوادها حديقة الدكتور ونكلز ، وكادت تصل إلى بيته ، وبدأت تنمو أنواع أخرى من النبات الدنىء لم تذبل وتمت إلا بعد أن جف ماء البركة .

وتبين الناس من فورهم فى هذه المرة أن ليس ثمة مركز توزيع واحد . بل أن هناك عدة مراكز ، منها واحد فى إيلنج ، وأصبح هذا أمراً مقطوعاً بصحته ، ومن هذا المركز خرج وباء الذباب والعناكب الحمراء ، ومنها مركز سنبيورى وهو الذى نشأت فيه كلاب البحر الضارية التى كانت تخرج إلى البر وتفترس الغنم . ومنها ثالث فى بلومزبرى طلعت منه على العالم سلالة جديدة من الصراصير ضخمة الجسم رهيبة المنظر . وكان هذا المركز الثالث بيتاً قديماً فى بلومزبرى تسكنه أشياء يرتاع لها الناس . وهكذا واجه العالم فجأة تجارب أخرى من نوع ما حدث فى هكليبراو ، ورأوا بدل الدجاج والجرذان والزنابير الضخمة كائنات أخرى مهولة غريبة المنظر . واختص كل مركز من مراكز التوزيع بنباته الخاص وحيوانه . . .

ونحن نعلم الآن أن كل مركز من هذه المراكز كان يقيم فيه مريض من مرضى الدكتور ونكلز ، ولكن ذلك لم يكن معروفاً فى ذلك الوقت ، وكان

الدكتور ونكلز نفسه آخر من يثير غضب الجمهور فى هـذه المسألة بالذات . لقد ذعر النـاس بطبيعة الحال ، وغضبوا غضباً شديداً ، ولـكن غضبهم لم ينصب على الدكتور ونكلز بل انصب على الطعـام ، ولم ينصب على الطعام بقدر ما انصب على بنزنجتن المسكين ، وقد خيل إلى الناس من أول الأمر أنه وحده المسئول عن هذا الشيء الجديد .

ولم تكن المحاولة التى أراد بهـا جمهور الشعب أن يفتك به إلا واحدة من الحوادث التى تعد من الأمور ذات الخطر العظيم فى التاريخ ، والتى هى فى حقيقة أمرها من أقل الحوادث شأناً .

ولا يزال تاريخ هذه الثورة سراً من الأسرار . وقد خرجت العصبة التى التف حولهـا الجمهور فيما بعد من اجتماع عقد لمقاومة « طعام البدن » فى هيد پارك نظمه المتطرفون من حزب كترهام . ولـكنا لانظن قط أن أحداً من هذه العصبة قد عرض على المجتمعين ، أو لمح لهم ، بان يقوموا بهذا الهجوم العنيف الذى انضم إليهم فيه عدد كبير من النـاس . تلك مشكلة لا يستطيع أن يعرف كنهها إلا مسيو جستاف ليبون ، لأنها من الأسرار الخاصة بنفسية الجماهير . أما حوادث هذه الثورة العنيفة فتتلخص فى أن جماعة كبيرة العدد قبيحة المنظر من غوغاء لندن خرجت على سلطان القانون ، واندفعت فى طريقها حوالى الساعة الثالثة من مساء يوم الأحد مخترقة شارع ثرذداى تريد أن تفتك ببنزنجتن وتجعله مثلا لغيره من العلماء الباحثين . وقد كانت هذه الجماعة أقرب إلى تحقيق مأربها من أية جماعة أخرى من سكان لندن منذ حطمت الغوغاء أسوار هيد پارك فى أواسط حكم الملكة ڤكتوريا البعيد . والحق أن هذه الجماعة أوشكت أن تصل إلى غايتها ، وظلت حياة الرجل المسكين ساعة من الزمان أو أكثر من ساعة معرضة لأشد الأخطار . ولقد كانت كلمة واحدة يلفظ بها أحد هؤلاء الغوغاء كفيلة بأن تقضى عليه .

ولم يعلم الرجل شيئاً عن الخطر المحدق به إلا حين سمع صياح الناس فى خارج مسكنه ، وحينئذ اتجه إلى النافذة وأطل منها ليعرف سبب هذا اللغط ، وظل دقيقة أو نحوها يشهد الجمع الحاشد يموج عند مدخل الدار ، يريد أن ينحى عن طريقه ستة من رجال الشرطة وقفوا فى سبيله ، وحينئذ أدرك ما له من شأن فى المسألة ، وخطر له فى لمح البصر أن هذا الجمع الصاخب المتماوج يقصده هو دون غيره . ولم يكن معه فى تلك الساعة أحد — ولعل هذا كان من حسن حظه — لأن چين ابنة عمه قد ذهبت إلى إيلنج فى زيارة قريب لها من ناحية أمها . ولم يكن عامه بما يجب عليه أن يفعله فى هذا الوقت ليزيد على عامه بما يفعله الناس فى يوم الحشر . وأخذ يهرول فى مسكنه يستلهم أثاثه عما يفعل ، ويدير المفاتيح فى الأقفال يفتحها ويغلقها ، ويندفع نحو الباب تارة ونحو النافذة ونحو غرفة النوم تارة أخرى ، وظل يفعل ذلك حتى جاءه كاتب يسكن فى الطابق الأسفل .

وقال له :

— ليس أمامك متسع من الوقت يا سيدى ، لقد عرفوا مسكنك من اللوحة المعلقة فى فناء المنزل وهم صاعدون إليك على الفور .

ثم دفع مستر بنزنجتن خارج مسكنه إلى الممر الذى كانت تتردد فيه أصداء هياج الجمهور الصاخب الصاعد فوق السلم الكبير ، وأغلق الباب خلفه وقاده إلى الشقة المقابلة لشقته ، وفتحها بمفتاحها الثانى الذى كان معه . وقال له :

— لم يبق أمامنا إلا هذه الفرصة .

وفتح نافذة تطل على فناء الدار ، ورأى فى الجدار الخارجى أوتاداً من الحديد يستطاع اتخاذها سلما وإن تكن شديدة الخطورة . وكان الغرض منها أن تكون سبيلا للنجاة من المساكن العليا فى الدار إذا شب فيها حريق . ودفع الرجل مستر بنزنجتن من النافذة وأراه كيف يتعلق بهذه الأوتاد ، ثم تبعه هو من خلفه يحز ساقيه بحزمة من المفاتيح ليستحثه على مواصلة

التسلق كلما رآه متباطئاً ، وكان يبدو لبنزنجتن أحياناً أن هذا السلم القائم لا آخر له ، وكان سطح الدار يبدو من فوقه بعيداً بعد النجوم ، أما الأرض من تحتـه . . . إنه لم يكن يعنى بالتفكير فيما تحته من الأشياء .

وأمسك الكاتب بعقب بنزنجتن وقال له : « لا تهن عزيمتك » . وآلمته مسكة الرجل ، فشـدد قبضته على الوتد الحديدى الذى فوقه وصرخ من الرعب صرخة خافتة .

وتبين أن الكاتب قد كسر إحدى النوافذ ، وأنه مال ميلة قوية إلى أحد الجانبين ، وسقط خشب النافذة بقوة على الأرض . وتبين كذلك أنه ينـاديه .

والتفت مستر بنزنجتن فى حذر شديد حتى يستطيع رؤية الكاتب ، وأمره هذا أن ينزل ست درجات .

وكانت هذه الحركات كلها حركات حمقاء ، ولـكن مستر بنزنجتن نزل بقدمه قليلا وفى حذر شديد .

وقال حين أراد الكاتب أن يساعده وهو واقف فى النافذة المفتوحة :

— لا تجذبنى إليك .

وبدا له أن الوصول إلى النافذة عن طريق السلم يكاد يكون مستحيلا ، وكان حين شرع يمد رجله نحوها يعتقـد أنه ينتحر ، وأن لا أمل له فى الوصول إليها ، ولـكنه أفلح أخيراً فى أن يضع قدمه عليها ، وجذبه الكاتب بغير رحمة ، وقذف به إلى الداخل وقال له :

— لا نجاة لك إلا بالدخول هنـا ، وليست مفاتيحى بذات فائدة فى هذا القفل ، فهو قفـل أمريكى ، وسأخرج أنا وأغلق البـاب خلفى ، وأبحث عن ساكن هذه الشقة ، وستبقى أنت سـجيناً فيها ، وحذار أن تذهب إلى النافذة ، وهذا كل ما أوصيك به ؛ إنى لم أر سوقة أفظع من هؤلاء ، وإذا بدا لهم أنك فى خارج الدار فأكبر الظن أنهم سـيقنعون بتحطيم أدواتك .

فاجابه بنزنجتن :

— ولكنهم عرفوا من اللوحة التى فى الفناء أنى هنا .

— لقد كان هذا من سوء حظك ، ومهما يكن من أمر فخير لى ألا يجدونى أنا الآخر .

واختفى الرجل بعد أن أغلق الباب .

وبقى بنزنجتن ليعتمد مرة أخرى على قوة تدبيره وابتكاره .

وهداه تفكيره إلى أن يختبئ تحت السرير .

وهناك وجده كوسار بعد قليل .

وكان بنزنجتن حين وجده كوسار يكاد يموت من شدة الرعب . ذلك أن كوسار حطم باب الحجرة بكتفه حين اندفع إليه من الممر الموصل إليه .

ونادى الرجل بنزنجتن قائلا :

— اخرج من هنا يا بنزنجتن ولا تخف ، فأنا الذى دخلت الحجرة ، ولا بد لنا من الخروج من هنا . إنهم يشعلون النار فى المكان ، والبوابون كلهم يخرجون منه الآن بعد أن خرج الخدم ، وكان من حسن الحظ أن أمسكت بالرجل الذى يعرف مكانك .

— هل ترى ما معى ؟

ونظر بنزنجتن من تحت السرير فرأى على ذراع كوسار ثوباً ليس له ولا يعرف لم جاء به ، وفى يده قبعة سوداء غريبة الشكل .

وقال كوسار :

— إنهم يتلفون كل شئ ، وإذا لم يحرقوا البناء فسيأتون هنا ، وقد لا يصل الجند إلى هذا المكان قبل مضى ساعة . هذا أمر جائز جداً . وفى الجماهير كلها جماعات لا لهم إلا السلب والنهب ، وكلما كانت المساكن التى يدخلونها حسنة الأثاث راق لهم مافيها ، ولا شك . . . فى أنهم يريدون أن

يستولوا على كل شيء . وعليك الآن أن تلبس هذا الثوب وهذه القبعة وأن تخرج معى .

وأخرج بنزنجتن رأسه من تحت السرير كما تخرج السلحفاة رأسها من صدفتها ، وقال :

— هل تقصد . . . ؟

فأجابه كوسار :

— الذى أقصده أن تلبسهما وتخرج . أظن أن الأمر واضح لا خفاء فيه . قال هذا وجذب بنزنجتن بقوة من مخبئه تحت السرير ، وأخذ يخلع عليه شخصيته الجديدة ، شخصية سيدة عجوز من عامة الشعب .

ورفع سرواله وخلع نعليه وطوّق قميصه ورباط رقبته وصديريته ، وألبسه ملابس النساء ، ووضع القبعة فوق رأسه . وخلع عن عينيه منظاره ، وقال له وهو يربط خيوط القبعة :

— لقد كان خليقاً بك أن تولد امرأة عجوزاً .

وجاء دور إلباس الحذاء ، وكان هذا أشق مافى الأمر كله ، وقد آلم حذاء النساء ثاكيل قدميه ، ثم غطاه بخمار . ولما أتم هذا لم يكن فرق بينه وبين النساء .

وأمره كوسار بالخروج من الباب والنزول إلى الطريق ، فأطاع من فوره .

وقال له وهو يدفعه :

— ليس لك إلا أن تطيع .

وهكذا خرج بنزنجتن المخترع الأول لهرقليوفوربيا رقم ٤ متنكراً يتعثر فى ثياب النساء التى لم يتعودها ، ويصب اللعنات النسائية فوق رأسه ، بنغمات غريبة أجهد نفسه فى تصنعها ، ليتقن بهذا التصنع تمثيل دوره وليشترك مع الشعب الهائج الذى جاء إلى هذا المكان ليفتك به ، وسار بنزنجتن على هذا النحو فى ممرات بيت تشسترفيلد ، واختلط مع الجمهور

الغاضب المضطرب ، وانقطعت صلته بالحوادث التى تتألف منها قصتنا .

ذلك أنه بعد نجاته من هذا الموت المحقق لم يكن له يد فى تطور طعام الآلهة ، وهو الذى كان أكثر الناس عملا فى ابتكاره .

٣

وهكذا يختفى عن مسرح الحوادث ذلك الرجل الصغير ، مبتدع الطعام الذى أقام العالم وأقعده ، وبعد قليل تطوى صحيفته ، ويخرج من عالم المرئيات والمسموعات . ولكن من حقه علينا وهو مصدر وحى هذه القصة ألا نضن عليه بصفحة أخرى فى ساعة خروجه . فنصوره فى اخريات أيامه حين عرفته تنبردج ولز . فقد كانت بلدة تنبردج ولز هى المكان الذى عاد فيه إلى الظهور بعد اختفائه القصير ، حين تبين أن ثورة الجماهير الغاضبة حالة شاذة عارضة ، خالية من المعنى قصيرة الأجل . عاد بنزنجتن إذاً إلى الظهور تحت حماية ابنة عمه جين ، وأخذ يعالج نفسه من الصدمة العصبية التى أصابته ، تاركاً كل ما عدا ذلك من الشئون ، وغير مبال بالنزاع الذى كان مضطرماً حول مراكز التوزيع الجديدة ، وحول الأطفال الذين كانوا يطعمون الطعام الجديد .

واتخذ بنزنجتن لنفسه مسكناً فى فندق العلاج المائى عند مونت جلورى حيث يسهل ارتياد حمامات من أنواع لا حصر لها ، منها حمامات للتدليك ، وحمامات ضوء ، وحمامات حرارة ، وحمامات القطران ، وحمامات الراديوم ومنها غير هذه جميعاً . وقد وهب قواه كلها لتحسين هذه الطريقة من طرق العلاج التى مات قبل أن يصل بها إلى الغاية التى كان يرجوها . وكان فى بعض الأحيان يستأجر عربة يركبها وعليه سترة أنيقة من جلد عجل البحر ، أو يسير على قدميه إذا لم تكن آلام ثآليله شديدة ، ويذهب إلى عين الماء

نفسها ، ويقضى عندها ساعة من النهار ، يشرب فيها مياها معدنية حديدية على مرأى من ابنة العم چين .

وأصبحت كتفاه المقوستان ، ووجهه القرنفلى ، ومنظاراه الملتمعان ، من « المظاهر » المألوفة فى تنبردج ولز . ولم يكن أحد يقسو عليه قط ، بل إنا لانخطئ إذا قلنا إن البلد بوجه عام والفندق بوجه خاص كان يسرهما وجود بنزنجتن فيهما ، وإنهما كانا يعدان ذلك فخراً لهما . ولم يعد فى مقدور أحد فى ذلك الوقت أن يسلب بنزنجتن مكانته التى نالها باختراعه العظيم . وكان هو فى تلك الأيام الأخيرة يرى من الخير ألا يتتبع ماتذيعه الصحف عن تطورات هذا الاختراع ، لكنه حين يخترق البهو الكبير فى الفندق ، أو يمر بعين الماء ويسمع أحد الجالسين يهمس فى أذن جاره : « هذا هو . هل تراه ؟ » كانت تبرق أسرته وتلتمع عيناه برهة قصيرة .

هذا الشبح الصغير ، أو قل هذا الشبح الضئيل الصغير ، هو الذى أخرج إلى العالم طعام الآلهة . ولسنا نعرف أيهما أشد غرابة ؟ أهو عظمة هؤلاء العلماء والفلاسفة أو صغرهما ؟ فليتصوره القارئ قرب العين يرتدى معطفاً على أطرافه الفراء ، أو واقفاً تحت النافذة حيث تتدفق المياه ، وفى يده قدح يمتصه على مهل ، وينظر بإحدى عينيه البراقتين من فوق حافة منظاره الذهبية إلى ابنة العم چين نظرة قاسية لا يُعرف سرها . ثم يغمغم ويمتص الماء .

بهذا نودع هذا المخترع العظيم بعد أن رسمنا للقارئ آخر صورة له ونطوى صحيفته وكأنه نقطة صغيرة فى هذه القصة ، ثم ننتقل إلى ما هو أجل منه شأناً وأعظم أثراً ، ألا وهو قصة الطعام التى نمت حوله لنرى كيف أخذ الأطفال الجبابرة يكبرون يوماً بعد يوم فى عالم أصغر من أن يتسع لهم ، وكيف كانت الشباك التى نصبتها لجنة « طعام البدن » من قوانين « طعام البدن » و « مواثيق طعام البدن » حول هؤلاء الأطفال تضيق عيونها فى كل عام يمر عليهم حتى . . .

الكتاب الثانى

الطعام فى القرية

الفصل الأول

مجيء الطعام

١

لقد بدأ الموضوع الذى نتحدث عنه صغيراً لا شأن له فى مكتب مستر بترنجتن ، ولكنه أخذ يتسع ويتفرع ويتجه إلى هذه الناحية تارة وإلى تلك تارة أخرى ، حتى أصبح كل ما تعنى به قصتنا هو « التوزيع » . فنحن حين نبسط أمام القارئ بقية فصول هذه القصة ، قصة طعام الآلهة ، إنما نتتبع شجرة دائمة التفرع . فلقد تسرب هذا الطعام فى فترة لا تزيد على ربع جيل من منشئه فى المزرعة الصغيرة قرب هكليبراو ثم انتشر — هو وأنباؤه وما يعزوه إليه الناس من قوة — فى جميع أنحاء العالم . وسرعان ما تخطى إنجلترا نفسها ، فلم تمض إلا فترة قصيرة حتى لم يعد يخلو منه مكان فى أمريكا واليابان وأستراليا ، وإن شئت فقل فى العالم كله ، وحتى كان يسير نحو غايته سيرا بطيئا فى طرق ملتوية وفى وجه مقاومة شديدة . لقد كان هو الضخامة الثائرة فى هذا العالم ، ولم يكد يخطو الخطوة الأولى فى سبيل الانتشار والتقدم حتى أخذ يسير فى هذه الطريق لا يحول بينه وبين غايته حائل ، على الرغم من تعصب الناس عليه وعلى الرغم مما سن لمقاومته من قوانين ونظم وعلى الرغم مما تعودته الكثرة الغالبة من الناس من استمساك بالقديم .

وكان أبناء الطعام ينمون نموا مطردا فى خلال هذه السنوات كلها ،

وكان نموهم أهم شئون ذلك الوقت ، ولكن أكثر ما كان الناس يتحدثون عنه هو تسربه من الأوساط التى كان أبناؤه يطعمونه فيها . كان هؤلاء الأبناء يكبرون ، وسرعان ما كان أبناء غيرهم يكبرون أيضاً ، ولم يكن فى وسع أية قوة فى العالم كله مهما عظمت أن تمنع تسربه من حين إلى حين . ذلك بأن الطعام كائن حى عقد النية على أن يتسرب وأن ينفذ مهمته مهما اشتدت المقاومة القائمة فى سبيله . وكان الدقيق المخلوط بهذا الطعام إذا صادفه الجو الجاف يتحول إلى مسحوق لا يستطاع احتباسه ، يرتفع فى الهواء وينتقل مع أقل نسمة تهب عليه ، فحينا تراه يظهر فى حشرة جديدة تنمو نموا عظيما شديد الخطر ، وحينا تراه يتسرب من البالوعات فتشربه الجرذان وما إليها من الحيوانات . وحدث أن ظلت قرية پانجبورن فى بركشاير تصارع النمل الجبار عدة أيام ، بعد أن عض ثلاثة من رجالها وقضى عليهم . وكثيراً ما أعقب انتشار الطعام على هذا النحو ذعر ينتشر بين الناس فى مكان ما ، يتلوه كفاح شديد ينتهى بالقضاء على هذا الشر المستطير . ولكنه كان على الدوام يخلف وراءه أثراً فى مجرى الحياة الغامض يغيره أبد الدهر . ثم تقوم ثورة طعامية جديدة قوية تقذف الرعب فى القلوب ، فينمو نبات أو حيوان نموا قويا مروعا ، وينتشر انتشاراً سريعاً فى أماكن دانية وقاصية ، ويكافحه الناس ببنادقهم . وكثيراً ما كان ينتشر فى صورة وباء من الذباب مهلك فتاك .

وكافح الناس الطعام وما تخلف عنه كفاح اليائسين فى أماكن لم يكن الإنسان يسمع بها من قبل ، وكان فى الحق كفاحا عجيبا لم يسبق له مثيل ، وكان له فضل إظهار كثير من أعمال البطولة الخالدة فى قضية « الصَّعْفَار » .

وأصبح الناس ينظرون إلى هذه الحوادث على أنها من حوادث حياتهم المألوفة ، يعالجونها بما تهيئه لهم ظروف الوقت العادية ، ويتحدث بعضهم إلى بعض قائلين إنه « لم يحدث تغيير فى أسس النظام القائم » ، وأصبح كترهام بعد أن سكن الفزع الأول فى المرتبة الثانية بين رجال العالم السياسى ، رغم

ما امتاز به من بلاغة وزلاقة لسان ، ولم ير الناس فيه إلا أنه من المناصرين لأحد الآراء المتطرفة .

ولم يصل هذا السياسى إلى مقام ذى خطر فى الشئون العامة إلا بخطى بطيئة . وكان الدكتور ونكلز الرجل العظيم وزعيم التفكير الجديد — لا يفتأ يكرر هذه العبارة « لم يحدث تغيير ما فى أسس النظام القائم » . وأحس أنصار « الحرية والتقدم » كما كانوا يسمون فى ذلك الوقت بأنهم غير مخلصين فيما يدعونه لأنفسهم من رقى ، ولعل آمالهم وأحلامهم كانت مركزة فى « الأمم الصغيرة واللغات الصغيرة والأسر الصغيرة القائمة فى الحدائق الصغيرة التى تكفى حاجاتها الصغرى » لأن هذا الصغار كان الطراز المألوف فى هذا العالم الصغير . أما أن يكون الإنسان كبيراً فقد كان معناه أن يكون حقيراً لأن الصغار والقماءة والحقارة والكمال فى الدقة أصبح هو ما يشتهيه الناس ويمتدحونه فى تلك الأيام . . .

وفى أثناء هذا كله كان أبناء الطعام ينمون فى هدوء ، كما ينمو سائر الأطفال ، فى دنيا تغيرت أحوالها وأعدت نفسها لاستقبالهم ؛ وعظمت قوتهم ، وطالت قامتهم ، ونمت معارفهم ، وامتازوا من غيرهم فى أشخاصهم وأغراضهم ، وارتقوا شيئاً فشيئاً إلى القدر الذى أعدته لهم مصائرهم ؛ ولم يلبثوا إلا قليلا حتى بدوا وكأنهم جزء لا يتجزأ من العالم الذى حولهم ، هم وحركاتهم الكبيرة الضخمة . وعجب الناس كيف كان العالم يسير من قبل مجيئهم إليه ووصلت إلى مسامع الناس قصص عن الأعمال الجبارة التى كان فى وسعهم أن يضطلعوا بها ، وقال الناس حين سمعوها « يالله العجب ! » وإن لم يكن فى نفوسهم شىء من العجب . وكانت الصحف تتحدث عن أبناء كوسار الثلاثة ، وكيف كان هؤلاء الأطفال المدهشون يرفعون المدافع الضخمة ، ويقذفون بالكتل الحديدية الثقيلة مئات الياردات ، ويقفزون مائتى قدم أو أكثر ؛ وقالت عنهم الصحف إنهم كانوا يحفرون بئراً أبعد غورا

من كل منجم أو بئر احتفرها الإنسان فى غابر الأزمان ، ليبحثوا فيها — على حد قول تلك الصحف — عن كنوز مخبأة فى باطن الأرض مذ خلقها الله .

وقالت المجلات الشعبية إن هؤلاء الأطفال سيدكون الجبال ، ويخرقون الأرض ، وينشئون الجسور فوق البحار . وقال صغار الناس « يالله العجب ! يالله العجب ! ألا ما أسهل ما ستصير إليه الحياة » قالوا هذا وهم ذاهبون إلى أعمالهم المألوفة ، وكأن الأرض لم يظهر فيها شيء يسمى طعام الآلهة . والحق أن هذه الأشياء التى كانت الصحف والمجلات تتحدث عنها لم تكن إلا النذر الأولى لما ستكون عليه قوة أطفال الطعام . ولم تكن فعالهم هذه إلا من قبيل عبث الأطفال ، أى من قبيل استخدام القوة فى غير قصد نافع ؛ ولم يعرفوا لأى شيء خلقوا ؛ وقصارى القول أنهم كانوا أطفالا — أطفالا من سلالة جديدة ، يكبرون على مهل ، وكانت قوائم الجبارة تنمو شيئاً فشيئاً — أما إرادتهم الجبارة فكان لا بد لها أن تنمو وتتجه إلى غاية معروفة وقصد محدود .

وإذا نظرت إلى هذه الفترة القصيرة من سنى الانتقال مستقلة عن غيرها من الزمن ألفيتها سلسلة واحدة من الأحداث المتتابعة ؛ ولكن أحداً لم يتبين قط مجيء الكبر والعظمة إلى هذا العالم ، كما لم يتبين أحد فيما مضى من الأيام وحدة الأحداث التى أدت إلى اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها إلا بعد أن مرت على هذا الاضمحلال والسقوط عدة قرون . ذلك أن أولئك الناس كانوا فى تلك الأيام يعيشون فى غمرة تلك التطورات ، فلم يكن فى وسعهم والحالة هذه أن يتبينوا ما فيها من وحدة شاملة مرتبطة الأجزاء . بل لقد خيل إلى العقلاء من الناس الذين كانوا يعيشون فى تلك الأيام الغريبة ، أيام نشأة الطعام وانتشاره ، أن كل ما لهذا الطعام من أثر هو أنه سوف ينشئ فى العالم طائفة من الكائنات الحية الشكسة المتمردة لا تربطها رابطة ،

وأن هذه المخلوقات قد تخلق بعض المتاعب والمشاكل ، ولكنها لن تؤثر فى نظام الإنسانية القائم الموطد الدعائم .

غير أنه كان فيمن يشهدون هذه الأحداث مشاهد واحد على الأقل يرى أن أعجب ما فى هذه الفترة المليئة بالأحداث هو اندفاع الكثرة الغالبة من بنى الإنسان فى طريقها المألوف وقصورها الذاتى ، وإصرارها على تجاهل ما كان يدور حولها من أحداث خطيرة ، وما تنذر به الأيام من أحداث أعظم خطرا . وبدا أن كل ما تنطوى عليه الطبيعة البشرية من تشبث بالقديم قد تبلور وتركز ، وأصبح له الغلبة على عقول البشر فى تلك الأيام الهادئة ؛ فكانوا أشبه بالنهر الذى يبدو ماؤه أهدأ وأعمق وأقوى ما يكون عند حافة الشلال العظيم . كذلك كان للرجعية فى تلك الأيام المقام الأكبر ، فكان الناس يتحدثون عن إفلاس العلم ، وعن انعدام الرقى ، وعن مجىء الحاكمين العظام ؛ كانوا يتحدثون عن هذا كله غافلين عما يتردد حولهم من أصداء منشؤها وقع أقدام أطفال الطعام . نعم إن الثورات الخطيرة الصخابة التى كانت تشب فى غابر الأزمان ، ويقوم فيها شعب صغير أحمق بمطاردة ملك صغير أحمق ، أو نحو ذلك من الأعمال ، قد انقضى عهدها ولم يبق لها وجود ؛ ولكن التغير لم ينقض عهده ، ولم يتغير فيه إلا نوعه ، وأقبل الجديد فى طرازه الخاص ، وكان أكبر من أن تدركه العقول العادية .

ولو أننا أردنا أن نصف مجىء الطعام وصفاً مفصلا لكان علينا أن نكتب تاريخاً ضخماً ، ولكن سلسلة من الأحداث المتشابهة كانت تحدث فى كل مكان على وجه الأرض ، ومن أجل هذا فإننا إذا وصفنا مجىء الطعام إلى مكان ما كان هذا الوصف شبيها كل الشبه بمجيئه إلى مكان آخر . لقد وقعت بذرة ضالة من بذور الضخامة فى قرية جميلة صغيرة هى قرية تشيزنج آيبريت من أعمال كنت ، فإذا تتبعنا نموها العجيب فى ذلك المكان ، وما أعقب هذا النمو من كفاح وغلبة عليه يؤسف لها كثيراً ، فقد أمسكنا

بطرف خيط من خيوط هذا النسيج العظيم المتشابك الأجزاء، وأصبح فى مقدورنا أن نتبين كيف خرج هذا الشبح العظيم من فوق منسج الزمان .

٢

وكان لقرية تشيزنج أيبريت قسيس، كما كان لغيرها من القرى قسيسون، ولكن القسيسين أصناف، وأحبهم إلىَّ القسيس المجدد، وأبغضهم إلى قلبى القسيس المتلون الرجعى الموغل فى رجعيته . وكان قسيس تشيزنج آيبريت من أقل القساوسة تجديدا، وكان رجلا رزيناً ثقيل الدم ناضج العقل، ومن أشد الناس استمساكا بالقديم . وخليق بنا أن نرجع قليلا إلى الوراء فى هذه القصة لنحدث القارئ عنه . لقد كان أليق القساوسة بقريته، ولعل أنسب الأوقات لتصويرهما معاً ذلك المساء الذى أقبلت فيه مسز اسكنر — والقارئ يذكر بالطبع قصة هروبها — تحمل معها الطعام إلى هذه الأوساط الريفية الهادئة، دون أن يعرف ذلك أحد من أهلها .

ولاحت القرية وقتئذ أجمل ما تكون فى ضياء الشفق مستقرة فى بطن الوادى، تظللها أشجار الزان، وتبدو كأنها عقد منظوم من الأكواخ ذات السقف المغماة، أو المغطاة بالحجارة الحمراء، ينمو على أبوابها النبات المتسلق، وتتقارب شجيراته على جانبى الطريق كلما بعدت عن شجر السرو النامى عند الكنيسة، واقتربت من الجسر . وكان بيت القسيس يطل متواضعاً على الطريق من خلال الأشجار البعيدة عن الفندق الصغير؛ ويدل منظر واجهته على تقادم عهده، وكانت منارة الكنيسة تشرف على منخفض الوادى، وتقوم من خلفها التلال، وإلى جانبها مجرى ملتو ضيق يختلف لونه بين زرقة السماء وبياض زبد الماء، ينساب بين الأعشاب الكثيفة

القصيرة ، والصفصاف السامق وسط المراعى الواسعة . وجملة القول أن المنظر كله يذكرك بالريف الإنجليزى الأصيل الهادئ ، الذى يمثل الكمال بكل معانيه ، حين تنعكس عليه شمس الغروب الدفيئة .

وكان القس أيضاً رجلا ناضجاً هادئاً ساذجاً كأنما هو طفل ناضج بين طبقة ناضجة من الناس ؛ وفى وسع الإنسان إذا رآه أن يتبين قبل أن يذكر هو نفسه ذلك لسامعه أنه درس فى إحدى المدارس الإنجليزية الخاصة ، ذات التقاليد العظيمة ، والطلبة الأشراف ، الخالية من المعامل الكيميائية ، ثم انتقل منها إلى كلية محترمة فى جامعة قديمة مشيدة على الطراز القوطى . وكانت كتبه كلها إلا قلة صغيرة منها قد كتبت من ألف عام أو تزيد ، ومعظمها من كتب المواعظ القديمة . وكان ربعة لحيماً ، فكان يبدو لذلك أقصر مما هو فى الحقيقة ، وكان له وجه يدل على أنه قد بلغ الغاية فى النضوج ، وكانت لحيته الكثة تخفى تحتها ذقنه الطويل ، ولم يكن لساعته سلسله اعتقادا منه أن ذلك ألطف وأظرف ، وكانت ثيابه الكهنوتية من صنع خياط فى الحى الغربى من لندن ، وكان إذا جلس يضع كلتا يديه على ساقيه ، وينظر بعينيه إلى قريته نظرة الاعجاب والغبطة ، ويلوح بيده الضخمة إليها ، وكان يبدو فيها أسعد الناس وأوفرهم حظا من الحياة ، وكان يقول فى كل مناسبة :

— إننا لحسن حظنا فى مكان أمين .

— وهذه التلال حصن لنا حصين .

ويفسر ذلك فى آخر الأمر بقوله :

— إننا بمنجاة من شره كله .

لقد كان هو وأصدقاؤه يتحدثون عن فظائع هذا العصر ، وفظائع الدمقراطية والتعليم الزمنى ، وناطحات السحب ، والسيارات ، وغزو الأمريكيين ، وانعدام الفن والإقبال على الأدب الرخيص .

وأعاد القس قوله :

— إننا بمنجاة عن شره كله .

ولم يكد ينطق بهذه العبارة حتى سمع وقع أقدام مقبلة فالتفت نحو الصوت ونظر إلى مصدره .

وكانت هذه أقدام المرأة العجوز مقبلة نحوه بخطى مضطربة ثقيلة ، تمسك حزمتها بيدها المجعدة النحيلة ، ويتقدمها أنفها — وهو كل وجهها المتغضن الذى ينم عن قوة العزيمة . وكانت الزهرتان الاصطناعيتان لاتزالان تتمايلان فوق قبعتها ، تشيران تارة إلى الشرق وتارة إلى الغرب . واكتسى نعلاها وإزارها بالغبار الأبيض ، وحملت تحت إبطها مظلة قلقة . ومنذا الذى كان فى وسعه أن ينبئ القس أن هذا الشبح الغريب قد أقبل الآن على هذه القرية ليكون فيها المصادفة المثمرة ، والقوة غير المنظورة ، والساحرة التى يطلق عليها ضعاف الرجال اسم الأقدار ، والتى لم تكن لى ولك أيها القارئ أكثر من مسز أسكنر .

وكانت مسز أسكنر مثقلة متعبة ، فلم يكن فى وسعها أن تحيى القس ومن معه ، فتظاهرت بأنها لم تره هو وأصدقاءه ، ومرت على بعد ثلاث ياردات منهم متجهة إلى داخل القرية . وراقب القس سيرها البطىء فى سكون . ولاحت له فكرة مالبثت أن نضجت واستقرت فى ذهنه على الدوام .

وخيل إليه أن مرورها عديم الشأن ؛ ذلك أن العجائز كن يحملن الحزم منذ خلق الله العالم ، ولم يكن لتلك الأحمال فى هذا العالم أقل أثر .

وقال القس مرة أخرى :

— إننا بمنجاة عن شره كله . ونحن نعيش فى جو كل مافيه بسيط مخلد ، مولد وكدح ، وزرع بسيط وحصاد بسيط ، يمر بنا الصخب والضجيج ولا يحدث فينا أثراً .

وكان على الدوام معجبا بما يسميه الأشياء الخالدة ، ومن أقواله المأثورة :

— إن الأشياء تتبدل ولكن الإنسانية مخلدة .

ذلكم هو قسيس القرية . وكان من أحب الأشياء إليه أن يقحم فى حديثه مقتبسات من اللغة اللاتينية أبعد ما تكون عن موضوع الحديث . أما مسز اسكنر فكانت وقتئذ بعيدة عنه تتعثر فى طريق ولمردنج .

٣

ولم يكن أحد يعلم رأى القس فى الكرات النباتية الضخمة المنتفخة . ولا شك فى أنه كان من أوائل من عثروا عليها ، وقد كانت تشاهد متباعدة متفرقة على طول الطريق بين أطراف القرية وأقرب التلال إليها ، وهو الطريق الذى كان القس يجتازه كل يوم فى ذهابه إلى الكنيسة وعودته منها . وبلغ عدد هذه الكرات الغريبة الشاذة ثلاثين كرة ، ويلوح أن القس نظر إلى كل واحدة منها على انفراد ، وأنه قلبها بعصاة مرة أو مرتين . ولقد حاول مرة أن يقيس محيط واحدة منها بذراعيه ، ولكنها انفجرت بين صدره وذراعه القوية .

وتحدث عنها إلى الكثيرين من الناس وقال لهم إنها « عجيبة ! » وقص على سبعة منهم على الأقل القصة المعروفة ، قصة البلاطة التى رفعتها طحلبة أسفل منها ، وكان فى كل مرة ينظر فى قاموس النبات ليتبين أى أنواع الطحالب هى ، كما يفعل سائر من على شاكلته من يوم أن طبقت الآفاق شهرة جلبرت هويت . وكان يعتنق نظرية هذا العالم ويرى أن الضخامة اسم على غير مسمى .

ولسنا نعرف هل لاحظ الرجل أن الكرات البيضاء كانت فى الطريق الذى سلكته بالأمس المرأة العجوز ، أو تنبه إلى أن آخرها قد انفتحت على بعد لا يزيد على عشرين ياردة من باب كوخ كادلز ، وإذا كان قد تبين هذا أو لاحظ ذاك فإنه لم يفكر قط فى تدوين ملاحظاته . لقد كانت ملاحظاته

فى المسائل النباتية من النوع الذى يسميه صغار العلماء «الملاحظات المقصودة» وهى التى يعنى فيها الملاحظ بالبحث عن أشياء معينة ، ويهمل كل ما عداها . ولم يفكر الرجل مطلقا فى أن يتعرف الصلة بين هذه الظاهرة وبين نمو طفل كادلز ، وهو النمو العجيب الذى ظل يسير فى مجراه عدة أسابيع ، أو على وجه التحديد ظل يسير فى مجراه منذ سار كادلز عصر يوم أحد من أربعة أسابيع مضت ليزور والدة زوجته ويستمع إلى مستر اسكنر — رحمة الله عليه — يتباهى بقدرته على تربية الدجاج .

٤

وكان خليقا بالكرات المنتفخة ونماء طفل كادلز أن يفتحا عينى القس إلى ما يحدث حوله ، وقد أتيحت له الفرصة أن يحتضن الطفل ويشاهده يوم تعميده ، وكان لا بد له أن يفكر فى أمره .

وكان الطفل يصرخ صراخا عنيفا يصم الآذان حين سقط على جبينه الماء البارد الذى أدخله فى زمرة المسيحية ، وجعل من حقه أن يتسمى باسم « ألبرت إدورد كادلز » . وكان حتى فى هذه السن المبكرة أكبر من أن تقوى أمه على حمله ، ولذلك حمله أبوه على مضض ، وهو يسخر من آباء الأطفال الصغار ، وسار به إلى حيث جلس هو ورفاقه .

وقال القس :

— إنى لم أر مثل هذا الطفل فى حياتى .

وكان هذا القول أول إشارة علنية إلى أن ابن كادلز ، الذى لم يكن فى بداية حياته على هذه الأرض يزن أكثر من سبعة أرطال ، كان يعتزم أن يكون طفلا يُشرِّف والديه . ثم تبين على الفور أنه لن يشرفهم فحسب ، بل أنه سيكون من أسباب فخرهم ومجدهم . وقبل أن يمضى على تعميده شهر

واحد بز كادلز الكبير قومه ، وأصبح ابنه شهابهم الساطع الذى جر عليه وعلى زوجته كثيرا من المتاعب .

ووزن القصاب الطفل إحدى عشرة مرة ، وكان رجلا قليل الكلام فلم يلبث أن انسجم مع الأسرة ، وقال حين وزنه أول مرة : « إنه طفل طيب » وقال فى المرة الثانية : «ياعجبا ! » ولم يزد فى الثالثة على أن قال: « ما هذا ؟ » وكل ما كان يفعله بعد ذلك أن كان يفغر فاه مندهشا ، ويحك رأسه بيده ، وينظر إلى موازينه غير مصدق دلالتها . وهرع الناس من كل فج ليشاهدوا « الطفل الكبير » . وهكذا اتفق الناس على أن يسموه . وقال بعضهم : « إنه يقفز فى النمو قفزا » وقالوا كلهم تقريبا : « أحقا تقولون عنه ذلك ؟ » وجاءت الآنسة فلتشر وقالت إنها لم تقل ذلك مطلقا ، وكانت من غير شك صادقة فيما تقول .

وجاءت السيدة ودندرشوت طاغية القرية فى اليوم التالى بعد أن وزن المرة الثالثة ، وفحصت عن الطفل فحصا دقيقا من خلال منظاريها ، وامتلأ قلبها بعد الفحص رعبا ، وقالت لأمه بصوت عال وبلهجة حازمة :

— إنه طفل كبير فوق الحد المألوف ، وعليك يا كادلز أن تعنى به أشد العناية . ولست أشك فى أنه لن يستمر فى هذا النماء لأنه يتغذى تغذية صناعية ، ولكن علينا أن نبذل له كل مافى وسعنا ، وسأرسل إليك كمية أخرى من الملابس الداخلية .

وجاء الطبيب وقاس الطفل ودوّن طوله فى مذكرة معه ، وأقبل المستر درفتهسك من كبار المزارعين بالقرب من أب ماردن ومعه بائع سماد جوال أقبل من مكان يبعد عن القرية ميلين ليشاهد الطفل العجيب . وسأل السائح عن سن الطفل ثلاث مرات ، وقال بعد المرة الثالثة إنه منتفخ وترك لمن سمعوه أن يستنتجوا كيف انتفخ الطفل ؟ ولم انتفخ ؟ ولعله كان يريد أن يقول إن حجم الطفل هو الذى نفخه . وكان مما قاله أيضا إن الطفل يجب

أن يوضع فى معرض ، وظل أطفال المدارس ، يفدون إلى الدار فى غير أوقات الدرس ويقولون :

— نرجو أن تسمحى لنا يا مسز كادلز أن نرى طفلك . نرجو أن تسمحى لنا بذلك يا مسز كادلز .

ولم ينقطعوا عن المجىء إلا بعد أن زجرتهم مسز كادلز . وفى أثناء هذا كله جاءت مسز اسكنر ووقفت إلى جانب الطفل وابتسمت ، وأمسكت بكلتا يديها النحيلتين مرفقها الرفيع الحاد ، وابتسمت تحت أنفها وحوله ابتسامة عميقة بعيدة القرار .

وقالت السيدة وندرشوت حين أبصرتها :

— إن هذا الطفل يجعل منظر من يراه — حتى هذه الجدة العجوز البائسة — منظرا يبعث فى النفس السرور ، وإن كان مما يؤسف له أن تعود هذه المرأة إلى القرية .

وأطفال القرى كما يعلم القارئ يحصلون على جزء كبير من طعامهم ولباسهم من القرويين المحسنين ؛ ولقد برهن طفلنا على أن اللبن الذى كان يصل إليه من كبيرة المحسنات فى القرية السيدة وندرشوت لا يكفيه ، وكثيرا ما دلل على ذلك بصياحه وصخبه الشديد .

وكان من حق الطفل أن يظل موضع دهشة الناس تسعة أيام كاملة . على أن الناس كلهم ظلوا ينظرون إليه فى دهشة وبهجة ضعفى هذه المدة وأكثر من ضعفيها . وبعد أن انقضت لم تضعف اهتمام الناس بشأنه ، وينصرفوا إلى التحدث عن عجائب أخرى أطرف منه ، بل ظلوا كما كانوا لأن نموه ظل سائرا كما كان لم ينقص منه شئ . ولشد ما كانت السيدة وندرشوت تدهش حين تجيئها خادمتها مسز جرينفيلد لتخبرها أن الطفل جاء يطلب اللبن .

— لقد جاء كادلز إلى البيت مرة أخرى . إن الطفل ليس عنده طعام .

— هذا محال يا عزيزتى جرينفيلد ، إنه يلتهم الطعام كما يلتهمه فرس البحر ، ولا أستطيع أن أصدق ما يقولون .

وأجابتها مسز جرينفيلد بقولها :

— أرجو يا سيدتى ألا يكون القائمون بأمره يخدعونك .

وقالت السيدة وندرشوت :

— إن من الصعب أن يعرف الإنسان ما يضمره هؤلاء الناس ، وأحب أن تذهبى ياعزيزتى جرينفيلد عصر اليوم وتشاهدى الطفل بنفسك ، تشاهديه وهو يشرب اللبن من زجاجته . على أنه مهما يكن حجمه ، لا يحتاج فى رأيى إلى أكثر من اثنى عشر كوبا فى اليوم .

وردت عليها مسز جرينفيلد قائلة :

— ليس من حقه أن يطعم أكثر من هذا القدر .

وارتجفت السيدة وندرشوت الرجفة التى يثيرها الغضب فى طبقة الأشراف الحقيقيين حينما يمر بخاطرهم أن أبناء الطبقات الدنيا — لا يقلون حقارة عن سادتهم — وأنهم يفوقونهم فى حقارتهم ، وذلك أشد ما يؤلمهم ويحز فى صدورهم .

ولكن مسز جرينفيلد لم ترى فى هذا ما يدل على أنهم يغتصبون ما ليس لهم ، وصدرت الأوامر على الفور بزيادة كمية اللبن المخصصة لطفل كادلز ، ولم تكد أول كمية ترسل إليه حتى جاءت أمه إلى بيت السيدة الشريفة لتعتذر لها عما حدث ، وتقول :

— أؤكد لك يا مسز جرينفيلد أننا حافظنا جهدنا على ملابس الطفل . ولكنها تمزقت فى كل مكان وتطايرت أزرار ثوبه ، فكسر واحد منها لوحا من زجاج النافذة ، وأصابنى زر آخر فى بطنى هذا .

ولما سمعت السيدة وندرشوت أن هذا الطفل العجيب قد تفززت ثيابه الجميلة التى تصدقت بها عليه اعتزمت أن تتحدث بنفسها إلى أبيه . ومثل

كادلز بين يديها من فوره بعد أن بلل شعره مسرعا وسواه بيده ، وكان يلهث من التعب ويقبض على طرف قبعته كما يقبض الغريق على حزام النجاة . وتعثرت قدمه فى طرف البساط من شدة الارتباك .

وكانت السيدة وندرشوت تحب أن تظهر سلطانها على كادلز ، فقد كان هذا الرجل مثلها الأعلى لما يجب أن يكون عليه أبناء الطبقة الدنيا . كان قليل الأمانة خاضعا ذليلا مجدا يتهرب من التبعات ، ولا يستطيع قط أن يتحملها . وقالت له تلك السيدة إن الطريقة التى ينمو بها ولده تعد من أخطر المسائل وأجدرها بالبحث والتفكير .

وقال لها كادلز بصوت مرتفع :

— إن المشكلة كلها ناشئة من رغبته الشديدة فى الطعام .

وليس فى مقدور أحد ياسيدتى أن يمنعه عنه ، وإذا حاول أحد ذلك أخذ الطفل يضرب برجليه ، ويصرخ بأعلى صوته ، وإن قلبنا يا سيدتى لا يطاوعنا ، وإذا طاوعنا تدخل الجيران فى الأمر . . .

وعرضت السيدة وندرشوت الأمر على طبيب المركز وقالت له .

— إن الذى أريد أن أعرفه هو هل يصح أن يعطى هذا الطفل تلك الكمية الهائلة من اللبن ؟

وقال طبيب المركز :

— إن الكمية التى يصح أن يعطاها طفل فى سنه تتراوح بين كوب ونصف وكوبين فى كل أربع وعشرين ساعة . ولست أرى من واجبك أن تعطى الطفل أكثر من هذا القدر ، فإذا أعطيته فذلك فضل منك وكرم ، وليس ثمة بطبيعة الحال ما يمنعنا أن نجرب إعطاءه القدر الصحيح بضعة أيام ، ولكننى لا أخفى عنك أنه يبدو لسبب ما مختلفا فى تركيب جسمه عن سائر الأطفال ، ولربما كانت هذه حالة من الحالات الشاذة التى نطلق عليها نحن الأطباء اسم التضخم العام .

وقالت السيدة وندرشوت :

— لكن فى هذا ظلما لغيره من أطفال القرية ، ولست أشك فى أننا سنتلقى كثيرا من الشكاوى فى هـذا الموضوع إذا استمرت الحال على ما هى عليه .

وقال الطبيب :

— لست أرى أن من واجب أى إنسان أن يعطى أكثر من الكمية المقررة ، ومن حقنا أن نصر على أن يكتفى بهذا القدر ، وإلا أرسلناه إلى الملجأ لينظر فى أمره .

وقالت السيدة وندرشوت بعد تفكير عميق :

— أظن أنك لا تستطيع أن تجد فيه من الشذوذ أكثر من حجمه ونهمه ، وفيما عدا هذين لا نرى فيه شيئاً غريبا خارجا عن المألوف .

وقال الطبيب :

— نعم إنى لا أجد فيه شيئاً غير مألوف ، ولكنى لا أشك فى أنه إذا ظل هذا النماء سائراً فى طريقه ترتب عليه نقص فى عقله وخلقه جد خطير ، وفى وسع الإنسان أن يتنبأ بما سوف يكون إذا رجع إلى قانون ماكس نوردو وهو فيلسوف موهوب ذائع الصيت يا سيدتى . لقد كشف هذا الطبيب أن الشخص الشاذ — شاذ ، وكان ذلك كشفا عظيم القيمة جديراً بأن يذكره الإنسان على الدوام ولا ينساه . ولقد وجدت فيه عونا عظيما فى أعمالى ، وكنت كلما عثرت على شئ شاذ قلت فى الحال وإن ذلك شئ شاذ .

وكان وهو يقول هـذا يطبق أجفانه ويخفض صوته ، كأنه يكشف عن سر خطير ، ثم يرفع إحدى يديه بشدة ويقول : « وأنا أعالجه وأنا مشبع بهذه الروح » .

٥

وقال القسيس وهو يفطر فى صباح اليوم التالى بعد مجىء مسز اسكنر :

— أى شىء هذا ؟

قال ذلك وهو يركز منظاره فوق صحيفته فى دهشة كبيرة .

— أزنابير ضخمة ؟ فى أى طريق نحن مسوقون ؟ . . . تلك فى ظنى أساليب الصحافة الأمريكية ! ألا فليخسأ هذا التجديد . لقد كان يكفينا أن نقول عنباً ضخما أو نحوه . أما هذا فلا .

وأضاف القسيس وهو يبتلع قدح القهوة فى جرعة واحدة ، ويركز عينيه على الصحيفة ، ويمتص ما علق من القهوة بشفته غير مصدق ما يراه :

— هذا سخف ومحض اختلاق !

ثم قال غير مصدق لشىء مما يقرأ :

— هذا كذب صريح !

وفى اليوم التالى ذكرت الصحف أكثر مما ذكرت فى اليوم السابق . وبدأ الأمر يتضح .

على أنه لم يتضح له كله مرة واحدة ، فقد ظل وهو ذاهب فى ذلك اليوم لأداء واجبه الدينى يسخر من القصة السخيفة التى تريد منه صحيفته أن يصدقها . أزنابير تقتل كلبا ؟ ولما مر بالكرات النباتية الضخمة الأولى رأى النبات ينمو بجوارها نمواً غزيرا ، ولكنه لم ير علاقة بين هذا النماء وبين القصة الصحفية التى كان يهزأ بها ، وقال فى نفسه :

— لو كان هذا صحيحاً لسمعنا به من غير شك فليست هوتستيبل بعيدة عنا أكثر من عشرين ميلا .

ثم وجد كرة ضخمة أخرى تبدو كبيضة الرخ بين النبات الضخم الكثيف .

فلما رآها تجلت له الحقيقة فى لمح البصر

ولم يذهب الرجل إلى رياضته الدينية المعتادة فى ذلك الصباح ، بل ذهب بدلا من ذلك إلى كوخ كادلز من طريق آخر وقال لمن فيه :

— أروني ذلك الطفل .

ولما وقعت عينه عليه قال :

— رحماك يارب !

وسار القس فى شوارع القرية يستمطر رحمة الله على نفسه ، ورأى الطبيب مسرعاً نحوه فأمسك بذراعه وقال له فى دهشة شديدة :

— ما معنى هذا كله ؟ هل قرأت الصحف فى هذه الأيام الأخيرة ؟

وأجابه الطبيب بأنه قرأها .

وقال له :

— فهل تعلم ما أصاب ذلك الطفل ؟ وما أصاب كل شيء ؟ — الزنابير والكرات المنتفخة والأطفال ؟ ما سبب نمو هذه الأشياء كلها ذلك النمو العجيب ؟ هذا شر لم يكن أحد يتوقعه ، ومن أغرب الأشياء أنه يحدث فى كنت ! ولو أننا فى أمريكا . . .

وأجاب الطبيب :

— ليس من السهل أن يعرف الإنسان حقيقة هذا الأمر ، وعلى قدر ما أستطيع أن أتبينه من الأغراض . . .

— نعم ؟

— إنه تضخم ، تضخم عام .

— تضخم ؟

— نعم تضخم عام — يؤثر فى جميع تركيب الجسم — فى جميع أعضائه ،

وفى وسعى أن أقول لنفسى وفيما بينى وبينك إنى لا يكاد يخالجنى شك فى أنه كذلك . . . ولكن من واجب الإنسان أن يكون وهو يبدى آراءه العلمية فى غاية الحذر .

وقال القس وكأن حملا ثقيلا قد ألقى عن عاتقه بعد أن تبين أن الطبيب قد أثبت أنه جدير بما يضعه فيه من ثقة .

— ولكن كيف تفسر انتشار هذا التضخم على هذا النحو فى جميع أنحاء هذا المكان ؟

وقال الطبيب :

— وهذا أيضاً مما تتعذر معرفته .

ورد عليه القس :

— إنه فى إرشت هنا ينتشر انتشاراً واضحا لامرية فيه .

وقال الطبيب :

— أجل ! أجل ! إنى أظن ذلك ، إنه على كل حال شديد الشبه ببعض أنواع الأوبئة ، ولعلنا لا نبعد عن الحقيقة إذا أطلقنا عليه لفظ التضخم الوبائى .

وقال القس :

— أهو وباء ؟ أظنك لا تقصد أنه وباء معد ؟

وابتسم الطبيب ابتسامة رقيقة ومسح إحدى يديه بالأخرى وقال :

— لا أستطيع أن أبدى فى هذا رأيا قاطعاً .

وقال القس وقد اتسعت عيناه من الخوف :

— ولكنه — إذا كان معديا — ستصل عدواه — إلينا نحن !

وخطا خطوة فى الطريق ثم التفت إليه وقال :

— لقد جئت توا من هناك ، أليس الأفضل لى . . . ؟ سأذهب من فورى إلى منزلى وأغتسل وأطهر ملابسى بالبخار .

وراقب الطبيب عودة القس إلى داره برهة قصيرة ، ثم أدار هو الآخر وجهه وسار نحو منزله . . .

ولكنه ذكر فى طريقه أن إصابة قد حدثت فى القرية من شهر مضى ولم تُعد أحدا ، وبعد أن وقف لحظة متردداً لايدرى ما يفعل قرر أن يكون شجاعا رابط الجأش كما هو خليق بالأطباء ، وأن يخاطر مخاطرة الرجال .

والحق أنه كان مصيبا فى اتباع هذا الرأى الثانى . ذلك أن النمو كان آخر شىء يمكن أن يحدث له بعد اليوم . لقد كان فى مقدوره هو والقس أن يطعما هرقليوفوربيا بالقناطير دون أن يصيبهم شىء من التضخم ، فلقد مضى زمن نموهما وخلفهما وراءه أبد الدهر .

٦

وجاء ونكلز إلى ردوود بعد يوم أو بعض يوم من هذا الحديث — أى بعد يوم أو بعض يوم من حرق المزرعة التجريبية — وأطلعه على رسالة كلها سخرية وإهانة . وكانت الرسالة غفلا من التوقيع ، ولست أحب أن أذكر أنا اسم كاتبها لأن من واجبات المؤلف أن يحتفظ بأسرار من يكتب عنهم . وقال كاتب الرسالة :

«إنك تدعى لنفسك الفضل فى ظاهرة طبيعية ليس لأحد فيها فضل على الإطلاق ، وتحاول أن تعلن عن نفسك بالرسالة التى كتبتها إلى جريدة «التيمز» وأن تعلن كذلك عن طعام البدن الذى تدعيه لنفسك . فهل تسمح لى أن أخبرك أن العلاقة التى تزعمها بين هذا الطعام الذى تطلق عليه ذلك الإسم السخيف وبين الزنابير والجرذان الجبارة قد جاءت عن طريق المصادفة المحضة ؟ وحقيقة الأمر أن ثمة وباء تضخم — وباء تضخم معد — قد انتشر فى البلاد . ولست تستطيع أن تسيطر عليه إلا بمقدار ما تستطيع أن تسيطر على

الفلك الدوار ، وذلك الوباء قديم قدم الأرض وما عليها ، وقد نشأ من قبل فى أسرة أناك ، ثم نشأ فى تشيزنج أيبريت وهى بعيدة عن دائرة عملك ، فإن فيها الآن طفلا . . . »

واطلع ردوود على الرسالة وقال :

— إن يده كانت تهتز ، ولا شك فى أنه رجل عجوز ، ولكن الغريب فيها أن طفلا . . .

وبعد أن قرأ منها عدة سطور أخرى لاحت له فكرة جديدة وقال :

— أقسم أنها مسز اسكنر التى افتقدتها من زمن .

وذهب إليها فجأة فى عصر اليوم التالى .

وكانت تقطع البصل فى الحديقة الصغيرة المقابلة لكوخ ابنتها حين رأته من خلال باب الحديقة مقبلا نحوها . ووقفت لحظة مضطربة ، ثم طوت ذراعيها ووضعت حزمة البصل الصغيرة تحت ذراعها اليسرى ، ووقفت موقف الدفاع منتظرة قدومه . وانفتح فوها وانقفل عدة مرار ، ومسحت بلسانها سنتها الوحيدة الباقية ، وحيت الرجل تحية واحدة خاطفة .

وقال لها ردوود :

— لقد ظننت أننى سأجدك ، وهأنذا لم يخب ظنى .

وأجابته فى برود :

— وكذلك ظننت أنا أيضا يا سيدى .

— وأين اسكنر ؟

— إنه لم يكتب لى أبداً يا سيدى ، ولم أره منذ جئت إلى هذا المكان يا سيدى .

— ألا تعرفين ما حدث له ؟

— إنه لم يكتب لى يا سيدى .

قالت هـذا ثم اتجهت نحو اليسار كأنها تريد أن تحول بينه وبين مخزن الحبوب .

وقال ردوود :

— ألا يعرف أحد ما حدث له ؟

فأجابته مسز اسكنر :

— أعتقد أنه هو يعرف ما حدث له .

— ولـكنه لا يخبر بذلك أحدا .

وقالت مسز اسكنر :

— إنه يعنى بنفسه ، ولـكنه يترك أقرب الناس إليه وأعزهم عليه حيارى لا يعرفون عنه شيئاً . هكذا كان اسكنر رغم جده المنقطع النظير . . .

وسألها ردوود فجأة :

— وأين هذا الطفل ؟

وسألته :

— أى طفل ؟

— ذلك الطفل الذى سمعت عنه ، والذى تطعمينه طعامنا — الطفل الذى يزن ثمانية وعشرين رطلا .

وارتجفت يدا مسز اسكنر وسقط منها البصل وقالت بصوت عال :

— الحق يا سيدى أنى لا أعرف ماذا تقصد بقولك هذا . إن لابنتى مسز كادلز يا سيدى طفلا .

ثم ابتسمت له ابتسامة لا تخلو من الاضطراب الذى حاولت أن تخفيه بإدارة أنفها إلى أحد الجانبين .

وقال ردوود :

— يحسن أن ترينا هذا الطفل يا مسز اسكنر .

ونظرت إليه مسز اسكنر بإحدى عينيها وهى تسير أمامه إلى باب مخزن الغلال :

— لا يبعد يا سيدى أنه كان لدينا قليل من الطعام فى علبة صغيرة أحضرها أبوه من المزرعة ، أو قليل منه جئت به أنا من غير قصد لأننى جئت مسرعة . . .

ونظر ردوود إلى الطفل لحظة فى دهشة عظيمة .

ثم غمغم وأخذ يطقطق للطفل لحظة قصيرة .

وقال لمسز اسكنر إن كادلز جميل حقا ، وأدركت هى ما يعنيه بقوله هذا — وتركها وشأنها بعدئذ . ولم تلبث أن خرجت هى من مخزن الحبوب مظهرة عدم اكتراثها به .

وقال ردوود لمسز اسكنر :

— أما وقد بدأت تطعمينه الطعام ، فيجب عليك أن تداومى على إطعامه إياه .

ثم التفت إليها وقال لها :

— واحذرى فى هذه المرة أن يتناثر منك الطعام على الأرض .

— يتناثر منى يا سيدى ؟

— نعم وأنت تعرفين أنه قد تناثر .

ونمت عن معرفتها ذلك بحركاتها المضطربة .

— ولعلك لم تتحدثى إلى من حولك عن هذا الطعام ، كأبوى الطفل ، وصاحب الأرض ، وغيرهم من أهل هذا البيت الكبير ، والطبيب ؟ ألم تتحدثى لأحد ؟

وهزت مسز اسكنر رأسها .

وقال ردوود :

— أما أنا فلن أتحدث إلى أحد . . .

ثم ذهب إلى باب الهرى وأخذ ينظر إلى العالم من حوله ، وكان له باب من خمسة ألواح يطل على الطريق العام بين طرف القرية وحظائر للخنازير معطلة . وكان على بعد قليل منه جدار عال من الحجارة الحمراء تسلقة الالبلاب وغيره من النبات الزاحف ، وثبتت فى أعلاه قطع من الزجاج المهشم ، وعلقت عند طرف الجدار لوحة تضيئها أشعة الشمس وكتب عليها بالخط الكبير « من يخط فى هذه الغابات يعرض نفسه للمحاكمة . » وأبصر ردوود ثغرة فى السور سدت بالأسلاك الشائكة .

وغمغم ردوود بصوت حاد مرة أو مرتين .

وسمع من بعيد صهيل الخيل ، ووقع أقدامها ، وصوت عجلات ، وبعد قليل أقبل جوادان أدهمان يجران مركبة السيدة وندرشوت . ونظر الرجل إلى وجه السائق والتابع فى الثياب المزركشة ، وكان أولهما شاباً أنيقاً مملوء الجسم ، ينم مظهره على قسط كبير من الكرامة والزهو ، وإذا كان فى الناس من لا يعرفون لمناصبهم حقها ، فإن هذا السائق على الأقل كان يدرك أنه يسوق عربة السيدة العظيمة . وكان التابع الذى يجلس إلى جواره أروع الوجه مطوى الذراعين . وتبدت السيدة العظيمة نفسها تلبس قبعة غير رشيقة احتقاراً منها للرشاقة ، وتنظر إلى الطريق ومن عليها من خلال منظارها ، وكان إلى جانبها سيدتان أخريان ، تنظران إلى من فى الطريق مثل نظراتها .

وكان القس وقتئذ فى الطريق فرفع قبعته محييا ، ولكن أحداً لم يلتفت إليه .

وظل ردوود واقفاً عند الباب بعد أن مرت العربة بوقت طويل ، ويداه وراء ظهره ، يقلب الطرف بين التلال الخضراء الغبراء ، والسماء الغائمة ، والسور الذى تعلوه قطع الزجاج . وأطل من خارج السور إلى الظلال الباردة فى داخله . فرأى الطفل الجبار بين هذه الظلال التى

تبدو وكأن يد رمبراند هى التى أبدعتها . وكان عارى الجسم إلا من قميص رقيق ، وكان يجلس على كومة من الهشيم ويعبث بأصابع قدميه .

وقال فى نفسه :

— الآن بدأت أدرك ما فعلنا .

وأخذ يفكر واختلطت بأفكاره صور كادلز الصغير وابنه وأبناء كوسار .

وضحك فجأة ومرت بذهنه فكرة طارئة فقال :

— رحماك يا رب !

ثم أفاق من تفكير وخاطب مسز اسكنر بقوله :

— ومهما يكن من شىء فاست أحب أن يعذب الطفل بنقص طعامه ، إن فى مقدورنا أن نمنع ذلك على الأقل ، وسأرسل إليه علبة منه كل ستة أشهر . وما من شك فى أن هذا يكفيه .

وقالت مسز اسكنر بعد أن تلعثمت قليلا :

— ما دمت ترى ذلك يا سيدى فافعل ، وأكرر أن الطعام وصل إلى هنا خطأ . . . وأظن أن لا ضرر من إعطائه قليلا منه .

وهكذا أعلنت السيدة بألفاظها وإشاراتها المضطربة أنها فهمت ما يريد

وهكذا ظل الطفل ينمو .

وينمو .

وقالت السيدة وندرشوت يوما ما :

— لست أشك فى أنه قد أكل جميع أثوار هذا المكان ، وإذا جاء ذلك الرجل — كادلز — بأمثال هذا الطفل . . .

٧

ولكن تشيزنج أيبريت نفسها رغم عزلتها لم تبق زمنا طويلا مطمئنة إلى إيمانها بنظرية « التضخم »، معديا كان أو غير معد، بعد أن كثر اللغط حول الطعام. وأخذ الناس يتحدثون عن مسز أسكنر ويستطيلون فى عرضها، ويقولون عنها الشىء الكثير المؤلم حتى لم يبق شىء من شئونها لم يكشف الناس عنه ويتحدثوا به. واضطرها حديث الناس عنها إلى التمتمة بسنها الوحيدة الباقية فى فمها، ولم ترى فى آخر الأمر بدا من أن تحتمى منهم بضعفها، وبما أصابها من حزن على زوجها، لتستعين بالضعف وبالبؤس على قطع ألسنة السوء، وذهبت إلى مالكة المزرعة وحرصت أن تكون عيناها حين أقبلت عليها مبللتين بالدمع، وأقبلت على هذه السيدة الغاضبة وهى تمسح العرق عن يديها وقالت :

— إنك تنسين ياسيدتى العبء الذى آرزح تحته.

ثم اتبعت هذه النغمة المنذرة بما وراءها بنغمة أخرى فيها شىء من التحدى !

— أنه هو الذى أفكر فيه ليلا ونهاراً.

ثم ضغطت على شفتيها وقالت بصوت متهدج :

— إنى أرملة ياسيدتى.

وبعد هذه المقدمة القصيرة التى كانت عظيمة الأثر فى نفس السيدة الكبيرة كررت ما أكدته هى وما رفضته السيدة من قبل :

— لم يكن علمى بما أقدمه للطفل أكثر من علم أى إنسان آخر.

لكن السيدة العظيمة كانت تفكر فى غير مسز أسكنر، كانت تفكر فى أشياء تبعث على الأمل وإن كانت لم تنقطع عن توبيخ كادلز وإيذائه

بقوارص الكلام . لقد كان الرسل لا ينقطعون عن الذهاب إلى بترنجتن وردوود ، ومنهم من جاء إلى بترنجتن باسم « مستشارى المقاطعة يؤكدون عبارات أعدوها من قبل لا يتحولون قط عنها ويقولون له :

— إننا نلقى عليك يا مستر بترنجتن تبعة ما أصاب مقاطعتنا من أذى عظيم ، إنا نلقى عليك تبعة هذا كله .

وأرسلت شركة من المحامين تتخذ الأفعى شعاراً لها وتسمى نفسها شركة بانجهرست ، برون ، فلاب ، كدلن ، برون ، تدر واستكستن رسولا من قبلها ذا أنف محدد يطالب بتعويض عن إضرار أصابتها ، وجاء وكيل السيدة وندرشوت فى ثياب جميلة إلى ردوود وسأله قائلا :

— وماذا تريد أن تفعل بعد هذا يا سيدى ؟

وأجابه ردوود بقوله إنه يفكر فى الامتناع عن تقديم الطعام للطفل إذا ظل الناس يضايقونه هو أو بترنجتن على هذا النحو وأضاف إلى ذلك قوله :

— إننى لا أنال الآن من وراء ذلك شيئاً ، وسيكون صراخ الطفل من القوة بحيث يدمر قريتكم قبل أن يموت إذا منعتم عنه الطعام . إن الطفل الآن بين أيديكم ، وعليكم أن تحافظوا على حياته . إن السيدة وندرشوت لا تستطيع أن تحتفظ فى هذه المقاطعة بلقب المحسنة الكبيرة ، وملاك الرحمة ، دون أن تتحمل بعض التبعات .

ولما نبئت السيدة وندرشوت بما قاله ردوود أجابت وهى ممتعضة :

— لقد حلت الكارثة .

وقال القس أيضاً :

— لقد حلت الكارثة .

ولكن الحق أن ما حدث لم يكن إلا بداية الكارثة .

الفصل الثانى

الطفل الجبار

١

ولم يتحول القس عن رأيه فى أن الطفل الكبير كان مشوه الخلقة دميما « ولقد كان من بداية أيامه دميما كل شىء مفرط فى ناحية من النواحى . » وحالت هذه الآراء بين القس وبين الحكم الصحيح ، لكن الطفل كانت تؤخذ له صور شمسية سريعة فى كل وقت وفى كل مكان ، وكانت فى جملتها تنطق بغير ما ينطق به القس ، فقد كانت تظهره فى مبدأ حياته جميلا كثير الابتسام ، ذا شعر غزير يكاد يغطى جبهته . وكان من عادة كادلز أن يقف فى هذه الصور خلف طفله ، فكان يظهر فيها لهذا السبب ضخامة الابن وصغر الأب .

ولما أتم السنة الأولى من حياته تغيرت ملامحه ودقت ، فلم تعد كما كانت بادية الجمال ، وبدأ « يتضخم » على حد قول جده المنكود . وتغير لونه ، وصار الناس إذا رأوه يحسون أنه ضئيل رغم ضخامته ، ثم ارتخى جسمه . أما عيناه ووجهه فقد أصبحت من النوع الذى يطلق عليها الناس الملامح الدقيقة التى تحملهم على الاهتمام بها ، وتلبد شعره بعد أن قص أول مرة ، وقال طبيب المركز حين شاهده إنه بدأ يضمحل ، فهل كان منشأ ذلك الحياة التى كان يحياها الطفل فى مكان منعزل بعيد عن بنى جنسه ، معتمداً على صدقة السيدة وندرشوت وعدالتها ؟

أما الصور التى رسمت له بين الثالثة والسادسة من عمره فيبدو فيها مستدير العينين ، مسترسل الشعر ، أفطس الأنف ، تنم نظرته وشفتاه عن ابتسامة يمتاز بها كل ماأخذ من صور لجابرة الأطفال الأولين . وكان يلبس فى الصيف أثواباً فضفاضة يربطها بخيط رفيع ، ويضع على رأسه سلة من النوع الذى يجمع فيه العمال أدواتهم . وكان يسير عارى القدمين على الدوام ، ويرى فى إحدى الصور وهو يضحك ملء شدقيه ويمسك بطيخة حمراء بإحدى يديه .

أما صوره فى الشتاء فهى أقل عدداً ، ويبدو فيها أقل ظرفا . فهو يرى وفى قدميه حذاءان كبيران من خشب الزان ، وجوربان كانا فى الأصل كيسين كبيرين كما تدل على ذلك بقايا الكلمات المكتوبة عليهما وعليه سروال وسترة صنعا من بساط منقوش ، ومن تحتهما قميص لف على جسمه لفاً ، كما طويت على عنقه ست ياردات أو سبع من نسيج قطنى سميك . ولعل غطاء رأسه كان أيضاً كيسا . وكان ينظر إلى آلة التصوير مبتسما تارة ومغضباً تارة أخرى ، وكان وهو فى الخامسة من عمره مجعد الجبهة فوق عينيه الدعجاوين الرقيقتين . وكانت هذه من سماته التى امتاز بها على الدوام .

وقال القس إنه كان منذ نشأته مصدر متاعب كثيرة للقرية ، فقد كان مولعاً باللعب إلى حد كبير ، وكان طلعة وأنيساً ونهما لاينفك يطلب المزيد من الطعام وهو مايؤسف له كثيراً . وكانت تبدو عليه « شهية إجرامية » على حد قول الطبيب ، على الرغم من كرم السيدة وندرشوت « الذى جاوز الحد » ، كما قالت مسز جرينفيلد . وقد وجد الطفل أحيانا يحاول سرقة الطعام ، رغم أنه كان ينال منه أكثر مما يحتاجه الكبار ، واتخذت السيدة وندرشوت من ذلك دليلا آخر على صدق عقيدتها فى الطبقات السفلى . وكان يلتهم كل ما يستطيع أن يسرقه ، فكان يمد يده الضخمة

فوق أسوار الحديقة ، ويخطف الخبز من فوق العربات الكبيرة ويسرق الجبن من ملبنة المستر مارلو العالية ، ولم تنج منه حظيرة واحدة للخنازير . وكثيراً ماوجد الفلاحون آثار قدميه الضخمتين وآثار يديه الأثيمتين ، فى حقولهم ، فكانوا يشاهدون نبتة مقتلعة هنا وهناك ؛ وقد بلغ من خبثه أنه كان يسوى بيديه مواضع هذه النباتات ، وكان إذا تلفت ولم يجد أحداً حوله يمد يديه وهو واقف ويتناول التفاح من شجره . وقد أفادت تشيزنج أيبريت مرة من هذا النهم ، وذلك حين أكل كل ما أعطى له من حبوب طعام الآلهة . . .

وليس من ينكر أن هذا الطفل كان مصدر متاعب جمة ، وأنه كان حقا فى غير موضعه ، وكثيرا ما كان القس يقول :

— إنه لم يكن يهجع أبدا .

— ولم يكن وجوده فى المدرسة مستطاعا . أما الكنيسة فلم يكن فى مقدوره أن يدخلها لأنها لا تتسع له ، وأريد مرة أن ينفذ فى الطفل روح ذلك القانون الذى هو « أسخف القوانين وأضرها » — على حد قول القسيس — وهو قانون التعليم الإلزامى الصادر فى عام ١٨٧٠ ، وأن يرغم على الجلوس خارج نافذة حجرة الدراسة المفتوحة يستمع إلى الدروس تلقى فى داخل الحجرة ، لكن وجوده فى ذلك المكان أفسد نظام بين سائر الأطفال لأنهم لم ينقطعوا عن النظر إليه والضحك منه كلما نطق بكلمة . لقد كان صوته غريبا على آذانهم ومن أجل ذلك سمح للطفل بأن يعصى القانون .

كذلك لم يصر أهله على أن يذهبوا به إلى الكنيسة ، لأن جسمه الضخم لم يكن يعين على الصلاة والعبادة ، ولو أنهم أصروا على ذهابه لكان ذلك أسهل لهم من إصرارهم على تعليمه فى المدرسة . لقد كان ثمة أسباب قوية للظن بأن أصول العقائد الدينية كانت كامنة فى مكان ما فى جسمه الكبير ،

أو لعل الموسيقا هى التى كانت تجتذبه إلى الكنيسة ، فكثيرا ما كان يشاهد ماشيا فى المقبرة فى صبيحة يوم الأحد ، يتنقل بين القبور على مهل بعد أن يفرغ الناس من دخول الكنيسة . وكان يرى جالسا عند بابها فى أثناء الصلاة ، يستمع إلى ما يدور فيها كما يستمع الإنسان إلى أصوات النحل فى خليته .

وأظهر فى بداية الأمر شيئاً من قلة الذوق ، فقد كان من بداخل الكنيسة تارة يستمعون إلى قدميه الضخمتين تضربان الأرض أثناء الصلاة ، وكانوا تارة أخرى يرون وجهه يطل عليهم من وراء الزجاج الملون ، ولعله كان يتوق إلى معرفة ما يجرى فى داخلها ، أو لعله كان يحسد من فيها على حظهم من العبادة . وفى بعض الأحيان كانت إحدى الترنيمات تسترعى انتباهه فجأة ، فكان يخور مع المنشدين بصوته الضخم ، ويحاول أن يشارك المرتلين فى ترتيلهم . فإذا فعل ذلك خرج إليه سليت الصغير محرك مفتاح أرغن الكنيسة ، وقند لفتها وخادمها ، وضارب ناقوسها فى أيام الآحاد ، وموزع بريد القرية ومنظف مداخنها طول الأسبوع . وكان سليت هذا يسرع إليه فى جرأة عظيمة ويطرده شر طردة . ولست أحب أن يغمط سليت هذا فضله ، فقد كان متحمسا لدينه فى أوقات تفكيره الهادئ على الأقل ، وكثيراً ما قال لى إن فعلته هذه شبيهة بطرد الكلب إلى الدار حين يريد صاحبه الرياضة فى مكان بعيد .

وكانت الدروس العلمية والمبادئ الخلقية التى يتلقاها كادلز محددة واضحة وإن كانت منقطعة ، فقد اتفق القس والأم والعالم كله من بداية الأمر على أن يفهموه أنه لم يعط قوته الجباره ليستخدمها ، وأنها كارثة حلت به ، وأن من واجبه أن يصبر عليها صبر الكرام . وكان يطلب إليه أن يعنى بما يقال له ، وأن يصدع بما يؤمر ، وأن يحذر من كسر شئ أو إتلاف شئ . وكان يطلب إليه بنوع خاص ألا يطأ بقدمه شيئاً أو يصدم بكتفيه شيئاً ،

أو يقفز من فوق شئ ، وكان عليه أن يحيي الناس ويحترمهم ويشكر لهم ما يمدونه به من طعام وكساء . وتعلم الطفل هذا كله وفعله خاضعا ، لأنه كان بالطبيعة وحكم العادة مخلوقا قابلا للتعليم ، وكان الطعام والمصادفة المحضة هما اللذين جعلاه ضخما جبارا .

وكان فى هذه الأيام الأولى يخشى السيدة وندرشوت أشد خشية ، وقد تبينت هذه السيدة أنها تستطيع أن تتحدث إليه أحسن الحديث إذا كانت تلبس ملابس قصيرة ، وتمسك بيدها سوط الكلاب . وكانت فى أثناء حديثها تهز السوط فى يدها ، وترفع صوتها ، وتظهر احتقارها له على الدوام . ولكن القس كان فى بعض الأحيان يجعل من نفسه السيد المسيطر ، وكان هذا الرجل الضئيل الجسم الكهل المنهوك القوى يصدر إلى الطفل أوامره ويؤنبه ويقف منه موقف داود من جالوت . وزاد حجم الطفل حين بلغ السابعة من عمره حتى نسى كل من شاهده أنه لم يتجاوز هذه السن ، وأنه لم تفارقه رغبة الأطفال فى اللهو والتطلع إلى كل جديد ، واستلفات أنظار الناس إليهم ، واستدرار عطفهم وحنوهم عليهم ، واعتمادهم على غيرهم ، وخمولهم وبؤسهم اللذين لا يقفان عند حد .

وكان القس إذا خرج فى صبيحة يوم مشمس إلى طريق القرية قابل هذا الإنسان العجيب الذى لا يعرف كنهه والذى يبلغ طول قامته ثمانى عشر قدما ، فكان لا يطيق رؤيته وكأنه من المارقين الخارجين على الدين . وكان الطفل يسير فى الطريق على مهل يحدق ببصره إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى يبحث عن حاجتى الأطفال الأوليين — عن شئ يطعمه وشئ يلعب به .

وكان الطفل إذا رآه نظر إليه بعين الإجلال والتبجيل وحاول رفع يده إلى جبهته الملبدة الشعر .

وكان القس رجلا ذا خيال ، وإن كان خيالا ضيقاً بعض الضيق ، أو أنه على الأقل قد بقى له شئ من الخيال ، فكان إذا رأى كادلز الصغير صاحب

العضلات الضخمة تصور ما يمكن أن يسببه من أذى شديد إذا أصابت الطفل نوبة مفاجئة من الجنون، أو بدا له أن يطرح مظاهر التبجيل، لكنه كان فى وسعه على الدوام أن يكبح جماح خياله، ويدل على أنه شجاع بحق، إذ ليس الشجاع من لا يشعر بالخوف بل من يتغلب عليه إذا شعر به. وكان يغلظ للطفل فى القول، ويخاطبه بصوت عال ونبرات واضحة قوية، كالتى يخاطب بها المجتمعين فى الكنيسة للصلاة، وكثيراً ما كان يقول له:

— ألست ولدا طيبا يا ألبرت إدورد؟

وكان الطفل الجبار إذا سمعه انزوى بجوار الجدار واحمر وجهه خجلا وأجابه بقوله:

— نعم يا سيدى إنى أحاول أن أكون كذلك.

فيقول له القس:

— احرص على أن تكون طيبا على الدوام.

ثم يمر به مسرعا، وأقل ما يبدو عليه من مظاهر الخوف سرعة تنفسه وخفقان قلبه. لكنه كان ممن يحترمون رجولتهم، فلم يكن يلتفت قط وراءه ليرى الخطر بعد أن ينجو منه.

وكان لا يبخل على كادلز الصغير ببعض الدروس الخاصة من حين إلى حين، لكنه لم يعلمه قط القراءة لأنه لم يكن فى حاجة إليها. غير أنه لقنه ما هو أهم منها له وأعود بالنفع عليه. علمه أهم ما فى كتاب أصول الإيمان كواجبه نحو جيرانه، وعلمه الشيء الكثير عن الإله الذى لا يرحم إذا حدثته نفسه بعصيان القس او السيدة وندرشوت. وكان يلقى عليه هذه الدروس فى فناء بيته، وكان المارة يستمعون إلى صوت الصبى العالى يكرر تعاليم الكنيسة المقررة.

وكان مما علمه أن يعظم الملك ويطيعه هو وكل من يستمد سلطانه منه، وأن يخضع لأولى الأمر ولمعلميه، ولقساوسة الكنيسة ورؤسائها، وأن يحترم كل من هم خير منه ويخضع لهم.

وسرعان ما تبين أن الخيل التى لم تتعود رؤيته كانت تجفل منه كما تجفل من الجمال ، ولذلك أمر أن يتجنب السير فى الطريق العام من أوله إلى آخره ، وكان قد حرم عليه قبل ذلك أن يمر فيه بجوار قصر السيدة وندرشوت لأن هذه السيدة أبصرت فى يوم من الأيام رأسه فوق سور القصر ، ورأته يبتسم فغاظها ذلك أشد الغيظ . على أن الطفل لم يتقيد بهذا القانون مطلقا لأن الطريق العام كان دائما يستهويه ، وكل ما كان للقانون من أثر أن الطفل لم يعد يرى الطريق الذى كان يحبه ويقضى فيه معظم نهاره إلا خلسة حين تغفل عنه عين المؤمرين عليه . واضطر آخر الأمر أن يقتصر على أرض الكلأ القديم وسفوح التلال .

واست أعرف ماذا كان يفعل الطفل لو لم تكن هذه التلال قريبة منه . لقد كانت فسيحة يستطيع أن يسير فيها أميالا كثيرة ، وكان يقتطع غصون الأشجار ويصنع منها طاقات الأزهار ، وظل يفعل هذا حتى حرم عليه . وكان يمسك بالأغنام ويصفها صفوفا مستقيمة ، ويغرق فى الضحك إذا خرج بعضها من الصفوف ، وظل يفعل ذلك أيضاً حتى حرم عليه ، وأخذ يقتلع النبات من جذوره ويحتفر فى الأرض حفراً عميقة حتى حرم هذا أيضاً عليه . . .

وكان يتجول فى التلال حتى يقترب من قرية ركستون ثم لا يتعداها ، لأن عندها تبدأ الأرض المتزرعة . وكان الزراع إذا رأوه خرجوا من ديارهم وحقولهم ليطاردوه هم وكلابهم ، لأنه كان يتلف زرعهم ، ولأن جسمه الضخم وقوامه غير الممشوق كانا ينفرانهم منه . وكانوا يتهددونه بالأذى ويلوحون له بسياط الخيل ، وسمعت مرة أنهم هموا بإطلاق النار عليه . وكان يسير فى الناحية الأخرى حتى تتراءى له هكليبراو ، وكان فى وسعه إذا اجتاز برسلى هنجر أن يلمح سكة لندن وتشاثام ودوفر الحديدية . لكن الحقول المحروثة وقرية برتاب أهلها فيه كانت تمنعه أن يقترب منها .

وبعد زمن وضعت ألواح كبيرة عليها حروف حمراء تسد فى وجهه جميع السبل ، ولم يكن فى وسعه أن يقرأ عبارة « محرمة » التى كتبها الناس على هذه اللوحات الكبيرة ، ولكنه سرعان ما فهم المقصود منها . وكان ركاب القطر الحديدية فى تلك الأيام يرونه جالساً على التلال بالقرب من مقالع الطباشير التى فرض عليه فيما بعد أن يعمل فيها ، مسندا ذقنه على ركبتيه ، وكان القطار يوحى إليه بإحساس غامض من الود ، فكان فى بعض المرار يلوح له بيده الضخمة وفى بعضها الآخر يناديه محيياً تحية القرويين السذج .

وكان ركاب القطار إذا رأوه قالوا :

— ها هو ذا إنسان ضخم واحد من الأطفال البدن ، يقول الناس عنه إنه لا يستطيع أن يفعل لنفسه شيئاً ، وإنه لا فرق بينه وبين الشخص الأبله ، وإنه عبء تنوء به المقاطعة .

ويقول آخر :

— ويقولون إن أبويه فقيران .

ويقول ثالث :

— وهو يعيش مما يتصدق به عليه سادة الإقليم .

ويحدق كل واحد فى هذا الشبح الضخم الجالس على الأرض برهة من الزمن ، ثم يواصلون حديثهم عنه .

ويقول بعض المفكرين منهم :

— ولقد أحسنوا إذ منعوا صنع هذا الطعام . وهل كان يسركم أن تروا بضعة آلاف من أمثال هذا الطفل يعيشون على الصدقات ؟

وكان يوجد فى هذا الجمع عادة رجل عاقل يرد على الفيلسوف صاحب هذا القول السابق بنبرات قوية صادقة :

— إنك محق فى قولك هذا بلا ريب .

٢

ومرت بالطفل أيام سود كالتى تمر بسائر الناس .

من ذلك ما أصابه حين عطل مجرى النهر .

فقد أخذ فى بادئ الأمر يصنع قوارب صغيرة من ورق الصحف — وقد تعلم هذا الفن ولد اسپندر — ويتركها تسير مع تيار الماء ، وكأنها قبعات كبيرة تسبح فوق سطح الماء ، حتى إذا اختفت تحت الجسر الذى حرم عليه أن يتعداه ، والذى تبدأ بعده الأراضى الملحقة ببيت السيدة وندرشوت ، صرخ صرخة عالية وجرى مسرعا مخترقا حقول تورمات ليقابل قواربه عند المخاضة ، فأزعج الخنازير التى كانت تربى فى حقول تورمات ، حتى ضمرت من الجرى واستحال شحمها الطيب لحما هزيلا . وكانت قوارب الورق تسير مع التيار حتى تقترب من الحميلة الواقعة أمام بيت أيبريت وتقع عين السيدة وندرشوت على هذه الصحف القبيحة المنظر ، والتى تفسد عليها نظام المكان .

وزاد الطفل جرأة إغضاء الناس عنه وعدم أخذهم إياه بالشدة ، فتدرج من صنع القوارب إلى ممارسة هندسة السوائل ، واحتفر ميناء كبيرا الأساطيله الورقية واستخدم فى حفره بابا قديما ، واتفق أن أحداً لم يره وهو يفعل هذا فاحتفر ترعة أجرى فيها الماء حتى أغرق المكان الذى كانت السيدة وندرشوت تحتفظ فيه بحاجاتها المثلجة ، وانتهى هذا كله بأن أقام سداً فى عرض النهر صنعه بما ألقاه فيه من التراب الذى احتفره ببابه الكبير . واندفعت المياه بقوة هائلة وجرت بين الأعشاب وغمرت ملابس الآنسة سپنكس ومنصة تصويرها والصورة الملونة بالألوان المائية التى كانت قد بدأتها وعلقت عليها آمالا كبارا ، أو أنها على الأقل اكتسحت المنصة وتركت الآنسة سپنكس مبللة بالماء إلى ركبتيها تكافح لكى تصل إلى بيتها . ثم

طغت المياه على حديقة المطبخ ، واخترقت الباب الأخضر ، وجرت فى زقاق القرية حتى وصلت إلى مجرى النهر مرة أخرى عند حفرة شورت .

وارتاع لذلك القس فقطع حديثه مع حداد القرية . ولشد ما عجب حين رأى السمك المسكين وقد ألقته المياه على الأرض الجافة ، فأخذ يقفز إلى بقايا الماء الراكد فى الحفر ، وإلى ما تجمع من الأعشاب الخضراء فى مجرى النهر ، وقد كان هذا المجرى قبل ذلك بعشر دقائق لا أكثر لا يقل ارتفاع ما فيه من ماء نمير على ثمانى أقدام .

ولما رأى كادلز الصغير نتائج فعله فر إلى بيته وأقام فيه يومين كاملين وثلاث ليال ولم يبرحه إلا حين عضه الجوع ، فخرج منه ليستمع إلى شتائم أهل القرية ويصبر على أذاهم . وكانت هذه الشتائم وكان هذا الأذى أول شىء يتناسب مع جسمه الكبير فى هذه القرية السعيدة .

٣

وأخذت السيدة وندرشوت بعد هذه الحادثة تفكر فيما عساه أن تضيفه إلى ما صبته على كادلز من شتائم وما فرضته عليه من صوم ، فأصدرت أمرا عاليا خطيرا أبلغته أولا إلى كبير سقاتها ، وأبلغته إليه على حين غفلة فذعر منه أشد الذعر . وكان الرجل وقتئذ ينظف المائدة بعد الإفطار ، وكانت هى تطل من النافذة على الفناء حيث تأتى الغزلان لتتناول طعامها ، فقالت السيدة لكبير سقاتها .

— يا چوبت يجب على هذا المخلوق أن يعمل ليكسب عيشه .

ولم تكتف السيدة بإيضاح هذا الأمر لچوبت ، وقد كان ذلك سهلا عليها ، بل أوضحته أيضا إلى سائر أهل القرية ومنهم كادلز الصغير ، وأفهمتهم جميعا أنها كعادتها فى كل ما تصدره من الأوامر تعنى ما تقول . وكان مما قالته لهم جميعاً :

— يجب أن ترغموه على العمل باستمرار ، وهذا خير هدية تهدى إلى السيد كادلز .

وقال القس :

— وهو خير ما يهدى إلى الإنسانية كلها ، هذا أبسط الواجبات ، هذه هى التربية التى تنبت أطيب الثمرات .

وقالت السيدة وندرشوت :

— هذا ما أقصده بالضبط وما أقوله على الدوام . إن اليد المتعطلة نجسة . ولا يزال فى مقدور الشيطان أن يجد لها عملا خبيثا لإشغلها به ، أو أن هذا على الأقل ما يحدث بين طبقات العمال ، ونحن نلقن خادماتنا هذا المبدأ القويم . ولكن أى عمل نكلف به هذا الطفل ؟

ولقوا فى هذه المشكلة بعض الصعوبة . لقد فكروا فى أشياء كثيرة ، وأخيرا اهتدوا إلى أن فى استطاعتهم أن يستخدموه بدل العامل الذى كان ينقل الرسائل البرقية العاجلة على ظهر جواد حين كان نقل هذه الرسائل يتطلب السرعة . وكان يكلف إلى هذا بنقل بعض المتاع والحقائب وغيرها فى شبكة كبيرة أعدوها له ، وخيل إلى القوم أن الطفل يحب العمل ، لأنه كان يعده ضربا من ضروب التسلية . ورأته كنكل وكيلة السيدة وندرشوت يرفع صخرة كبيرة فى البستان ، فبدا لها أن تسخره فى قطع الطباشير من محجر عند ترسلى هانجر قرب هكليبراو . وسرعان ما نفذت هذه الرغبة ، وخيل إلى من يعنيهم الأمر أن المسألة حلت على خير وجه .

وأخذ الطفل يعمل فى المحجر وتدفعه فى البداية حماسة كحماسة الأطفال فى لعبهم ، ثم أصبح بعدئذ يعمل فيه خاضعا لسلطان العادة . وكان يقطع كتل الطباشير بنفسه ، ويضعها فى العربات ، ويدفعها محملة إلى فم المحجر ، ويجر العربات الفارغة إلى أماكنها ، وانتهى به الأمر أن كان يقوم بعمل المحجر كله بمفرده .

وقيل لى إن السيدة وندرشوت أفادت من الطفل أكبر فائدة بفصل كنكل ، وإن كان هذا لم يحل بين السيدة العظيمة وبين ما كانت تصبه من اللعنات على هذا « المخلوق » الطفيلى الضخم الذى يعيش من صدقاتها . . .

وكان يلبس فى تلك الأيام قميصا من الخيش ، وسروالا من الجلد المرقع ، وحذاءين من الخشب المقوى بالحديد ، ويسير فى العادة عارى الرأس ، ولكنه كان يلبس أحيانا شيئا يشبه الكرسى المخرق . وكان الناس يشاهدونه يغدو ويروح فى الحفرة بعزيمة ثابتة قوية ، وكان القس يمر به فى منتصف النهار وهو عائد من الكنيسة بعد أداء واجباته الدينية ، فيجده يأكل طعامه الوفير ، وظهره إلى العالم كله . وكانوا يأتونه بطعامه فى كل يوم ، ولم يكن يزيد على مقدار كبير من الحب غير المقشور ، يحمل إليه فى عربة صغيرة شبيهة بالعربات التى كان يملأها بالطباشير فى كل يوم ، فيلتهمه بعد أن يحرقه فى قين من قمائن الجير القديمة ؛ ويخلطه فى بعض الأحيان بمقدار من السكر . وكان الناس يشاهدونه أحيانا يلعق كتلة كبيرة من الملح الذى يعطى للبقر أو يبتلع كمية كبيرة من البلح بنواه ، كالذى يشاهده الإنسان على عربات اليد فى لندن . وكان إذا طاب الماء ذهب إلى المجرى الصغير القريب من القرية التجريبية المحترقة عند هكليبراو وأكب على وجهه وشرب . وكان شرب الماء بعد الطعام على هذا النحو هو الطريقة التى انتشر بها طعام الآلهة فى ذلك المكان ، فانتقل أول الأمر من الماء إلى الغاب الضخم على شاطئ النهر ، ثم إلى الضفادع الكبيرة والسمك على اختلاف أنواعه ، ثم انتشر بعد ذلك فى النبات الكثيف النامى فى طول الوادى الصغير .

وبعد سنة أو نحوها نمت ديدان الحقل المجاور لحانوت الحداد ، وتضخمت هى والخنافس — وكان الغلمان يسمونها الخنافس السيارة — حتى أخرجت السيدة وندرشوت من قصرها .

٤

ثم كان للطعام بعد ذلك بقليل أثر فى الطفل غير أثره السابق ، فقد خالف الطفل تعاليم القس التى كان يقصد بها تعويده ما يليق بزارع ضخم مثله ، وأخذ يلقى الاسئلة على من يتصل به ، ويبحث فيما حوله من الأشياء ؟ وجملة القول أنه بدأ يفكر . ولما خرج من مرحلة الصبا الى مرحلة المراهقة لم يعد يخفى على أحد أن تفكيره لم يكن كتفكير سائر الناس ، وأنه لم يكن كما يريده له القسيس . وبذل القسيس جهده ليتجاهل هذه الظاهرة المؤلمة ، ولكنه رغم تجاهله إياها كان يشعر بوجودها .

وكان تفكير الطفل يدور حول ما يشاهده حوله ، وما من شك فى أنه كان يرى من غير قصد كثيرا من نواحى الحياة البشرية المختلفة على الرغم من نظرته الواسعة إليها وعلى الرغم من الشئ الكثير الذى كان يفوته منها . واتضح له شيئا فشيئا أنه هو أيضاً بشر كسائر الناس وإن كان ضخما وسمحا ، وما من شك أيضا فى أنه أخذ يدرك بالتدريج ما حرم عليه من نواحى الحياة لانفراده المؤلم بجسمه الكبير . لقد حرم عليه جو المدرسة الاجتماعى ، وحرمت عليه الطقوس الدينية الغامضة التى كان الناس يشتركون فيها بثيابهم الجميلة على أنغام الموسيقى الشجية ، وحرم عليه الفندق وما فيه من غناء ومرح وحجرات دفئة متلألئة الأنوار ، فيها الشموع المضاءة والنار المتقدة التى كان يطل عليها من الظلام المخيم فى الخارج ، وحرم عليه الاشتراك مع الجموع الصاخبة الهائجة الحاشدة فى مشاهدة مباريات الكرة والتصفيق مع النظارة والتحمس لنتائجها التى لا يفهم كنهها . وما من شك فى أن هذه المناظر كلها كانت تستلفت نظره وتستهوى قلبه ، ويلوح أنه حين أخذ يقترب من سن المراهقة بدأ يهتم اهتماما كبيرا بشئون العشاق وتلاقيهم وعلاقاتهم التى تعد من مستلزمات الحياة .

وحدث فى يوم من أيام الآحاد ، وفى الساعة التى تشرق فيها النجوم ، وتخرج فيها الخفافيش ، وتثور فيها عواطف الحياة الريفية ، أن كان فتى وفتاة يقبل أحدهما الآخر فى إحدى حارات القرية المسماة بحارة الحب ، وهى الحارة المسورة بسور بنائى كثيف والتى تنتهى عند أبرلدج ، وقد أطلقا لعواطفهما العنان ، وظنا أنهما آمنان بعيدان عن أعين الناس ، وأن أحدا لا يستطيع رؤيتهما ، أو تعكير صفو هناءتهما ، إلا إذا كان مقبلا من الحارة نفسها ، وكان فى وسعهما أن يبصراه . ولم يخالجهما شك فى أن السور الذى يعلو من ورائهما نحو اثنتى عشرة قدما كان يقيهما أعين الناس من جهة التلال .

ثم رأيا أنفسهما على حين غفلة يرتفعان فى الهواء ويبتعدان . ولم يصدقا أعينهما فى أول الأمر .

وأدركا أن إنسانا أمسك بهما ورفع كليهما بسبابته وإبهامه من تحت إبطه ، ثم أبصرا عينى كادلز المضطربتين تنظران إلى وجهيهما ، وقد علتهما حمرة الخجل ، وانعقد لسانهما فى هذا الموقف الدقيق فلم ينبسا ببنت شفة .

وسألهما ما كادلز :

— لماذا يروق لكما فعل هذا ؟

وعلمت أنهما ظلا فى اضطرابهما حتى تذكر الفتى فتوته ، فأخذ يصرخ فى وجه كادلز ويسبه ويتوعده ، ويصب عليه اللعنات ويأمره بأن يعيدهما إلى موضعهما على الأرض ، وإلا حل به العقاب الصارم . وذكر كادلز هو أيضا ما يجب أن يتصف به من خلق حميد ، فأنزلهما إلى الأرض فى أدب وعناية شديدة ، ووضعهما متقاربين ليستطيعا العودة إلى عناقهما ، ووقف ينظر إليهما برهة من الزمن ثم اختفى فى ضوء الشفق .

وأسر لى الفتى بعد هذه الحادثة أنه شعر بخجل شديد ، وأنه لم يستطع النظر إلى وجه صاحبته بعد أن أمسكهما كادلز متلبسين . . .

— لقد كانا يقبل أحدهما الآخر .

وقال الفتى :

— أغرب ما فى الأمر أن الفتاة ألقت اللوم كله علىّ . وثارت ثائرتها ، ولم تخاطبنى بكلمة واحدة وهى عائدة إلى منزلها .

وما من شك فى أن الفتى الجبار قد أخذ فى هذه السن يبحث وينقب ، وفى أن عقله كان يلقى الأسئلة ، يلقيها على عدد قليل من الناس فى ذلك الوقت ، وكان يلقى الكثير منها فى بعض الأحيان على أمه وكانت أسئلة تحيره .

وكان كثيرا ما يأتى إلى الفناء خلف كوخ أمه ، وبعد ان يجيل نظره فى المكان بعناية باحثا عن الدجاج وصغاره ، يجلس على مهل متجها بظهره إلى مأواه ، وسرعان ما تأتيه فراخ الدجاج التى تحبه وتنقر فيما علق بثيابه من تراب الطباشير الرطب والصحاب ؛ وإذا كان الجو رطبا والريح عاصفة كانت قطة مسز كادلز التى لم تفقد قط ثقتها به تجيء وتقلص عضلاتها ، ثم تأخذ فى التنقل بين جوانب الكوخ ، ثم تصعد على سور المطبخ وتطوف به وتخرج منه ، ثم تصعد على ساقه وتعلو فوق جسمه حتى تصل إلى كتفه ، ثم تفكر قليلا ، وبعدئذ تنزل إلى الأرض ثم تصعد على كتفه مرة أخرى . وكانت أحيانا تغرس أظافرها فى وجهه لمجرد اللعب معه والمرح ، ولكنه لم يجرؤ يوما ما على أن يمسها بيده ، لأنه كان يخشى على هذا المخلوق الضعيف من يده الثقيلة . هذا إلى أنه كان يحب هذه الدغدغة من القطة . وكان بعد ذلك يجيء إلى أمه أحيانا ويسألها سؤالا محيرا . فكان يقول مثلا :

— خبرينى يا أماه ، إذا كان من صالح الإنسان أن يعمل فلماذا لا يعمل كل الناس ؟

وكانت أمه تنظر إليه وتجيبه قائلة :

— إن العمل خير لمن كان مثلنا نحن .

فكان يفكر قليلا ثم يقول :

— ولماذا ؟

وإذا لم يتلق جوابا مقنعا عن هذا السؤال كان يقول لها :

— ولم يعمل الإنسان يا أماه ؟ ولماذا أقطع أنا الطباشير وتغسلين أنت الملابس كل يوم فى حين تخرج السيدة وندرشوت فى عربتها وتسافر إلى البلاد الأجنبية الجميلة التى حرمت علينا أنا وأنت يا أماه ؟

فتجيبه مسز كادلز :

— ذلك لأنها سيدة من الأشراف .

فيطرق الشاب ويفكر تفكيرا عميقا ولكنه لا يجيب بأكثر من قوله :

— آه !

وتقول مسز كادلز .

— وكيف يستطيع الفقراء أمثالنا أن يحصلوا على طعامهم إذا لم يكن فى العالم سادة نعمل لهم ؟

وكان على الفتى أن يفكر فى هذا طويلا .

وسألها بعد ذلك :

— وإذا لم يكن فى العالم سادة موسرون يا أماه ألا يملك هذه الأشياء كلها أمثالنا أنا وأنت ؟ وإذا ملكوها . . . ؟

فإذا قال ذلك غضبت أمه ، وكانت قد أصبحت سيدة مزهوة ذات شان بعد أن ماتت مسز اسكنر . وأجابته بقولها :

— بعد أن ماتت جدتك العزيزة المسكينة لم يبق لك من يحميك . إنك إذا لم تسأل هذه الأسئلة لم تتلق إجابات كاذبة ، وإذا ما أجبتُ عن أسئلتك إجابات صريحة كان على والدك أن يغادر هذا المكان ويستطعم غير أهل هذه القرية ، أضف إلى هذا أنى لن أجد ثيابا أغسلها .

وكان الطفل يحدق فيها ويقول لها :

— حسن يا أماه ، لم أكن أريد مضايقتك
ثم يعود إلى ما كان فيه من تفكير .

٥

بعد أربع سنوات من ذلك الوقت كان الشاب يفكر أيضا حين رآه القس آخر مرة ، ولم يكن القس فى هذا الوقت رجلا ناضجاً بل كان قد تجاوز عهد النضوج ؛ وفى وسعك أن تتصور هذا الشيخ بعد أن تقدمت به السن قليلا وأصبح أقل مما كان عناية بمئزره ، وأكثر خشونة فى مظهره ؛ وضعف تفكيره وصوته ، واهتزت يداه إذا رفعهما ، وتزعزعت عقيدته ، واحتفظت عيناه ببريقهما وبهجتهما بالرغم من المتاعب التى نشأت من الطعام وحلت به وبقريته . وقد ارتاع واضطرب باله فى بعض الأحيان ولكن ذلك لم يكن يهمه . أليس هو كما كان ؟ وأليس هو حياً يرزق ؟ لقد مرت عليه فى هذه المتاعب خمسة عشر عاماً ، وهى مثل طيب للأبدية ، استحالت فيها متاعبه بمر الزمن إلى عادة مألوفة .

وكان يقول :

— لست أنكر أن القرية اضطربت أمورها واختلفت عما كانت عليه ؛ اختلفت فى أشياء كثيرة ؛ لقد كان فى وسع الغلام الصغير يوماً ما أن يقطع العشب بيديه ، أما الآن فإن الرجل القوى لا يستطيع أن يقتلعه فى بعض أجزاء المقصبة على الأقل إلا بفأس ، ولا أن يرفعه إلا برافعة ، ولا يزال أمثالنا من الشيوخ القدامى يعجبون من طول أعواد القمح النامى فى هذا الوادى ، وقد كان مجرى قديماً للنهر قبل أن تروى الأرض رياً صناعياً ، والذى بلغ خمساً وعشرين قدماً ، بعد أن كان الناس من عشرين سنة يقطعونه بالمناجل القديمة ، وينقلونه إلى دورهم على عربات اليد الصغيرة ، فى غبطة

ساذجة لا تشوبها شائبة . وكان يصحب ذلك المرح بعض الشراب وبعض الحب والغزل ، ولم تكن السيدة وندرشوت تحب هذه الأشياء الجديدة ... لقد كانت هذه السيدة المسنة المسكينة شديدة الاستمساك بالعادات القديمة ، وكنت دائماً أقول إن عليها شيئاً من مسحة القرن الثامن عشر ، ومن مظاهرها ألفاظها مثلا ، ألفاظها القوية . . .

وماتت السيدة وندرشوت أفقر مما كانت فى أيامها الأولى . ذلك أن أعواد الغاب الكبيرة نمت فى حديقتها . ولم تكن ممن يتقن فن فلاحة البساتين ، ولكنها كانت تحب أن تكون حديقتها منظمة تنمو فيها الأشياء حيث تغرسها وكما تغرسها لا تخرج عن سلطانها . . . غير أن الطريقة التى نمت بها الأشياء فى أواخر أيامها كانت طريقة جديدة مفاجئة غيرت جميع أفكارها . . . ولم تكن تحب غارات هذا المخلوق الضخم الدائمة ، وانتهى بها الأمر أن بدأت تظن أنه يطل عليها على الدوام من فوق السور . . . ولم تكن تحب أن تراه عالياً عن بيتها . . . لأن ذلك لم يكن يتفق مع تناسب الأشياء الذى كانت تحرص عليه . ألا ما أشقى تلك السيدة العزيزة ! لقد كنت أظن أنها ستعيش حتى تقضى معاً ولكن ، الخنافس الضخمة التى ظلت تضايقها سنة كاملة غيرت مجرى حياتها ، فقد خرجت هذه المخلوقات القذرة من يرقاتها الضخمة فى عشب الوادى وهى فى حجم الجرذان الكبيرة .

وزاد الطين بلة ذلك النمل الضخم ، فلما رأت أن كل شىء قد تبدل ، ولم تجد السلام والهدوء حيث هى ، اعتزمت أن تذهب إلى مونت كارلو ، ونفذت عزمها وقيل لى إنها عاشت هناك كريمة زمناً ما ، ثم ماتت فى أحد الفنادق ، ويالها من خاتمة محزنة ! . . . لقد ماتت بعيدة عن وطنها ، منفية منه . . . وليست هى الميتة التى يرى الإنسان أنها جديرة بها . . . وكيف تكون هذه الميتة جديرة بسيدة من بنات زعماء الشعب الإنجليزى . . . تقتلع من بلدها على على هذا النحو ! . . .

وقال القس قالته القديمة :

— لكن النتيجة النهائية لهذا كله ليست بذات خطر كبير . نعم إنه قد حدثت بعض المتاعب ، ولم يعد فى مقدور الأطفال أن يجروا حيث يشاءون ، وكما كان الأطفال من قبلهم يجرون ، خشية أن يعضهم النمل وغيره من الحشرات الجديدة ؛ ولكن لعل هذا كان خيراً لهم . . . ولقد كان الناس يتحدثون فى وقت ما حديث من يعتقدون أن هذا الطعام سيغير كل شىء . . . لكن ثمة شيئاً أعظم من هذه القوى الجديدة وأدوم ، شيئاً لا أعرفه بطبيعة الحال ، فلست من فلاسفة هذا الزمان الذين يفسرون كل شىء بالأثير والذرة والنشوء والارتقاء ونحوها من السخافات . إن الذى أعنيه شىء لا ترقى إليه العلوم ، شىء لا يدركه إلا العقل والحكمة — وهما غير الفهم — ، الحكمة الناضجة والطبيعة البشرية الخالدة ، ولك أن تسميه ما شئت .

ودنت ساعة القس الأخيرة .

ولم يكن الرجل يشعر بأنه استوفى حظه من الحياة ، وجال جولته المعتاده ومر بتل فارذنج كما كان يمر به فى كل يوم من عشرين عاماً ، وجاء إلى المكان الذى يرقب منه كادلز الصغير ، وأقبل على حافة الحفرة متعباً بعض الشىء ، فقد مر زمن بعد مشيته الشابة العضلية التى كانت له فى أيامه الأولى . ولم يكن كادلز فى مكان عمله هذه المرة ، فسار القس على أطراف الأجمة الضخمة الأشجار ، والتى أوشكت أن تخفى تل هانجرعن العين ، ورأى المخلوق الجبار جالساً على التل — كأنه يفكر فى العالم المحيط به . وكان كادلز جالساً القرفصاء وركبتاه مرفوعتان ، وخده على يده ، ورأسه مائل بعض الشىء ؛ وكانت كتفه متجهة نحو القس فلم ير الرجل عينيه الحائرتين ؛ وما من شك فى أنه كان غارقاً فى أفكاره ، أو أنه كان على الأقل ساكناً لا يبدى حراكاً . . .

ولم يلتفت كادلز وراءه ، ولم يعرف قط أن القس الذى كان له أكبر

الأثر فى توجيه حياته ينظر إليه النظرة الأخيرة ، بل إنه لم يعرف أن القس إلى جانبه . (وما أكثر مايفارق الناس بعضهم بعضا على هذا النحو) — وأثر فى نفس القس وقتئذ أن أحدا على وجه الأرض لا يعرف شيئاً مما يفكر فيه هذا المخلوق الجبار حين يرى أن لا بد له أن يستريح من كده . لكن القس كان أكسل من أن يواصل التفكير فى هذا الموضوع فى ذلك اليوم بنوع خاص ، ومن أجل ذلك عاد من هذا التفكير إلى تفكيره القديم المألوف .

وقال بصوت خافت :

— إن الطبيعة البشرية خالدة .

ثم عاد يخطى بطيئة إلى منزله متخذاً طريقاً لم يعد يجتاز العشب مستقيما كما كان من قبل ، بل كان يدور ويتلوى فى بعض أجزائه ليتجنب الأعشاب الضخمة . وقال فى نفسه وهو سائر :

— لا ! لم يتغير شيء ، ليست أطوال الأشياء وعروضها شيئاً ذا بال ، إن الأمور تجرى فى أعنتها .

وفى تلك الليلة نفسها ذهب إلى حيث يذهب سائر الناس ، وخرج وهو لا يعرف من غمرة هذا التغيير الخفى العجيب الذى أنفق العمر فى استنكاره ، ولم يحس فى خروجه منه بشيء من الألم .

ودفنوه فى مقبرة تشيزنج آيبريت بجوار أكبر شجرة من أشجار السرو ، وأقاموا على قبره شاهداً كتبت عليه عبارة قصيرة متواضعة — اختتمت بعبارة لاتينية معناها « إن ما حدث فى البداية يحدث الآن ، وسيستمر إلى الأبد ويحدث على الدوام » . وما أسرع ما اختفى القبر والشاهد عن أعين الناس ، إذ نمت حوله الحشائش الضخمة التى كانت أقوى من أن تحصدها المناجل أو يأكلها الضأن . وأخذ هذا النبات يزحف زحف الضباب على القرية من مراعى الوادى ، حيث كان طعام الآلهة يؤدى رسالته .

الكتاب الثالث

حصاد الطعام

الفصل الأول

العالم المتبدل

١

ظل العالم يتبدل عشرين عاما، وكانت الكثرة الغالبة من الناس ترى هذا التبدل يحدث تدريجا، وكان تبدلا عجيبا من غير شك، ولكنه لم يكن فجائيا يذهلهم ويذهب بعقولهم. غير أن رجلا واحدا على الأقل قد تكشف له كل ما تجمع فى هذين العقدين من أثر الطعام، وظهر له مفاجأة فى يوم واحد فأدهشه وذهب بلبه. ويحسن بنا أن نتحدث عن هذا الرجل فى ذلك اليوم الواحد، وأن نعرض على القارئ ما شاهده فيه.

كان هذا الرجل سجينا حكم عليه بالسجن مدى الحياة — وليست جريمته مما يهمنا — ولكن القانون أجاز العفو عنه بعد أن قضى فى سجنه عشرين عاما. وكان هذا الإنسان البائس قد غادر العالم وهو شاب فى الثالثة والعشرين من عمره، وفى صباح يوم من أيام الصيف عاد إلى عالم الكدح والنظام الساذج الذى دام طوال حياته تقريبا، وأبصرت عيناه ضياء الحرية الساطع. وكانوا قد ألبسوه ثيابا غريبة لم يتعود لبسها، وترك شعره ينمو على وجهه ورأسه عدة أسابيع، وقد أخذ من عدة أيام يرجله ويصففه. ثم وقف الآن بجسمه الجديد وعقله الجديد يُرأرىء بعينيه ويرأرئ بروحه، وقد خرج إلى العالم من جديد، يحاول عبثا أن يعتقد مالا يمكن أن يصدقه عقل، وهو

أنه أصبح فى عالم الأحياء . ولم يكن فى وسعه أن يدرك ما جد فى العالم من تغيير لايصدقه عقله ، وكان من حسن حظه أن له أخا لم ينس قط ذكرياتهما القديمة ، فجاء ليراه ويسلم عليه . وكان قد فارق أخاه وهو غلام ، فلما رآه كان رجلا ملتحيا ناجحا . وبدت عيناه نفسهما غريبتين لم يألفهما من قبل ، وأقبل الرجل هو وأخوه الغريب عن هـذا العالم على مدينة دوفر وهما لا يتحدثان فى طريقهما إلا قليلا ، ولـكنهما يشعران بأشياء كثيرة .

وجلسا ساعة من الزمان فى مكان عام يرد أحدهما على أسئلة أخيه عن هذا الشخص وذاك ، ويستعرضان آراءهما القديمة العجيبة ، ويتجاذبان أطراف الحديث فى شتى الموضوعات الجديدة ، حتى حان الوقت للذهاب إلى المحطة وركوب القطار إلى لندن . وليس يعنينا فى هذه القصة أن نعرف اسم الأخوين والأشياء الخاصة التى كانا يتحدثا عنها ، وإنما يعنينا ما وجدته النفس المسكينة من أمور جديدة فى العالم الذى كانت تألفه قبل ، والذى عادت إليه الآن ، وما طرأ عليه من تغيير كبير .

ولم يلفت نظره فى دوفر إلا شراب البيرة الطيبة التى لم يذق مثلها من قبل ، والتى أجرت الدمع فى عينيه شكرا لله على نعمائه . وقال حين شرب كأسا منهـا إنها لم تفقد شيئا من مذاقها الحلو . وكان يعتقد وقتئذ أنها أحسن كثيرا ممـا شرب طول حياته . ولما مر القطار بفولـكستون استطاع أن يفكر فى غير عواطفه وإحساساته الخاصة ، وأطل من نافذة العربة ، وأبصر ما حدث فى العالم فى غيبته .

وقال للمرة الثانية عشرة : إن الشمس ساطعة والجو جميل ، ولست أرجو خيرا منه . ولاح له لأول مرة أن نسب الأشياء فى هذا العالم قد تغيرت ، وجلس على مقعده وبدا منتعشا لأول مرة وقال :

— يا الله ! ما هذا القراص الضخم النامى على الشاطئ ، إذا كان قراصا حقا ولم أكن قد نسيت ؟

ولكنه كان قراصا حقا ، وكان من حوله أعشاب أخرى ضخمة ظنها غابا طويلا ، ورأى بينها شرذمة من الجنود الإنجليز تلبس الأردية الحمراء كالعادة ، وتتدرب على إطلاق النار حسب القواعد المقررة التى عدلت بعض التعديل على أثر حرب البوير . ثم اندفع القطار فى نفق خرج منه مسرعا إلى ملتقى للسكك الحديدية مظلم مسقف ، فأضيئت أنوار القطار كلها ، ثم سار بعد هذا فى أجمة كثيفة من النبات الزاحف امتد إليها من حديقة مجاورة ونما فى الوادى نموا عظيما . ورأى الأخوان فى ذلك المكان عددا من عربات النقل محملة بالكتل الخشبية ، وهنا سمع السجين الطليق لأول مرة عن طعام البدن .

وجاء الأخوان إلى هذا البلد الذى لم يبد عليه تغيير قط ، وشرعا يفسران ما شاهدا ، فأخذ السجين يمطر أخاه وابلا من الأسئلة السخيفة ، ولم يكن الأخ قد فكر قط فيما يسأله عنه ، بل إنه لم يكن قد كلف نفسه عناء ربط ما رأى بعضه ببعض ، فكانت إجاباته من أجل ذلك غامضة لا تشفى غليلا . وقال رداً على سؤال سأله أخوه بعد أن غاص إلى أعماق معلوماته :

— إنه طعام البدن ، ألم تسمع عنه ؟ ألم يحدثك أحد عن طعام البدن ؟ إنك تعلم ما هو طعام البدن ، وهو الذى تدور عليه الانتخابات فى هذه الأيام . هو مادة علمية من نوع ما ، ألم يحدثك أحد عنه ؟

وظن ذلك الرجل أن السجن هو الذى جعل أخاه بليد الذهن عاجزاً عن إدراك حقيقة طعام البدن .

وأخذ الأخوان يتباريان فى الأسئلة والأجوبة ، تتخللها نظرات منهما إلى النوافذ القريبة ؛ وكان اهتمام السجين بما رأى اهتماما عاما مبهماً فى أول الأمر ، ذلك أن خياله قد شغل بما عسى أن يقوله له الشيخ فلان ، وبمنظر فلان الآخر ، وبما سيقوله هو لهم ، إلى غير هذا وذاك من الأشياء التى سوف « تعرض له » . ولم يفكر فى طعام البدن أولا إلا كما يفكر الإنسان

فى فقرة يقرأها فى إحدى الصحف اليومية ، ثم ارتقى الحديث إلى موضوع مشكلة عقلية بينه وبين أخيه ، غير أن طعام البدن ظل يطغى على كل موضوع يطرقه .

وكان العالم فى تلك الأيام يسير فى مرحلة من مراحل الانتقال ، ولكنها لم تكن مرحلة متصلة الأجزاء ، بل كانت حلقات منفصلة بعضها هنا وبعضها هناك . ومن أجل هذا بدت هذه الحقيقة فى صورة حلقات من الصدمات والمفارقات ، وكان التغيير قد انتشر من أحد مراكز التوزيع فى مكان ما ، ومن مركز آخر فى مكان غيره ، فكانت البلاد لذلك السبب ملأى بالمتناقضات ، فهنا أمكنة فسيحة لم يصل إليها الطعام بعد ، وهنا أمكنة وصل إلى أرضها وهوائها فانتشرت فيهما جراثيمه وانتقلت إليهما عدواه . وكان فى هذه وتلك قوة كبرى تهدد النظام القديم الذى يجله الناس ويتشبثون به .

وكان الفرق بين القديم والجديد واضحاً أشد الوضوح وقتئذ على الخط الحديدى بين دوفر ولندن ؛ واخترقا فى أول الأمر جزءاً من الريف شبيهاً بما عرفه السجين فى عهد طفولته ، فيه حقول صغيرة مستطيلة على جوانبها أسوار من النبات ، ولا تزيد رقعتها على ما تستطيع الخيول الصغيرة أن تحرثه ؛ ومن حولها طرق صغيرة تتسع لسير ثلاث من عربات النقل متجاورة ، وتنتشر فيها أشجار الدردار والبلوط والجوز ؛ وعلى شاطئ المجارى المائية غياض صغيرة من الصفصاف ، وفى وسط الحقول أكوام من الكلأ الجاف لا تصل إلى أعلى من ركبة أحد الجبارين . وفى القرى أكواخ صغيرة ، وألواح من الزجاج ذات شكل معين ، ومضارب للبن ، وطرقات متفرقة ، وبيوت للعظماء الصغار ، بها جسور للطرق الحديدية تنمو على جانبيها الأزهار ، ومحطات ذات حدائق ، وما إلى هذا من بقايا القرن التاسع عشر المنصرم التى لا تزال تتنازع البقاء مع الحياة الضخمة الجديدة . وبين هذا كله بقاع من الأرض هبت عليها الرياح اللواقح ، فنثرت فيها بذور القراص الضخم الذى

لا تقوى على قطعه الفؤس ، والأزهار الكرية التى لا يقل قطرها عن عشر أقدام ، وترى فيها أحياناً بقايا من سيقان الخشب الضخم المحترق . وكان هذا كله بشيراً أو نذيراً بمجىء الطعام .

ويظل الأخوان سائرين عشرين ميلا أو نحوها لا يريان فيها أثراً للقمح الضخم العجيب ، والغاب الذى لا يبعد عن طريقهما أكثر من اثنى عشر ميلا وراء التلال القائمة على جانبي وادى تشيزنج آيبريت . ثم تبدأ آثار الطعام فى الظهور على الفور ، وكان أول ما استلفت نظرهما بعدئذ هو المجرى المائى العظيم عند تنبردج ، حيث بدأ يتكون المستنقع العظيم ، مستنقع مدواى ، بعد أن نما فيه نوع جديد من النبات الضخم ، ثم تبدل هذا كله وأبصرا الريف الضئيل ، حتى إذا اقتربا من لندن لاحت لهم المدينة وسط الضباب المخيم عليها ، وتعددت معالم المعركة التى خاض الإنسان غمارها للقضاء على آثار الضخامة والعظمة ، وهى آثار تأخذ فى الازدياد كلما قربنا من العاصمة الكبيرة الصغيرة .

وكان الطعام قد أخذ ينتشر انتشاراً غريباً من مواضع لا تحصى فى الطرف الجنوبى الشرقى من لندن ، وفى كل الأماكن المحيطة بمسكن كوسار وأطفاله . ومع ذلك فقد ظلت الحياة الصغيرة تسير فى مجراها العادى بين النذر التى لم يفقدها قوتها إلا ازدياد عددها المطرد ، وتعود الناس رؤيتها فى كل يوم . ولكن هذا الرجل الذى عاد إلى العالم منذ قليل رأى لأول مرة آثار الطعام القوية العجيبة . رأى أماكن محترقة سوداء ، واستعدادات للدفاع ضخمة كئيبة المنظر ، ورأى ثكنات ألف الناس رؤيتها وأصبحت جزءاً متمماً لحياتهم العادية .

وشاهد الأخوان مأساة المزرعة التجريبية تتكرر أمامهما مرة بعد مرة مكبرة أضعافاً مضاعفة ، وقد ظهرت القوة الجديدة والنتائج الجديدة أول الأمر فى شئون الحياة العرضية الصغيرة ، تحت أقدام الناس وفى الأماكن

الخربة القاحلة ، وظهرت فى غير نظام . فكانت هناك أفنية ذات رائحة كريهة ، وأعشاب ضخمة اتخذها الناس وقوداً للآلات الضخمة ، (وأقبل الناس الصغار من أماكن نائية ليشاهدوها وينفخوا القائمين عليها بدريهمات قليلة) . وأنشئت طرق للعربات والسيارات الكبيرة ، ورصفت بنسيج من ألياف القنب الضخم ، وأقيمت أبراج مجهزة بالصفارات ، ينطلق منها صوت عال مزعج ، يحذر العالم من الحشرات الضخمة إذا عادت إلى الظهور . وأعجب من هذا أن أبراج الكنائس جهزت بآلات ظاهرة تبعث الصوت عالياً إذا لاح شبح الخطر ، وأنشئت أكواخ طليت باللون الأحمر ، ووضعت فيها حاميات مسلحة بالبنادق ، تطلق النار على بعد ثلثمائة ياردة ، أخذ أفرادها يتدربون فى كل يوم على إصابة أهداف فى صورة جرذان ضخمة .

ذلك أن الجرذان الضخمة ظهرت ست مرات بعد ظهورها فى أيام اسكنر وزوجته . وكان ظهورها فى كل مرة عند مستودعات القسم الجنوبى الغربى من لندن ، وألف الناس رؤيتها فى هذا المكان كما ألف الهنود رؤية النمورة فى واد الكنج عند كلكتا .

وكان أخو السجين قد اشترى عرضا ومن غير قصد صحيفة عند ساندلنج ، واستلفتت هذه الصحيفة نظر صاحبنا نفسه فأخذها منه وفتحها ، وكان قد مضى عليه وقت طويل لم يقرأ فيه صحيفة ما ، وبدت له أوراق هذه الصحيفة أصغر حجما مما كانت عليه الصحف من قبل ، وأكثر منها عددا ، وحسبها مغايرة لها فى الحروف . ورأى فيها عدداً كبيراً من الصور تمثل أشياء غريبة لا تعنيه ، وتحتوى أعمدة طويلة لها عناوين لا يحمل معظمها إليه معنى ، كأنما كتبت بلغة لا يفهمها . ومن أمثال هذه العناوين « خطبة رائعة لمستر كترهام » و « قوانين طعام البدن » .

وسأل الرجل أخاه يريد أن يفتح معه باب الحديث :

— ومن هو كترهام هذا ؟

فأجابه أخوه .

— إنه رجل لاعيب فيه .

— أهو من السياسيين ؟

— وسيُسقط الحكومة ، وقد آن أوان إسقاطها .

— أظنه من تلك الطائفة التى كنت أعرفها والتى منها تشمبرلين وروزبرى — وأمثالهم — أليس كذلك ؟

وفى هذه اللحظة أمسك أخوه بمعصمه وأشار من النافذه .

وقال :

— أولئك هم أبناء كوسار .

ونظر السجين الطليق إلى الجهة التى أشار إليها أخوه ورأى ! وصاح وقد أخذ منه العجب كل مأخذ :

— يا إلهى !

وسقطت الصحيفة تحت قدميه ، ونسى فى دهشته كل مافيها ، واستطاع أن يرى بوضوح من خلال الأشجار ساقين متباعدتين واقفتين وقفة سهلة مريحة ، ويداً تقبض على كرة كأنها ريد أن تقذفها ، وإنسانا ضخما يبلغ طول قامته أربعين قدما ، يلتمع فى ضوء الشمس ، ويرتدى حلة من نسيج معدن أبيض ، ويتمنطق بمنطقة عريضة من الصلب . واسترعى هذا الإنسان كل انتباه السجين لحظة قصيرة ثم استلفت نظره إنسان ضخم آخر أبعد منه ، وقد وقف مستعداً لتلقى الكرة من زميله ، واتضح له أن هذه الفرجة التى بين التلال فى شمال سفن أوكس قد خصصت لأغراض أكبر مما فى الحياة العادية .

وأقيم سور ضخم حول حفرة الطباشير التى أنشئ فيها بيت هؤلاء الأبناء ؛ وكان بيتا ضخما يشبه مبانى المصريين الأقدمين بناه كوسار لأولاده بعد أن أصبح مخدعهم العظيم الأول غير صالح لهم ، وبنى خلف البيت مظلة ضخمة مظلمة يتسع مكانها لإقامة كنيسة كبيرة ، كان يتلألأ فيها نور وهاج ،

ويسمع منها صوت مطارق كبيرة . وعادت عينا السجين الطليق بسرعة إلى الكرة الضخمة ، وكانت من خشب مصمت ، عليها سيور من حديد ، ورآها تخرج من يد أحد الطفلين وتعلو فى الهواء .

ووقف الرجلان ينظران أمامهما فى دهشة ورهبة ، ولاحت لهما الكرة كأنها خابية ضخمة .

وقال السجين الطليق حين مرت بينه وبين قاذف الكرة شجرة حجبته عن عينيه برهة قصيرة .

— لقد أمسك بها .

ومر القطار بهذه الأشياء كلها فى ثوان معدودة ، ثم غادرها وسار وراء الأشجار إلى نفق تشيزلهرست .

وقال السجين مرة أخرى حين أطبق الظلام عليه وعلى أخيه :

— يا الله ! لقد كان هذا الإنسان أعلى من البيت .

وقال له أخوه وهو يهز رأسه هزة ذات مغزى :

— أولئك أبناء كوسار . أولئك هم منشأ المتاعب .

وخرجا من النفق مرة أخرى ورأيا أبراجا أخرى ركبت عليها صفارات للإنذار ، وأكواخا حمراء أخرى ، ثم رأيا البيوت الصغرى ذات الحدائق المنشأة فى ضواحى المدينة . ولم يفقد فن الدعاية الانتخابية شيئاً من قيمته فى تلك الأيام ، فكنت ترى الإعلانات المكتوبة بألوان مختلفة منتشرة من المخازن التى يخطئها الحصر ، ومن سقوف المنازل وأسوارها ، ومن أماكن أخرى لا عداد لها يسهل لصقها عليها ، ومنها ما كتب عليه « كترهام » ومنها ما كتب عليه « طعام البدن » — ومنها « قاتل المردة » ونحوها من العبارات . ورأيا معها صوراً هزليـة غريبة تمثل أولئك الأشخاص العظماء الذين مرا بهم فى طريقهما منذ دقائق معدودة ، ورأيا ملابسهم الجديدة تبرق فى ضياء الشمس .

٢

وكان فى نية الأخ الأصغر أن يعمل فى ذلك اليوم عملا عظيما ، كان فى نيته أن يحتفل بعودته إلى الحياة بأن يتعشى فى أحد المطاعم الراقية الكبرى ، وأن تتبع هذا العشاء سهرة يتمتع فيها بكل ما تستطيع الأبهاء الموسيقية أن تقدمه إليه من لهو وسرور فى تلك الأيام ، يريد بذلك أن يمحو الآثار الظاهرة من آلام السجن بما تتيحه له من المتعة الطليقة . ولكن الجزء الثانى من الخطة لم يكن كما كان يبتغيه . فقد أولمت الوليمة وجىء بالطعام ، ولكن السجين الطليق تملكته رغبة أقوى من الرغبة فى الطعام والمناظر السارة ، وأقدر منها على تحويل مجرى أفكاره عن ماضيه المؤلم . تلك هى الرغبة فى استجلاء حقيقة « طعام البدن » و « الأطفال البدن » وهذه المخاوقات الجبارة التى خيل إليه أنها تسيطر على العالم ، وقال فى نفسه :

— إننى لا أطيق هذه الأشياء ، إنى أضطرب لها أشد اضطراب .

وكان أخوه قد أوتى من سعة العقل ما يستطيع معه أن يتغاضى عما تتطلبه واجبات الضيافة المقررة فقال له :

— إنك صاحب الأمر فى هذه الليلة ، فإذا شئت فإننا سنحاول أن نشهد الاجتماع العام فى « قصر الشعب » .

وأخيراً وجد السجين نفسه بين جمع حاشد من الناس ينظر معهم من بعيد إلى مسرح صغير يضيئه نور ساطع ، وعليه فرقة موسيقية كانت من وقت قصير تضرب على الأرغن وتوقع أغنية ضج لها النظارة وأخذوا يضربون الأرض بأرجلهم استحساناً . وانتهى هذا الضرب والعزف قبل مجيئهما .

ولم يكد السجين يستقر فى مكانه ، ويفرغ من نزاع مع رجل غريب

لحوح يزاحمه ، حتى جاء كترهام ، وخرج من بين الظلال ، ووقف فى وسط المسرح . وبدا هذا السياسى قزماً صغيراً حقيراً ، وكان فى وسع الإنسان أن يشاهد فى ضياء المسرح الساطع أنفه الأقنى . وحياه الناس حينما رأوه تحية حارة بدأت من قرب المسرح وأخذت تعلو وتنتشر حتى عمت هذا الجمع كله فى داخل المكان وخارجه .

ولم يحيه أحد فى هذا الحشد الحافل كما حياه السجين ، وقد فاض الدمع من عينيه ، ولم يفرغ من تحيته إلا بعد أن بح صوته وعجز عن الصراخ . وليس فى وسعك أن تدرك ، أو تبدأ بأن تدرك ، حقيقة ما يشعر به الرجل إذا أطلق لرئتيه العنان فى جمع من الناس إلا إن كنت قد قضيت فى السجن ما قضاه هذا الرجل فيه . (ومع هذا كله فإن الرجل لم يخادع نفسه فيدعى أنه يعرف منشأ هذه العاطفة القوية .)

ثم هدأت العاصفة ، وصبر كترهام حتى انقضى هذا الضجيج ، وأخذ بعض الناس ينطقون بعبارات خافتة ويفعلون أفعالا لا معنى لها ، اصطلح الناس على أن يحيوا بها العظماء . وأخذ حديثهم يصل إلى الآذان كأنه أصوات تسمع من خلال أوراق الأشجار فى فصل الخريف ، واستمر هذا اللغط ساعة من الزمان كان كترهام فيها يتحدث حديثاً لا يستبينه أحد من الجالسين . وأخذ المستمعون يحدث بعضهم بعضا ، فمن قائل « وماذا يهم ؟ » ومن قائل : « ليت هذا الرجل الأشيب لم يأت إلى هنا » . ومن قائل : « لاتقاطعوا » . والحق أنهم جميعاً كانوا يقاطعون . فهل يحسن الاستماع إلى كترهام أحسن مما كان يسمع من قبل ؟

على أن الناس وإن لم يستمعوا إلى حديثه ، كان فى وسعه أن يروا شخصه . وكان العالم قد أتيحت له فرصة دراسة جسم كترهام وملامحه عن بعد وعلى مهل ، وكان من السهل تصويره ، وقد رسمت صورته على زجاجات المصابيح وعلى صحاف الأطفال ، وعلى الأعلام الصغيرة التى يحملها المتظاهرون

المقاومون « لطعام البدن » وعلى أنواط « طعام البدن » وعلى « حرير كترهام » و « قطن كترهام » و « قبعات كترهام » . ورسمت صورة كترهام جميع الجرائد الهزلية فى أيامه ، فكنت تراه أحياناً فى صورة بحار واقف إلى جانب مدفع قديم ، فى يده لوحة كتب عليها : « قوانين طعام البدن » وفى البحر من أمامه حيوان مشوه كتب عليه « طعام البدن » ؛ وكان أحياناً يرى فى صورة فارس مدرع ، رسم على ترسه وخوذته صليب القديس جورج ، وأمامه شخص متوحش من أكلة اللحوم البشرية يجلس بين الأقذار المتراكمة عند مدخل كهف مخيف يأبى أن يخضع « لأنظمة طعام البدن الجديدة » . وكنت تراه أحياناً فى صورة برسيوس ينقذ أندروميدا الجميلة المسلسلة (وقد كتبت على منطقتها لفظ المدنية) من وحش بحرى كتب على رقابه ومخالبه لفظ « الخارجون على الدين » . وكان يرى فى صور أخرى يطأ بقدميه « الأنانية » و « الآلية » و « الوحشية » وما إليها . ولكن جمهور الشعب كان يصوره فى صورة « جاك قاتل المردة » وتلك هى الصورة التى ارتسمت وقتئذ فى خيال السجين .

وانقطع اللغط فجأة .

وفرغ كترهام من حديثه وجلس ، وسمعت أصوات تقول : « نعم ! لا ! كترهام ! كترهام ! » وهتف له الجمع الحاشد من جديد .

وساد الجمع بعد هذا الضجيج سكون عميق لا يصدر إلا عن جمع حاشد . وليس كمثل هذا السكون سكون رجل منفرد فى برية واسعة . نعم إن سكون هذا الرجل سكون من نوع ما ، ولكنه يسمع فيه أنفاسه ، ويسمع حركاته ، ويسمع أشياء كثيرة غير أنفاسه وحركاته . أما هنا فلم يسمع شىء إلا صوت كترهام ، وهو صوت حاد واضح كأنه نور يضىء فى داخل مشكاة بعيدة سوداء . وكان كل من فى الجمع يسمعه كأنه واقف إلى جانبه .

وتأثر السجين الطليق أشد التأثر بحركات هذا الرجل الصغير الواقف

وسط هالة من الضوء وهالة من الأصوات العالية المتماوجة، تنطلق تارة وتسكن تارة أخرى؛ وجلس من خلفه على المسرح أنصاره ومؤيدوه وأمامهم المستمعون إليه، لا هم لهم إلا مشاهدة شخصه والاستماع إلى صوته.

وأخذ كترهام يتكلم على نظمنا القديمة الموقرة.

وصاح الحاضرون: «اسمعوا! اسمعوا!» وصاح السجين الطليق: «اسمعوا! اسمعوا!»، وتكلم على روح النظام والعدالة القديمة، وصاح الحاضرون: «اسمعوا! اسمعوا!» وصاح السجين الطليق فى تأثر شديد: «اسمعوا! اسمعوا!»، وتكلم على حكمة آبائنا الأولين، وعلى نمو نظمنا الموقرة نموا هادئا بطيئاً، وعلى تقاليدنا الأدبية والاجتماعية التى توائم خصائصنا القومية وتنطبق عليها كما ينطبق الجلد على اليد. وصاح السجين الطليق: «اسمعوا! اسمعوا!» وسال الدمع على خديه من فرط التأثر. والآن يريدون أن يلقوا بهذه الأشياء كلها فى مهب الريح، نعم فى مهب الريح، وذلك لأن ثلاثة من أهل لندن رأوا من عشرين عاماً أن يمزجوا فى زجاجة شيئاً لا يستطاع وصفه، أمن أجل هذا يضحى بنظام الأشياء كلها وبقُدسيتها؟ وعلا الصراخ: «لا! لا!» فإذا كانوا لا يسمحون بأن يظل هؤلاء سادرين فى غوايتهم، فلينفضوا عنهم غبار الكسل والتردد، — وهنا علت صيحة من الهتاف الشديد — نعم! فلينفضوا عنهم غبار الكسل والتردد، — وليقدموا على العمل الحاسم غير قانعين بأنصاف الحلول.

وصاح كترهام قائلا:

— لقد سمعنا أيها السادة عن أشواك صغيرة تصبح أشوا كا جبارة. إن هذه الأشواك أيها السادة فى بداية أمرها لا تفترق فى شىء عن سائر الأشواك فهى نباتات صغيرة فى مقدور اليد القوية أن تقبض عليها وتستأصلها. ولكنكم إذا تركتموها نمت وترعرعت واستغلظت، فإذا

أردتم بعد ذلك أن تقتلعوها احتجتم إلى فؤس وحبال ، وعرضتم أجسامكم وأرواحكم لأشد الأخطار ، وكلفكم عملكم هذا متاعب وآلاماً ، وقد تزهق فيه أرواح بريئة ! نعم أيها السادة ستزهق فى هذا العمل أرواح بريئة . . .

وتلت ذلك حركة ومقاطعة . ثم سمع السجين صوت كترهام مرة أخرى يرن واضحاً قوياً .

— وليس فى وسعكم أن تعرفوا شيئاً عن طعام البدن إلا من طعام البدن . . .

ثم سكت لحظة قال بعدها :

— وعليكم أن تستأصلوا الشر قبل استفحاله !

ثم سكت ومسح شفتيه ، وأعقب ذلك صياح وضجيج ، ما لبث أن أصبح عاصفة قوية من الهتاف كأن العالم كله كان يشترك فيه .

وخرج السجين الطليق من بين الجمع متأثراً أشد التأثر ، وعلى وجهه تلك الآثار التى تبدو فى وجوه من يرون حلماً أو رؤيا غريبة . لقد عرف هو وعرف كل الناس ، ولم تبق أفكاره كما كانت غامضة مبهمة . لقد عاد من سجنه إلى عالم تتملكه أزمة مستحكمة الحلقات ، ستتمخض عن حوادث جسام ، وعليه أن يضطلع بنصيبه فيها اضطلاع الرجال — الرجال الأحرار الذين يتحملون التبعات . وبدا الصراع أمامه واضحا لاخفاء فيه . فقد وقف فى ناحية أولئك الجبابرة المدرعون الذين وقعت عليهم عينه فى الصباح — وقد رآهم الآن فى ضوء غير الضوء الذى رآهم فيه وقتئذ — ووقف فى الناحية الأخرى هذا المخلوق الصغير ذو الملابس السوداء يحرك يديه وسط أنوار المسرح المتلألئة ، ينطلق لسانه بالألفاظ السلسة المقنعة ، وينفذ صوته الصغير مع ذلك إلى أعماق القلوب — كترهام « جاك قاتل المردة » يدعو الناس كلهم أن يجمعوا أمرهم ليستأصلوا الشر قبل استفحاله .

٣

وكان أطول أبنـاء الطعام قامة ، وأعظمهم قوة ، وأكثرهم تعرضا للأنظار ، أبناء كوسار الثلاثة . وأصبحت رقعة الأرض المجاورة لسفن أوكس والتى لا تزيد مساحتها على ميل أو نحوه ، تختلف أشد الاختلاف عن سائر بقاع العالم . وفى هذه البقعة كان هؤلاء الأبناء يقضون عهد صباهم ، وقد تغيرت معالمها ، وحفرت فيها خنادق ، وأقيمت فيها حظائر ، وانتشرت فيها نماذج مصنوعة تفصح عن قوة هؤلاء الأبناء ونشاطهم . وأصبح هذا المكان من زمن بعيد لا يتسع لنشاطهم ، ولما كانوا يعتزمون أن يفعلوه . وكان أكبرهم من أقدر الناس على تصميم الآلات الضخمة ذات العجلات ، وقد صنع لنفسه دراجة كبيرة لا يتسع لهـا طريق فى العالم مهما كبر ، ولا يتحملها جسر فيه مهما صلب . وبقيت هذه الدراجة حيث هى ، آلة ذات عجلات ضخمة فى مقدورها أن تقطع مائتين وخمسين ميلا فى الساعة ، ولـكنها لا يستفاد منها إلا حين يركبها صاحبها ويهتز عليها يمنة ويسرة وهى معطلة فى الفناء المزدحم . وكان هذا الشاب يعتزم أن يركب دراجته حين كان غلاما صغيرا كثير الأحلام ، لـكنها الآن قد علاها الصدأ ، وبدت الأماكن التى ذهب عنها الطلاء كأنها جراح فى جسم إنسان .

وقال كوسار له :

— إن عليك يا سنى أن تنشئ لهـا طريقا تسير فيه قبل أن تبدأ بها رحلتك .

وأخذ سنى وأخواه ينشئون فى صباح أحد الأيام طريقا حول العالم ، ويلوح أنهم توقعوا أن سوف يلقون مقاومة ، فأخذوا يعملون بعزيمة مدهشة ، ولـكن العالم تنبه إليهم فى الوقت المناسب بينما كانوا ينشئون

الطريق مستقيما نحو القناة الإنجليزية ، وبعد أن انتهوا من شق بعض أميال منه وتسويتها ورصفها . وجاءتهم جماعة كبيرة مهتاجة قبل الظهيرة وقفت أمامهم ومنعتهم أن يواصلوا عملهم . وكانت هذه الجماعة الكبيرة مؤلفة من ملاك الأرض ووكلائهم ، ومن ولاة الأمور المحليين ، والمحامين ورجال الشرطة ، ولم تخل من الجنود أنفسهم .

وقال أكبر الأولاد :

— إننا ننشئ طريقا .

وأجابه كبير المحامين :

— أنشئوا الطريق إذا شئتم ، ولكن عليكم أن تراعوا حقوق غيركم من الناس . لقد اعتديتم حتى الآن على الحقوق الخاصة لسبعة وعشرين من الملاك ، هذا عدا ما اعتديتم عليه من أملاك أحد المجالس البلدية وتسعة من المجالس الكنسية ، ومجلس إقليمى ، وأملاك مصنعين من مصانع الغاز ، وشركة من شركات السكك الحديدية . . . فضلا عن الامتيازات الخاصة التى تتمتع بها هذه الهيئات .

وعجب الابن الأوسط من أبناء كوسار من هذا الكلام .

وقال كبير المحامين :

— ومن أجل ذلك يجب عليكم أن تقفوا هذا العمل .

— ألستم تريدون طريقا كبيراً مستقيما مكان هذه الأزقة الضيقة القذرة؟

— لست أقول إن طريقاً من هذا النوع لن يكون ذا فائدة ولكن ...

وقال أكبر الأبناء وهو يجمع أدوات العمل :

— إذن لن ننشئ الطريق .

وقال المحامى :

— إنكم بالتأكيد لن تنشئوه بطريقتكم هذه .

— وكيف ننشئه إذن؟

وأجاب كبير المحامين جوابا غامضا معقدا .

وجاء كوسار الكبير والد الأبناء الثلاثة ليرى ما كان يقترفه أبناؤه من كبائر الإثم ، وأخذ يؤنبهم بشدة ويسخر منهم ويستغرق فى الضحك من فعالهم ، وبدا وكأنه قد سر غاية السرور من عملهم هذا ، ثم صرخ فى وجههم قائلا :

— لم يحن الوقت بعد للقيام بمثل هذه الأعمال . إن عليكم أن تنتظروا قليلا .

— لقد أخبرنا المحامى أن علينا أن نبدأ بإعداد تصميم للمشروع واستحضار القوى الأولية اللازمة له ، وما إلى هذا وذاك من السخافات ، وقال إن العمل يستغرق عدة سنين .

وصرخ الوالد وهو يضع يده على فمه :

— إنا نحن سنعد المشروع فى القريب العاجل أيها الولد الصغير ، فاطمئنوا ولا تخشوا شيئا ، واقضوا الآن وقتكم فى اللعب وصنع نماذج لما تريدون أن تصنعوه من الأشياء فى المستقبل . إن ذلك خيراً لكم .

وفعل الأبناء ما أمرهم به والدهم كما يفعل الأبناء البررة .

ولكن أبناء كوسار رغم هذا فكروا قليلا .

وقال ثانيهم لأولهم :

— هذا كله حسن ، ولكنى لا أحب أن أقضى وقتى كله فى اللعب ورسم الخطط ؛ إنى أحب أن أعمل شيئاً إيجابياً ، إننا لم نخلق فى هذا العالم ولم نعط ما أعطينا من قوة لنلعب فى هذه البقعة القذرة من الأرض ، ونتنزه قليلا ونبتعد عن المدن العامرة (ذلك أنهم كانوا وقتئذ قد حرم عليهم أن يدخلوا المدن الكبيرة أو يقتربوا منها) . إن البطالة شر ما فى ذلك شك . أليس فى وسعنا أن نعثر على شىء يريده الناس الصغار فنعمله لهم لنسلى أنفسنا ، وندفع عنها الملل بعمله ؟

وقال الابن الثانى :

— إن كثيرين منهم لا يجدون بيوتا يسكنون فيها ، فلنبن لهم إذن بيتا قريبا من لندن يتسع لأكداس منهم فوق أكداس ، ويكون مع ذلك ظريفاً مريحا ، ولننشئ لهم طريقاً جميلا صغيراً يسلكونه إلى حيث يعملون ، ولنجعله طريقاً صغيراً مستقيما ظريفا ، وسيكون بيتهم نفسه ظريفاً أنيقا ينجيهم من هذه الحياة القذرة الحيوانية التى يحياها الكثيرون منهم فى هذه الأيام . وسيكون لهم فيه من الماء ما يكفى لنظافتهم ، فأنت تعلم أنهم الآن قذرون ليس فى بيوتهم منه إلا القليل ؛ وسننشئ حمامات فيه يستحم فيها هؤلاء الأناس الصغار النتنون ، وأنت ترى الآن أن تسعة أعشار هذه البيوت خالية من الحمامات وأن الذين لهم حمامات فى بيوتهم لا هم لهم إلا الإساءة إلى من ليس لهم حمامات ، وتعييرهم بذلك — ويسمونهم العظماء القذرين — بدل أن يعينوهم على سد هذا النقص . أما نحن فسنغير هذا ؛ وسنسخر لهم الكهرباء فى الإضاءة والطهى وتنظيف البيوت وفى كل ما تستطيع أن تؤديه لهم من الأعمال ، ألست ترى الآن نساءهم اللاتى سيصبحن أمهات يزحفن على الأرض ويغسلنها بأيديهن ؟ إن فى وسعنا أن نعمل هذا كله ، وأن نتقن عمله ، وفى وسعنا أن ننشئ سدا كبيرا فى ذاك الوادى بين هذه التلال القائمة ، ونتخذ منه خزانا كبيرا نستخدمه فى توليد الكهرباء ، ونجعله كله حسن الصنع جميل الشكل . أليس هذا فى مقدورنا يا أخى ؟ . . . ولعلهم بعد هذا يسمحون لنا أن نصنع لهم أشياء أخرى .

وأجابه الأخ الأوسط قائلا :

— بلى ! إننا نستطيع أن نجعله حسن الصنع جميل الشكل .

وقال أخوه الثانى :

— إذن فلنبدأ عمله .

وقال الأخ الأوسط :

— لا أرى ما يمنعنا أن نبدأه الآن .

ونظر حوله باحثا عن عدة صالحة .

وأحدث هذا العمل متاعب جديدة .

فقد انقضّت عليهم فى أسرع من لمح البصر جماعات كبيرة من أصناف مختلفة صاخبة مضطربة هائجة ، تطلب إليهم لغير سبب معقول أن يمتنعوا عن العمل . قال بعضهم إن البناء الذى يقيمونه مرتفع فوق ما يجب ولهذا فإنه غير آمن . وقال آخرون إنه قبيح المنظر ، وإنه يعطل تأجير البيوت المناسبة الحجم المجاورة له . وقالت طائفة أخرى إنه لا يوائم الأمكنة المجاورة له ، وإنه يخل بقواعد حسن الجوار ، ويخالف لوائح البناء ، وفيه اعتداء على حقوق السلطات المحلية فى استخدام المحطات الكهربائية الحقيرة التى تديرها هى ، ويضر بمصالح شركة المياه فى الإقليم .

وتقدمت لجنة تمثل كتبة الحكومة فى هذه الجهة باعتراضات قضائية . وجاءهم المحامى الصغير مرة أخرى نائبا عن عدد كبير من المصالح التى يعرضها المشروع لأشد الأخطار . وقام فى وجهه ملاك الأراضى ، وتقدمت طوائف لا حصر لها تطالب بتعويضات باهظة لأضرار لم تصب بها ، ورفعت نقابات حرف البناء كلها عقيرتها بالاحتجاج الشديد ، ووقفت فى سبيله جماعات لا تحصى من تجار مواد البناء ، وقامت طوائف كثيرة عجيبة من أصحاب الذوق الفنى تعترض على بناء البيت وإقامة السد ، لأنهما يشوهان منظر المكان ويؤذيان ما اختص به أفرادها من إحساس بالجمال . وقال أبناء كوسار إن هذه الطائفة شر الطوائف على الإطلاق . وكان البيت الجميل الذى أراد هؤلاء الأبناء أن يقيموه أشبه بعصا ضرب بها عش الزنابير فى غير الوقت الملائم .

وقال الابن الأوسط :

— إنى لم أفعل قط شيئاً

وقال الثانى :

— ليس فى مقدورنا أن نواصل العمل .

وقال الثالث :

— إن هؤلاء حيوانات لا تعقل ، وليس فى وسعنا أن نفعل لهم شيئاً ولو كان يراد به خيرهم وهناءتهم ، ولقد كنا نعتزم أن نهيئ لهم بيتا نظيفا .

وقال أكبر الأولاد سنا :

— يلوح أنهم يقضون حياتهم السخيفة الحقيرة فى إقامة العراقيل بعضهم فى وجه بعض . إنهم يتحدثون عن الحقوق والقوانين والنظم وغيرها من ضروب الخبث والخداع . . . وهم من أجل هذا سيبقون فى بيوتهم الصغيرة القذرة الحقيرة فترة أخرى ، فقد اتضح أننا لا نستطيع الاستمرار فى هذا العمل .

وترك أبناء كوسار ذلك المنزل العظيم قبل أن يتموه ، تركوه وليس فيه إلا حفرة الأساس هنا وبداية جدرا هناك ، وعادوا إلى بيتهم الضخم مرة أخرى . ولم تلبث حفرة الأساس أن امتلأت بالماء الآسن والأعشاب والحشرات « والطعام » ألقاه فيها أبناء كوسار أنفسهم ، أو جاءت به الريح ! وبدأ فيه النماء الضخم بمظاهره المألوفة ، وخرجت منه الجرذان المائية ونشرت الفساد والأذى فى الإقليم كالعادة ، وأبصر أحد الزراع يوما خنازيره تستقى من هذا الماء ، فأسرع إليها من فوره وذبحها جميعاً لأنه تذكر ماحدث لخنزير كبير كان يملكه أوكهام . وخرج البعوض من البركة العميقة ، وكان بعوضاً ضخماً مروعاً ؛ وكانت النتيجة الطبيعة الوحيدة التى أدى إليها انتشاره أن عض أبناء كوسار فلم يطيقوا صبراً عليه ، واختاروا ليلة مقمرة غفل عنهم فيها القانون والنظام ، ونزحوا ماء البركة كله فى النهر بقناة احتفروها لهذا الغرض .

ولكنهم تركوا الأعشاب الكبيرة ، وجرذان الماء الكبيرة ، وكثيراً

غيرها من الأشياء الكبيرة الكريهة تعيش فى البركة وتنمو وتتوالد حيث اختارت ان تعيش ، أى حيث أراد أبناء كوسار أن يقيموا بيتاً جميلا عظيما يناطح السماء ، ويأوى إليه الآدميون صغار الأجسام والأحلام .

٤

حدث ذلك والأبناء غلمان ولكنهم أصبحوا الآن رجالا او قريبين من الرجال ، يشعرون بثقل الأغلال التى قيدوا بها ، والتى كانت تزداد ضيقا عاماً بعد عام . لقد أخذت أجسامهم وعقولهم تنمو وتعظم ، وأخذ الطعام ينتشر ، وأخذت الأحداث الجسام تتوالى وتزداد ، والأمور تتعقد يوماً بعد يوم . لقد كان الطعام فى أول الأمر بعيداً كل البعد عن الكثرة الغالبة من الناس ، وكانت هذه الكثرة تدهش أشد الدهشة إذا سمعت به . أما الآن فقد أصبح قريب المنال من كل بيت ، وأخذ يهدد نظام الحياة العام بالانقلاب ، بل إنه بدأ يقلبه بالفعل ، ويبدل الحاصلات الطبيعية ، ويخرج الناس بالآلاف ومئات والآلاف من أعمالهم العادية ، ويجتاز حدود الدول ، ويقلب التجارة العالمية رأساً على عقب . فلا عجب إذا أبغضه الناس أشد البغض .

والناس يكرهون الاحياء أكثر من كرههم الجماد ، ويكرهون الحيوان أكثر من النبات ، ويكره بعضهم بعضاً أشد مما يكرهون الحيوان . ومن أجل هذا تجمع الخوف والاضطراب الناشئان من نبات القراص الضخم والعشب الطويل والحشرات المروعة والجرذان الجبارة ، تجمع هذا الخوف والاضطراب حتى أصبح قوة من البغض عظيمة ، أنصبت كلها على رؤوس هذه الطائفة المتفرقة من بنى الإنسان ، طائفة أبناء الطعام ، وأصبحت محور الشئون السياسية فى تلك الأيام ؛ ولم تحل الفوارق الحزبية دون تجمع هذه

القوى ، بل تخطت هذه الفوارق ومحتها من الوجود ، وتركز النزاع كله بين طائفتين ، طائفة المعتدلين الذين يرون الاستعانة بالساسة الصغار على تنظيم شئون الطعام والإشراف عليه ، وطائفة الرجعيين المتطرفين أتباع كترهام ، وكانوا أشد من الأولين حقداً وأكثر منهم فى حديثهم غموضا ، يكشفون أحياناعن نواياهم بألفاظ من الوعيد مختلفة ، فتارة يقولون : « إن هذا النماء الخبيث يجب أن تنتقص أطرافه ، وأن تقلم أظفاره » ، وطورا يقولون : « إن هذا الداء داء الفيل تجب معالجته » . ولما قرب موعد الانتخابات العامة أخذوا يقولون : « إن هذا الشر يجب أن يجتث من أصله » .

وجلس أبناء كوسار الثلاثة فى يوم من الأيام وأخذوا ينظرون إلى أعمالهم عديمة النفع ، ويتحدثون كعادتهم عن هذه الأشياء كلها بعد أن ودعوا عهد الشباب وبلغوا مبلغ الرجال . وكانوا قد قضوا النهار كله يحفرون خندقاً من تلك الخنادق الكثيرة العظيمة المعقدة التى أمرهم أبوهم أن يحفروها . ولما غربت الشمس جلسوا فى حديقتهم الصغيرة أمام البيت الكبير ، ينظرون إلى العالم من حولهم ، ويستريحون من عناء عملهم ، حتى يعد لهم الخدم الصغار فى داخل البيت طعامهم .

وفى وسع القارئ أن يتصور هؤلاء الأبناء وقد بلغ طول الواحد منهم أربعين قدماً كاملة ، مضطجعين على أرض كلئة يبدو كلأها لعين الرجل العادى كأنه أعواد الغاب ، واعتدل أحدهم وشرع يزيل الطين من حذائه الضخم بقطعة من الحديد فى يده ، واضطجع الآخر على مرفقه ، وأخذ الثالث يسوى جزع شجرة صنوبر فتنطلق رائحة الخشب فى الهواء . ولم يكونوا يلبسون ثياباً من نسيج القماش ، بل كان عليهم قمصان من الجلد المفتولة ، وأردية من أسلاك الألومنيوم ، وفى أرجلهم أحذية من الخشب والحديد ؛ وكانت أزرارهم ومناطقهم من الصلب المجدول ، وكان البيت الكبير الذى يسكنونه مؤلفاً من طابق واحد ، وكان ضخماً متين البناء كبيوت المصريين

الأقدمين ، بعضه منحوت فى صخور الطباشير ، وبعضه مشيد من كتل حجرية ضخمة ، ترتفع واجهته إلى أكثر من مائة قدم ؛ وعلى بعد قليل منه كانت المداخن والعجلات ، ورافعات الأثقال ، وسقف المظلات التى كانوا يعملون فيها تعلو فى الجو وتناطح السحاب . وكان للبيت نافذة يستطيع الإنسان أن يرى منها ميزاباً تتساقط منه قطرات من الحديد الأبيض المصهور فى إناء بعيد عن الأنظار ؛ وكان يحيط بالمكان كله أسوار حصينة من التراب والحديد تمتد من قمم التلال إلى باطن الوادى . وفى وسع القارئ أن يكون لنفسه صورة من هذا كله إذا قيل له إن القطار الذى يمر بهذا المكان قادماً من سفن أوكس ثم يختفى عن العين فى النفق القريب منه يبدو إذا قيس إلى هذه الأشياء كأنه لعبة صغيرة من لعب الأطفال .

وقال واحد منهم :

— لقد حرموا علينا دخول الغابات التى بيننا وبين إجثام وقربو اللوحة التى أسقطها أخونا نكهولت نحونا بقدر ميلين أو أكثر .

وقال أصغرهم بعد أن سكت قليلا :

— إن هذا هو أقل مايستطيعون أن يفعلوه ، إنهم يحاولون أن يضعفوا قضية كترهام ويفضوا الناس من حوله .

وقال ثالثهم :

— إن عملهم هذا لا يكفى لبلوغ هذا الغرض ، ومع ذلك فنحن لا نكاد نطيقه .

— وهم يحولون بيننا وبين الاتصال بأخينا ردوود ، وشاهد ذلك أننى لما ذهبت لزيارته فى المرة الأخيرة وجدت اللوحتين الحمراوين قد زحفتا نحوى ونحوه بما يقرب من ميل فى كلا الاتجاهين ، وليست الطريق الموصلة إليه والمارة بالتلال إلا زقاقاً ضيقاً لا يتسع لشىء .

وفكر المتحدث قليلا ثم قال :

— ولا أدرى ماذا أصاب أخانا ردوود .

وقال الأخ الأكبر :

— ماذا أصابه ؟

وانتزع المتحدّث غصناً من شجرة صنوبر ثم قال :

— لقد كان يبدو عليه أنه فى غير يقظة ، وخيّل إلىّ أنه لا يستمع إلى ما أقول ، ولقد نطق بشىء عن الحب .

وضرب أصغر الأبناء بمنطقته على نعله الحديدى وقال :

— إن أخانا ردوود يحلم !

ثم سكتوا جميعاً لحظة قصيرة قال بعدها الأخ الأكبر .

— إن القيود التى يقيدوننا بها تزداد شدة وضيقاً فى كل يوم ، ولقد أضحت أكثر مما أطيق ، ولست أشك فى أنهم آخر الأمر سيرسمون خطًّا حول نعالنا ويأمروننا ألا نتعداه .

وأزال الأخ الأكبر كومة من أغصان الصنوبر بإحدى يديه وبدل موقفه وقال :

— إن ما يفعلونه الآن لا يعد شيئاً إذا قيس إلى ما سيفعلونه إذا قبض كترهام على أزمة الأمور .

وقال الأخ الأصغر وهو يضرب الأرض بمنطقته :

— إذا قبض على أزمة الأمور . . .

وقال الأخ الأكبر وهو ينظر إلى قدميه :

— وسيقبض حتما عليها .

وفرغ الأخ الأوسط من تقطيع الأغصان ، وألقى نظرة على الأسوار العالية التى تحيط بهم من كل جانب ثم قال :

— وإذن يا أخوى فسينقضى عهد شبابنا كما قال لنا أبونا ردوود من زمن بعيد ، وسيكون علينا أن نسلك مسلك الرجال .

وقال الاخ الأكبر :

— هذا صحيح ، ولكن هل تعرفون بالدقة معنى هذا القول ؟ هل تعلمون معناه بالضبط — متى حان يوم الشقاء ؟

وألقى هو الآخر نظرة على الأسوار الضخمة الساذجة المحيطة بهم ، ولكنه لم يكن ينظر إليها بالذات بل كان ينظر خلالها ومن فوق التلال إلى ماوراءها من أناس يخطئهم الحصر . وخطرت أفكار شبيهة بهذه إلى عقلى أخويه أيضاً فتمثلت لهم جميعا صور الآدميين الصغار يندفعون لقتالهم اندفاع السيل وهم ممتلئون حقداً عليهم ، لا ينقطعون عن قتالهم ، ولا يملون هذا القتال . . .

وقال الأخ الأصغر :

— إنهم صغار ولكنهم أكثر عدداً من رمال البحر .

— ولهم أذرع ولهم أسلحة ، صنعها لهم إخوتنا فى سندرلاند .

— يضاف إلى هذا يا أخوى أننا ليست لنا تجارب فى القتل ، اللهم الا ماقتلناه عمداً من الحشرات ، وماقتلناه مصادفة من المخلوقات الخبيثة الأخرى .

وقال الأخ الأكبر :

— إنى أعرف ذلك ، ولكنكما لا تجهلان من نحن ، وتعرفان أننا إذا تأزمت الأمور كان علينا أن نفعل ما يجب علينا أن نفعله .

وطوى سكينه بشدة ، وكان نصله فى طول قامة الرجل ، — وقام مستنداً على عصا متخذة من جذع شجرة صنوبر . ثم وقف ونظر إلى بيتهم الكبير ، وسقطت أشعة الشمس القرمزية على ثيابه المعدنية وعلى أزرارها التى حول رقبته ، وعلى النسيج المعدنى حول ذراعيه ؛ وخيل إلى أخيه أن الدم أخذ يقطر من جسمه فجأة . . .

وأبصر الفتى الجبار وهو واقف فى مكانه شبحا صغيراً أسود اللون واقفا فى ضوء الشمس فى الجهة الغربية على قمة السور المشرف على التل ، وكانت أطرافه السوداء تتحرك حركات لا تسر العين ، أوحت إلى عقل الفتى الجبار

أن السرعة واجبة فى تلك الساعة ؛ وأشار الفتى بعصاه الصنوبرية مجيبا عن حركات الشبح الأسود ، وصرخ صرخة عالية ردد الوادى الفسيح صداها ، وقال لأخويه على عجل : « لقـد حدث شىء ما » ، ثم سار من فوره بخطا لا تقل كل واحدة منها عن عشرين قدما ليساعد أباه .

٥

واتفق أن كان شاب من غير الجبابرة يفصح وقتئذ عما يشعر به من الحقد على أبناء كوسار ، وقد اجتاز هذا الشاب مع صديق له التلال الممتدة وراء سفن أوكس وأخذ يتحدث إلى هذا الصديق . ولما اقتربا من السور النباتى سمعا صراخا واستطاعا أن ينجيا ثلاثة عصافير فى عشها من نملتين كبيرتين هجمتا عليها ، وأطلقت هذه الحادثة لسان الشاب فقال حين وقعت عيناه على معسكر أبناء كوسار :

— أيقولون رجعية ؟ ومَن مِن الناس لا يكون رجعيا فى الأحوال القائمة فى هذه الأيام ؟ أنظر إلى هذه البقعة المربعة من أرض الله ، وقد كانت من قبل حلوة جميلة ، ولـكنها الآن مزقت شر ممزق ولوثت وأخرجت أثقالها . وانظر إلى هذه المظلات وإلى هذه العجلة الهوائية العظيمة ، وهذه الآلة الضخمة البشعة ، وإلى تلك الأسوار المرتفعة ، وانظر إلى هؤلاء العمالقة وهم جالسون يدبرون مؤامرة شيطانية خبيثة . انظر إلى الأرض كلها وإلى ما أصابها من سوء !

ونظر صديقه إلى وجهه وقال :

— أظنك كنت تستمع إلى كترهام .

— بل كنت أبصر بعينى . كنت أنظر قليلا إلى السلم والنظام اللذين كانا يسودان العالم فيما مضى ثم انطمست معالمها الآن . إن هذا

الطعام الخبيث هو آخر صورة تقمصها الشيطان الرجيم الذى ما زال يعمل على خراب العالم ودماره . فكر فيما كان عليه العالم قبل مجيئنا إليه وفيما كان عليه حين ولدتنا أمهاتنا فيه ، ثم انظر إليه الآن ! فكر فيما كانت عليه هذه المنحدرات ، وكيف كانت تبتسم تحت سنابل القمح الذهبية ، وكيف كانت الأسوار ملاى بالأزهار الصغيرة الجميلة تفرق بين هذا الإنسان المتواضع الجسم وذاك ، وكيف كانت منازل الزراع الحمراء منتشرة فى الأرض ، وكيف كان رنين أجراس الكنائس يصل إلى هذه البيوت من ذلك البرج فى أيام الآحاد ، فينشر فيها الهدوء ويدعو أهلها إلى الصلاة . والآن ترى الأعشاب الضخمة والحشرات المهولة وغيرها تنمو وتتكاثر من حولنا عاما بعد عام ، وتهاجمنا فى عقر دارنا ، وتطغى على كل ما هو مقدس وجميل فى هذا العالم . انظر الآن ! وقل لى ماذا ترى ؟

وأشار بأصبعه البيضاء ، ونظر صديقه إلى الجهة التى يشير إليها .

— ذلك أثر من آثار أقدامهم انظر إليه ، لقد احتفرت قدم واحد منهم حفرة لا يقل عمقها عن ثلاث أقدام يتعثر فيها الحصان وراكبه كأنها شرك للمسالم غير الحذر . وهنا شجرة ورد حطمت ، وهناك أعشاب اقتلعت وأشواك سحقت ، وطريق أتلفت ، وانتشر الدمار فى كل مكان . انظر إلى ما أصاب العالم على يد هؤلاء الأبناء ، وإلى ما أصاب الجمال والنظام الذى وضعه الناس لهذا العالم فى الأزمان الغابرة ، إنهم يحطمون كل شىء ، وأنت رغم هذا كله تسخر منا وتعيرنا بالرجعية ؛ وماذا تبغى غيرها ؟

— ولكن قل لى ماذا أنتم فاعلون أيها الرجعيون ؟

وقال الشاب الآخر خريج أكسفورد :

— سنقضى على الشر قبل أن يستفحل .

— ولكن . . .

وقال الشاب خريج أكسفورد بصوت عال :

— ليس هذا مستحيلا ، وكل ما نحتاجه هو اليد الباطشة والعقل المدبر والعزيمة الماضية . لقد سلكنا حتى الآن مسلكا لينا فى قولنا وعملنا . لقد قضينا الوقت فى عبث نحاول أنصاف الحلول ، وكان الطعام فى أثناء ذلك يكثر وينتشر ، ولكننا حتى فى هذا الوقت . . .

ثم سكت قليلا وقال له صديقه :

— إنك تردد أقوال كترهام ، ولكنا حتى فى هذا الوقت لم نفقد الرجاء . إن أملنا عظيم على شريطة أن نعرف بالضبط ما نبقى وما نريد أن ندمر . إن الكثرة الغالبة من الشعب فى جانبنا ، وأنصارنا الآن أكثر عددا مما كانوا من سنين قلائل ، والقانون يظاهرنا ، والدستور والنظام والمجتمع وروح الدين المقرر وتقاليد الإنسانية وعاداتها كل هذه تقف إلى جانبنا فى صراعنا مع هذا الطعام . فلماذا إذن هذه المراوغة وهذا التباطؤ ؟ ولماذا نكذب ونتحايل ؟ إننا نبغضه ولا نريده ، فلماذا إذن نُبقى عليه ؟ هل تريد أن نستكين ؟ ونستكين ولا نفعل شيئاً ، ونكتفى بالمقاومة السلبية الضعيفة إلى آخر أيام حياتنا ؟

ثم سكت والتفت إلى الناحية الأخرى وقال :

— انظر إلى أجمة القراص البعيدة ؛ إن فى وسطها بيوتا — بيوتا هجرها سكانها — وكانت فى وقت ما تقيم فيها أسرة هانئة تقضى فيها حياتها مطمئنة البال فى رغد من العيش .

ثم أشار بيده إلى حيث أبناء كوسار يشكو بعضهم إلى بعض ما أصابهم من ظلم وقال :

— وهناك !

— انظر إليهم . إنى أعرف أباهم ، وهو حيوان عالى الصوت ، ظل طوال الثلاثين السنة الأخيرة يتنقل فى عالمنا الرحيم به كالمجنون ، وكان خليقا بعالمنا ألا يرحمه . وهو مهندس ! ولكنه لا يعبأ بكل ما نعتز به فى هذه الحياة ،

لا يعبأ به قط ! فتقاليد جنسنا وبلادنا ، ومعاهدنا الكريمة ، ونظامنا المبجل ، وسيرنا الهادئ البطئ من سابقة إلى سابقة ، وهو منشأ عظمة الشعب الإنجليزى وحرية هذه الجزيرة الطيبة ، كل هذا لا يزيد على أن يكون قصة يستمع إليها ولا يعيها . فإذا تراءى له خيال موهوم عن المستقبل ظنه أعظم من كل هذه الحقائق المقدسة . . . فهو من ذلك الصنف من الناس الذين لا يبالون بأن يسير خط الترام فوق قبر أمهاتهم إذا ظنوا أن هذا الطريق هو أرخص الطرق التى يمكن أن يسير فيها خط الترام ... وتريد أن نسوى الأمور بالتراضى ، وأن نبحث عن وسيلة للتوفيق تمكنك من أن تعيش بطريقتك الخاصة كما تعيش هذه الآلة الضخمة بطريقتها أيضاً ؟ ذلك أمل لارجاء فى تحقيقه ، لارجاء فى تحقيقه ، ولست فى تفكيرك هذا إلا كمن يعقد المعاهدات مع النمورة . إنهم يريدون أشياء فظيعة مهولة ، ونحن نريدها جميلة معقولة ، فإما هذه وإما تلك ولا وسط بينهما .

— ولكن ماذا تستطيع أن تفعل ؟

— أستطيع أن أفعل الشىء الكثير ! أستطيع أن أفعل كل شىء ! فلنمح هذا الطعام من الوجود . إن أبناءه الجبابرة لا يزالون متفرقين ، ولم يكتمل نموهم بعد ، ولم يصبحوا حتى الآن قوة متحدة يعتد بها . فلنقيدهم ، ولنضع الأغلال فى أعناقهم ، ولنكم أفواههم ، ولنخرجهم من هذا العالم ، فهو إما لنا وإما لهم ، لنمح هذا الطعام ، ولنسجن من يصنعونه ، ولنفعل كل ما نستطيع فعله لنمنع كوسار من صنعه . ويخيل إلى أنك لا تدرك أننا لا نحتاج إلى أكثر من القضاء على جيل واحد — جيل واحد لا أكثر — فإذا فعلنا ذلك استطعنا — إستطعنا أن نهدم هذه المبانى الشامخة ، وأن نسوى الأرض المحفورة من آثار أقدامهم ، وأن نرفع الصفارات الكريهة عن أبراج كنائسنا ، وأن نحطم جميع مدافعنا الضخمة ، وأن نولى وجوهنا من جديد نحو نظامنا القديم ، ونحو مدنيتنا القديمة الناضجة التى هيئت لها أرواح البشر .

— إن ذلك مجهود عظيم .

— ولكنه يبذل لغاية عظيمة ، وإذا لم نبذله ؟ ألست ترى المستقبل أمامنا واضحا لا خفاء فيه ؟ إن الجبابرة يكثرون ويتضاعفون فى كل مكان ، وهم أينما وجدوا يصنعون الطعام وينشرونه ، وسينمو النبات ضخما فى حقولنا ، وستنمو الأعشاب فى أسوارنا ، والحشرات فى آجامنا ، والجرذان فى مجارى بيوتنا ، ستنمو هذه وتكثر يوما بعد يوم ، وليس ما رأيناه منها حتى الآن إلا البداية ، فسوف يثور علينا عالم الحشرات ، وعالم النبات ، ويغرق سمك البحار سفننا ، ويعلو النبات حتى يغطى بيوتنا ويخنق كنائسنا ، ويفسد نظم مدائننا ، ونصبح نحن حشرات صغيرة يطؤها الجيل بأقدامه الجبارة ، وسيقضى على الإنسانية جيل من الناس أوجدته الإنسانية . وماذا يفيد العالم من هذا كله ؟ لا شىء ! لا شىء أكثر من الضخامة ، ضخامة النبات والحيوان . ونحن الآن إذا سرنا نتحسس طريقنا وسط نذر الجيل الجديد ، وكل الذى نفعله أن نتضجر ونقول : ما أصعب هذا وما أثقله ! ثم لا نفعل بعد هذا شيئاً .

ثم رفع يده .

— فليفعلوا ما يجب عليهم أن يفعلوه ، وسأفعل أنا ما يجب علىّ أن أفعله ، إنى من أنصار الرجعية — الرجعية الجريئة التى لا تخشى شيئاً . وإذا لم تكن راغبا فى أن تتناول أنت هذا الطعام ، فليس أمامك إلا أن تكون رجعيا . لقد ظللنا طويلا نعبث ونحاول أنصاف الحلول . إن أنصاف الحلول هى عادتك ، وهى دائرة وجودك ، وهى مكانك وزمانك . أما أنا فلا ! إنى سأقاوم الطعام ، سأقاومه بكل ما أوتيت من جهد وعزيمة .

ثم زمجر رفيقه مغضبا فالتفت إليه وقال :

— فماذا أنت فاعل ؟

وقال الرفيق :

— إن هذا عمل شاق كثير معقد .

وانتفض خريج أكسفورد واضطربت أطرافه . وقال مغضبا :

— أتترك الأمور تسير فى طريقها ؟ إن الحلال بين والحرام بين ، وإن أوساط الحلول لا قيمة لها ولا فائدة ترجى منها ، فإما أن نأكل الطعام وإما أن نتلفه . إما أن نأكله وإما أن نتلفه ! ولا ثالث لهما .

الفصل الثانى

العاشقان الجباران

١

حدث فى الأيام التى كان فيها كترهام يحارب الأطفال البدن قبل الانتخابات العامة — وهى الانتخابات التى كان مقررا أن يتسلم على اثرها أزمة الحكم فى أحوال عصيبة رهيبة — حدث فى تلك الأيام أن جاءت الأميرة الجبارة من مملكة أبيها إلى إنجلترا فى ظروف قيل عنها إنها ظروف خطيرة . والقارئ يذكر أن تغذية هذه الأميرة كان لها أكبر الأثر فى حياة الدكتور ونكلز ، وفى تألق نجمه . وقد خطبت هذه الأميرة الجبارة لأمير من أمراء البيت المالك فى إنجلترا لأسباب سياسية ، — وأعدت العدة ليكون زفافها حادثا دوليا عظيم الشأن . ولكن هذا الزفاف تأخر لأسباب خفية ، وعملت الإشاعات وعمل الخيال عملهما فى قصة هذا الزواج ، وقيلت فيه أقوال كثيرة ، فقيل إن الأمير نفسه يعارض فى هذا الزواج ، ويعلن أنه لايريد أن يُسخر منه — إلى هذا الحد على الأقل — وكان الناس حين يقول هذا القول يعطفون عليه ، وهذا أهم ما كان يعنى به الناس فى هذه المسألة .

ولم تعرف هذه الأميرة بعد أن جاءت إلى إنجلترا أن فى هذه البلاد جبابرة غيرها ؛ ولعل هذا يبدو غريباً ، ولكنه هو الحقيقة التى لاريب فيها . وسبب ذلك أنها كانت تعيش فى وسط تراعى فيه كل آداب اللياقة ،

وتسيطر فيه التقاليد على كل شيء فى الحياة . ومن أجل هذا أخفوا عنها خبر الخلائق الجبارة ، وحرصوا على ألا ترى أو تسمع عن هذه الخلائق شيئاً ، أو أن يخطر لها ببال أن فى العالم أحدا غيرها من القوم الجبارين . وكان هذا شأنها حين قابلت ردوود الصغير .

ولقد كان فى مملكة أبيها أراض واسعة ، ونجاد وجبال تستطيع أن تسير فيها بكامل حريتها ، وكان إعجابها بجمال الشمس فى مشرقها ومغربها ، وبالسماء ونجومها وكواكبها ، أكثر من إعجابها بأى شيء آخر فى العالم ، فما أن جاءت إلى إنجلترا وأقامت بين الإنجليز الحريصين أشد الحرص على دمقراطيتهم وعلى ولائهم لتقاليدهم ، حتى ضيق عليها الخناق وقيدت حريتها بقيود ثقيلة . وجاء الناس جماعات منتظمة فى قطر الرحلات وفى المركبات الكبيرة ليروا هذه الفتاة الجبارة ، وجاء بعضهم على الدراجات من أماكن قاصية ، فإذا أرادت أن تتمتع بالسير على قدميها بعض الوقت كان عليها أن تصحو مبكرة ، وقد رآها ردوود أول ما رآها فى مطلع الفجر فى يوم من الأيام .

وكانت الحديقة المجاورة للقصر الذى تسكن فيه تمتد عشرين ميلا فى الجهتين الغربية والجنوبية من أبواب القصر الغربية ؛ وكانت أشجار الشاه بلوط القائمة على جانبى الطريق تعلو كثيراً عن رأسها ، وخيل إليها أن هذه الأشجار تتفتح أزهارها كلما مرت بها ، وظلت زمناً ما قانعة برؤية هذه الأزهار الجميلة واستنشاق عبيرها ، ولكنها اجتذبتها آخر الأمر إليها فأخذت كلما مرت بها تنتقى منها أحسنها ، ولذلك لم تقع عينها على الشاب ردوود إلا بعد أن اقترب منها .

وسارت الفتاة بين الأشجار وهى لا تدرى أو تظن أن الشاب الذى شاءت المقادير أن يقع حبها فى قلبه يقترب منها ، وبدت يديها بين الأغصان تنتزعها وتضمها بعضها إلى بعض ، وظنت أنها منفردة فى هذا المكان .

ثم . . .

حانت عنها التفاتة فوقعت العين على العين .

وإذا شئنا أن نعرف الأثر الذى أحدثته رؤيتها فى نفسه وجب علينا أن ندخل فى حسابنا حجم جسمه . إن ضخامة الفتاة التى تحول بين عطف أمثالنا عليها ساعة أن نراها لم يكن لها وجود فى نفسه ، فقد بدت له فتاة رشيقة جميلة ، وكانت أول فتاة على هذه الأرض تصلح زوجة له . هذا إلى أنها خفيفة الروح ، رشيقة القوام ، قليلة الثياب ، يهب عليها نسيم الصباح فيثنى ثوبها على جسمها القوى اللدن . وكانت تمسك فى يدها حزمة من أغصان الشاه بلوط المزهرة ، وقد أسفر طوق قميصها عن بياض عنقها وكتفها المستديرة ، واختلس النسيم خصلة من شعرها تدلى طرفها الذهبى على خدها ، وكانت عيناها زرقاوين ، وظلت سائرة بين الأغصان يفتر ثغرها عن ابتسامة ظريفة .

والتفتت إليه فزعة وأبصرته ، وأخذ كلاهما ينظر إلى الآخر برهة من الزمان . فأما هى فقد دهشت من رؤيته ، وظلت لحظة حائرة لا تصدق عينيها ، وراعها منظره أول الأمر وأحدث فى نفسها من الأثر ما يحدثه تصور الكائنات العلوية غير البشرية ؛ فقد خرج هذا الذى تراه على كل قانون مقرر من قوانين العالم الذى تعيش فيه . لقد كان وقتئذ شابًّا فى الحادية والعشرين من عمره ، ممشوق القدّ ، ورث عن أبيه سمرة لونه ووقاره ، وكان يرتدى ثياباً من الجلد الأسمر الأملس لاصقة بجسمه ، وجوربا داكناً يناسب لونه ؛ وكان يسير على الدوام عارى الرأس فى كل الجواء . ووقف الفتى والفتاة ينظر أحدهما إلى الآخر ، ووقفت هى ذاهلة لا تكاد تصدق عينيها ، أما هو فقد كان قلبه يدق دقات سريعة . لقد كانت هذه الساعة من الساعات التى لا تسبقها مقدمة أو استعداد ، والتى تعد من الساعات الحاسمة فى الحياة .

وكانت دهشته هو أقل من دهشة الفتاة ، ذلك أنه قضى بعض الوقت

يبحث عنها ، ولكن دقات قلبه كانت تسمع قوية سريعة ، واتجه نحوها على مهل وعيناه تحدقان فى وجهها .

وناداها :

— إنك الأميرة ، لقد أخبرنى بذلك أبى . أنت الأميرة التى تغذيت بطعام الآلهة .

وأجابته والدهشة بادية فى عينيها :

— نعم أنا الأميرة . ولكن . . . من أنت ؟

— أنا ابن من صنع طعام الآلهة .

— طعام الآلهة !

— نعم طعام الآلهة .

— ولكن . . .

وبدت الدهشة فى وجهها .

— ماذا تقول ؟ أنا لا أفهم هذا ! طعام الآلهة ؟

— ألم تسمعى عنه ؟

— أنا لم أسمع شيئاً عن طعام الآلهة هذا .

وشعرت الفتاة أن جسمها يرتعد بشدة ، وفارقت وجهها حمرته ، وقالت .

— أنا لم أعرف عنه شيئاً . أتعنى . . . ؟

وانتظر حتى تتم كلامها .

— أتعنى أن فى العالم جبابرة آخرين ؟

وكرر قوله :

— ألم تسمعى عنهم .

وأجابت وقد أخذ منها العجب كل مأخذ :

— لا !

وأخذ العالم كله وما للعالم من معنى يتغيران بالنسبة إليها من تلك اللحظة ،

وسقط غصن من أغصان الشاه بلوط التى كانت فى يدها ، وأعادت قولها وكأنها لا تفهم شيئاً . . .

— أتريد أن تقول إن فى العالم جبابرة آخرين ، وإن طعاما . . .

وتبين الفتى دهشتها وقال بصوت عال :

— ألا تعرفين شيئاً ؟ ألم تسمعى عنا ؟ وأنت التى قد جعلك الطعام من أسرتنا !

ولم يذهب عنها ما استولى عليها من الرعب الذى كان باديا فى عينيها وهما تحدقان فيه ، وارتفعت يدها نحو عنقها ثم نزلت مرة أخرى ، وقالت بصوت خافت :

— لا

وبدا لها أنها لا بد لها أن تبكى ، وإلا أغمى عليها ، ولكنها سيطرت فى الحال على نفسها وأخذت تتحدث وتفكر تفكيرا واضحا وقالت :

— لقد منعوا عنى علم ذلك كله ، فكأنى الآن فى حلم . لقد حلمت — لقد حلمت بأشياء كثيرة من هذا النوع — أما فى اليقظة — لا . خبرنى ! خبرنى ! من أنت ؟ وما طعام الآلهة ؟ حدثنى بهذا على مهل وفى وضوح . لم لم يخبرونى أنى لست وحيدة فى هذا العالم ؟

٢

وقالت له :

— حدثنى .

فأخذ ردوود يحدثها وهو مهتاج مضطرب ، وظل حديثه متقطعا إلى وقت ما عن طعام الآلهة وعن الأطفال الجبابرة المنتشرين فى أنحاء العالم .

وفى وسع القارئ أن يتصورها فى عاصفة الحب القوية ، وقد وقف كلاهما فى حياء ودهشة ، يدرك ما يقصده الآخر بعباراته المضطربة

المتقطعة التى لا يستمع منها إلا بعضها ، يكررها ويقطعها ويبدأها ويعيدها ويبتعد بها عن موضوع الحديث . وكان فى الحق حديثا عجيبا استيقظت فيه الأميرة من سبات الجهل الذى غشيها طول حياتها ، واتضح لها شيئا فشيئاً أنها ليست مخلوقا شاذا عن جميع خلق الله ، وعرفت أنها عضو فى هيئة منتشرة فى نواح كثيرة ، تغذى أفرادها كلهم بطعام الآلهة ، وخرجوا كلهم عن دائرة الخلائق الصغار الذين يدبون على الأرض تحت أقدامهم . وتحدث الشاب ردوود عن أبيه وعن كوسار وعن إخوانه المنتشرين فى البلاد وعن العهد الجديد ذى المعنى العظيم الذى لاحت تباشيره أخيرا فى تاريخ العالم وقال :

— إننا لا زلنا فى بدء البداية ، وليس العالم الحاضر إلا مقدمة للعالم الذى سيخلقه الطعام .

ويعتقد أبى — وأعتقد أنا أيضاً — أن سيأتى على العالم وقت ينمحى فيه الصغار من عالم الإنسان ، ويسير فيه الجبابرة أحراراً على وجه هذه الأرض ، أرضهم هم ، ويعملون فيها على الدوام أعمالا تزيد فى كل يوم عظمة وجلالا ، وسيكون كل هذا فى مستقبل الأيام — نعم ، سيكون كل هذا فى المستقبل ، ولسنا نحن أول جيل فى ذلك العالم الجديد ، بل نحن التجارب الأولى فى سبيل خلق هذا الجيل .

وقالت الفتاة :

— تلك كلها أشياء لم أكن أعلم عنها شيئا !

وواصل حديثه قائلا :

— وتمر بى أوقات يبدو لى فيها أننا خلقنا قبل الأوان ، نعم إن إنسانا ما يجب أن يسبق غيره إلى العالم ، ولكن العالم لم يكن مستعدا لمجيئنا ولمجىء سائر الأشياء العظيمة التى هى أقل منا شانا ، والتى اكتسبت عظمتها من الطعام . ولقد حدثت أغلاط وحدثت منازعات واتضح منها أن صغار الخلق يكرهون جيلنا . . .

وهم يقفون فى سبيلنا لأنهم صغار . . . ولأن أقدامنا ثقيلة الوطء على مقومات حياتهم ، ومهما يكن لذلك من سبب فإنهم يبغضوننا الآن ، ولا يريدون أن يبقوا على أحد منا ، ولا يعفون عنا إلا إذا عدنا صغاراً مثلهم . . .

وهم سعداء فى بيوت لا نعدها نحن إلا سجونا ، ومدنهم لا تتسع لنا ، وإذا سرنا فى طرقهم ضاقت بنا ، ولقينا من سيرنا فيها نصبا . وليس فى مقدورنا أن نتعبد فى كنائسهم . . .

وأبصارنا تصل إلى ما فوق جدرانهم وأسوارهم ، ونحن نراهم من خلال نوافذهم العليا ، ونعرف عاداتهم وأعمالهم ، وليست شرائعهم إلا شباكا حول أقدامنا . . .

وكلما تعثرنا فيها سمعناهم يصرخون ، وكلما أخطأنا فوطئت أقدامنا حدودهم أو مددنا أيدينا للقيام بعمل كبير . . .

وهم يعدون خطواتنا العادية إسراعاً وجريا ، وكل الذى يرونه عظيما وعجيبا لا يزيد على أن يكون دمى بالنسبة إلينا ؛ وإن أساليبهم الحقيرة ، وعددهم الصغيرة ، وخيالهم الضيق ، لتقف كلها فى سبيلنا وتضعف قوانا . وليس لديهم آلات تضارع قوة سواعدنا ، وليس فى وسعهم أن يعينونا على تحصيل حاجياتنا ، وهم لا يكتفون بهذا بل يضيقون علينا ، ويقيدون عظمتنا بآلاف من القيود الخفية ، وكل واحد منا أقوى من كل واحد منهم مائة مرة ، ولكننا قوم عزل ؛ وقد جعلتنا عظمتنا نفسها مدينين لهم لا دائنين ، فهم يدعون ملكية الأرض التى نقف عليها ، وهم يبهظون كاهلنا بما يتقاضونه منا ثمنا لحاجتنا الزائدة من الطعام والكساء ، ويطلبون إلينا فى نظير ذلك أن نكد ونكدح بالآلات الصغيرة التى يصنعونها لنا ، وأن نعمل لإشباع رغباتهم الصغيرة . . .

وهم يضيقون علينا بكل ما لديهم من الوسائل ، وليس فى وسعنا أن نعيش إلا إذا اخترقنا حدودهم ، ولم يكن فى وسعى أن ألقاك هنا إلا بعد أن

اجتزت حاجزاً من حواجزهم ، وهم يحرمون علينا كل ما هو معقول ومحبوب فى الحياة ، فليس لنا أن نذهب إلى المدن ، أو أن نعبر الجسور ، أو أن نطأ بأقدامنا حقولهم المحروثة ، أو مرابض صيدهم الذى يقتلونه بنيرانهم . وأنا الآن بمعزل عن جميع إخوانى عدا أبناء كوسار الثلاثة ، والطريق إلى هؤلاء الأبناء أنفسهم يضيق بى يوما بعد يوم ، ويخيل إلى أن هؤلاء الناس يتحلون المعاذير التى تمكنهم من إيذائنا والإساءة إلينا . . .

وقالت له :

— ولكننا أقوياء .

— أجل ، يجب أن نكون أقوياء . ونحن نشعر — نشعر كلنا ولست أشك فى أنك أنت أيضاً تشعرين — بأن لدينا من القوة ما نستطيع بها أن نفعل عظائم الأشياء . إن فينا قوة كامنة تضطرم فى أجسامنا ، ولكننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً إلا . . .

ولوح بيده فى الهواء كأنه يريد أن يزلزل بها العالم .

وسكتت الفتاة قليلا ثم قالت :

— لقد جال بخاطرى هذا كله رغم ظنى أنى لا رفيق لى فى هذا العالم من صنفى . ولقد كانوا يعلموننى على الدوام أن القوة تكاد تكون خطيئة ، وأن خيراً للإنسان أن يكون صغيراً من أن يكون عظيما ، وأن الأديان المنزلة كلها تحمى الضعفاء والصغار ، وتشجع الضعفاء والصغار ، وتمكنهم من أن يتكاثروا حتى يزحفوا فى آخر الأمر بعضهم على بعض ، وأن من الواجب علينا أن نضحى بقوانا كلها من أجلهم ، ولكنى . . . كنت على الدوام أرتاب فيما يعلموننى .

وقال لها :

— إن هذه الحياة لن تفنى ، وإن أجسامنا هذه لم تخلق لتموت .

— نعم إن أجسامنا لم تخلق لتموت .

— ولم تخلق لتنفق قواها فى صغائر الأمور ، فإذا لم نشأ أن ننفقها فى هذه الصغائر فإنى أنا وإخوانى لا يخالجنا شك فى أننا مقدمون على صراع عنيف . ولست أعرف ما سوف نعانيه فى هذا الصراع القريب قبل أن تسمح لنا الخلائق الصغار بأن نعيش كما ينبغى أن نعيش . لقد فكر الإخوان كلهم فى هذا ، وفكر فيه أيضاً كوسار الذى حدثتك عنه .

— ولكنهم صغار وضعاف .

— نعم إنهم صغار وضعاف ، ولكن وسائل الهلاك فى أيديهم كما تعرفين ، وقد صنعت لتلائم أيديهم ، وظل هؤلاء الناس الصغار الذين نغزو الآن عالمهم مئات الآلاف من السنين يتعلمون كيف يقتل بعضهم بعضاً ، حتى برعوا فى هذا التقتيل ، وابتدعوا فيه وسائل يتقنونها . هذا إلى أن فى وسعهم أيضاً أن يخادعوا ويخاتلوا . . . ولست أعرف . . . وسيكون بيننا وبينهم كفاح ، ولعلك أنت تختلفين عنا فى هذا . أما نحن فالكفاح بيننا وبينهم آت لا ريب فيه . . . وهذا الكفاح هو الذى يسمونه حرباً ، ونحن على علم بها ، مستعدون لها بعض الاستعداد . وغير خاف عليك . . . ويل لأولئك البشر الصغار ! غير خاف عليك أننا لا نعرف كيف نقتل ، أو على الأقل لا نريد أن نقتل .

وقاطعته قائلة :

— أنظر .

وسمع فى هذه اللحظة صوت بوق .

والتفت إلى حيث كانت تنظر فرأى سيارة صفراء لامعة يسوقها سائق فى ثياب قاتمة ، وفى داخلها قوم يلبسون فراء . وكانت السيارة تميد والسائق ينفخ فى بوقه ، وقد اقتربت من قدميه ، فحرك الفتى قدمه وواصلت السيارة سيرها بعد أن نفخ سائقها فى بوقه ثلاث نفخات غاضبة ، واتخذت طريقها إلى المدينة . وسمع الفتى قول من فى السيارة :

— إنه يسد علينا الطريق

وسمع صوت آخر يقول :

— انظر هل رأيت ؟ هذه هى الأميرة المهولة وراء الأشجار !

واتجهت وجوههم فى دهشة نحوها .

وقال شخص آخر :

— إن هذا لا يطاق . . .

وقالت الأميرة :

— إن هذا كله عجب ! بل هو أعجب من أن أصفه .

وقال لها :

— وإذا كانوا لم يحدثوك عن ذلك . . .

ولكنه لم يتم عبارته .

— لقد كنت قبل أن تجىء إلىّ أعيش فى عالم أنا فيه عظيمة وحدى — ولكنى رغم ذلك — سلكت فى هذا العالم طريقاً خاصة فى الحياة ، وكنت أظن أننى فلتة غريبة من فلتاة الطبيعة ، والآن قد تحطم هذا العالم فى نصف ساعة من الزمان ، ورأيت فى مكانه عالماً آخر ، وأحوالا أخرى ، ومستقبلا مملوءاً بالممكنات ، ورأيت رفاقاً .

وأجابها :

— رفاقاً .

وقالت له :

— وأحب أن تحدثنى أكثر مما حدثت ، وأكثر كثيراً مما حدثت . إنك تعرف دون شك أن هذا يمر بخاطرى كأنه قصة من القصص ، بل إنك أنت نفسك . . . وقد أستطيع أن أصدقك بعد يوم أو بضعة أيام أما الآن — أما الآن فإنى أحلم . . . هل تسمع ؟

ووصل إلى مسامعهم صوت الدقة الأولى من دقات الساعة المعلقة فوق

مكاتب القصر البعيد ، وعد كلاهما « سبعاً » وهو لا يدرى ما يفعل .

وقالت الأميرة :

— تلك هى الساعة التى يجب أن أعود فيها ؛ إنهم فى هذه الساعة يأتون بالقهوة إلى البهو الذى أنام فيه . وفى هذه اللحظة يهرع الموظفون والخدم الصغار إلى أداء واجباتهم الصغيرة — وليس فى وسعك أن تتصور جدهم ووقارهم وهم يؤدون هذه الواجبات .

وسيدهشون حقاً . . . ولكنى أريد أن أتحدث إليك

وفكرت ثم قالت :

— ولكنى أريد أن أفكر أيضاً . أريد الآن أن أفكر وحدى ، وأن أفكر فى هذه الأشياء التى تبدلت ، وأريد أن أمحو من أفكارى وحدتى القديمة ، وأن أدخلك أنت وزملاءك الآخرين فى عالمى . . . سأذهب ، سأرجع اليوم إلى مكانى فى القصر ، ولكننى سأعود مرة أخرى — إلى هذا المكان — فى فجر غد .

— وسأكون هنا فى انتظارك .

— وسأقضى اليوم كله أحلم بهذا العالم الجديد الذى حدثتنى عنه . بل إننى حتى فى هذا الوقت لا أكاد أصدق . . .

وارتدت خطوة إلى الوراء وأجالت بصرها فيه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، وتقابلت أعينهما وبقيت ساعة بلا حراك .

وقالت له وهى تضحك ضحكة قصيرة أشبه ما تكون بالبكاء :

— نعم إنك إنسان بحق ، ولكن ما حدثتنى عنه عجيب ! أفهل تظن — بحق — ؟ ولنفرض أننى جئت غداً فوجدتك . . . قزماً كسائر الآدميين ! . . . نعم إن علىَّ أن أفكر . وإلى اللقاء كما يقول صغار الناس .

ومدت إليه يدها ، ومس جسمه جسمها لأول مرة ، وتماسكت يداهما بقوة ، وتقابلت أعينهما مرة أخرى .

وقالت له :

— إلى اللقاء ! إلى اللقاء ! إلى اللقاء ! أيها الأخ الجبار !

وتردد قليلا قبل أن يرد تحيتها ، وفى نفسه شىء لم ينطق به ، ثم رد تحيتها آخر الأمر ، ولكنه لم يزد على أن قال :

— إلى اللقاء .

وظلا هنيهة متماسكين باليدين ، وكلاهما يدرس وجه صاحبه . ولما افترقا نظرت خلفها مراراً كأنها فى شك منه ، ولكنها كانت فى كل مرة تراه لا يزال واقفاً حيث التقيا . . .

وآوت إلى مسكنها بعد أن اخترقت بهو القصر العظيم ، تسير فيه سير الحاكم ، وفى يدها غصن شجرة شاه بلوط تجره وراءها على الأرض .

٣

وتقابلا أربع عشرة مرة قبل بداية النهاية . تقابلا فى البستان الكبير ، أو على المرتفعات ، وبين الوديان العميقة ذات الطرق المتربة والمناقع المعشوشبة التى تحف بها أشجار الصنوبر القاتمة الممتدة إلى الجنوب الغربى ، وتقابلا مرتين فى الطريق الكبير المظلل بأشجار الشاه بلوط ، وخمس مرات حول بركة المياه التى أنشأها الملك جدها الأكبر . وكان عند حافة هذه البركة مكان غرس فيه الكلأ الأخضر ، تحيط به الأشجار المخروطية ، وينحدر انحداراً سهلا نحو حافة الماء ، فكانت تجلس فيه ويجلس هو عند ركبتيها ، ينظر إلى وجهها ويتحدث إليها عما عاناه هو وزملاؤه ، وعن العمل الذى عهد به إليه والده ، وعن الأعمال العظيمة التى يأمل الجبابرة أن يقوموا بها يوما ما . وكانا يلتقيان عادة فى مطلع الفجر ، ولكنهما تقابلا مرة فى عصر أحد الأيام ، فوجدا جماعات من الناس من حولهما يسترقون

النظر إليهما ، جاء بعضهم رجالا ، وبعضهم على الدراجات ، وأخذوا ينظرون إليهم من بين الأغصان ، يحركون أوراقها كما تحركها الطير فى بساتين لندن ، ويطأون بأقدامهم أوراق الأشجار الملقاة على أرض الآجام ، ومنهم من استقلوا القوارب فى البركة ليكونوا على مقربة منهما ويستمعوا إلى حديثهما .

وكان هذا أول دليل على شدة اهتمام القرويين بلقاء هذين المحبين . وتقابلا مرة — وهى المرة السابعة التى أطلقت ألسنة الناس فيهما — فى النسيم الذى كان يهب على المناقع ، وفى ضياء القمر الساطع ، وأخذا يتناجيان بصوت خافت فى سكون الليل الدفىء .

وتحدثا أولا عن الأمل الذى يرجوان أن يتحقق على أيديهما وهو إعداد عالم من الجبابرة جديد ، ثم انتقلا إلى التفكير فى الكفاح العظيم الذى سينشب بين العظمة والصغار ، وهو الكفاح الذى لا بد لهما أن يشتركا فيه ، ثم تحدثا فى أمورهما الخاصة ، وكانت أوسع مجالا من الأمور السابقة . وكانا كلما التقيا وتحادثا ونظر كلاهما إلى الآخر ازداد شعورهما بأن بينهما شيئا أقوى وأعجب من الصداقة يسرى بينهما ويقربهما ويربط بينهما . وأخيرا نطقا باللفظ المعبر عن هذا الشعور ، ووجدا أنهما محبين ، وأنهما آدم وحواء منشئا الجيل الجديد فى هذا العالم .

واستجاب الفتى والفتاة لداعى الحب ، وسرعان ما تغير العالم من حولهما حين تغيرا هما ، وأصبحا يريان الجمال فى كل شىء فيه . فلم تكن النجوم فى نظرهما إلا أزهارا من الضوء القيت فى طريقهما ، ولم يكن ضياء الفجر ونور الشمس إلا سجفا ملونة تحف بهما ، ولم يعودا مخلوقين من لحم ودم بل استحالا نسيجا من الحنان والعاطفة ، وتهامسا أولا بهذا الحب ثم سكتا وتقاربا ونظر كلاهما فى وجه صاحبه فى ضوء القمر وتحت قبة السماء اللانهائية . ووقفت أشجار الصنوبر السوداء الساكنة من حولهما كأنها حراس عليهما .

وخيل إليهما أن الكون كله قد سكن ، بل أن الزمان نفسه لم يكن

يتحرك ، وأن لا شئ يسمع فيهما إلا دقات قلبيهما . ولاح لهما أنهما يعيشان معا فى عالم خلا من الموت ، ولقد كان فى واقع الأمر كذلك بالنسبة لهما . وأحسا بأنهما يشيعان الجمال والجلال فى كل ما حولهما ، وأنهما يريان بعينيهما ما فيه من جمال وجلال . ذلك أن الحب يكشف عنهما حتى للخلائق الوضيعة الصغيرة ، وما بالك بهذين المحبين الجبارين اللذين طعما طعام الآلهة .

وفى وسع القارئ أن يتصور ما استولى على عالم النظام الرتيب من فزع حين عرف أن الأميرة التى خطبت للأمير ، الأميرة صاحبة السمو الذى يجرى فى عروقها الدم الملكى ، قد قابلت — وكثيرا ما قابلت — شابا بادنا لا يزيد على أن يكون ابن أحد أساتذة الكيمياء ، وهو رجل لا منصب له ولا جاه ولا مال ، وأنها تتحدث إليه كأن العالم قد خلا من الملوك والأمراء ولم يعد فيه نظام ولا قوانين واجبة الاحترام ، وأن كل من فيه هم الجبابرة والأقزام . نعم كانت تتحدث إليه وما من شك فى أنها كانت تحبه .

وقال سير آرثر پودل بوتليك :

— وإذا ما وصلت هذه الأنباء إلى مراسلى الصحف .

وهمس أسقف فرامپس الشيخ قائلا :

— لقد قيل لى . . .

وقال سائس الخيل وهو يعلق أطباق الحلوى :

— هنا فى هذا البيت تقع حوادث رواية جديدة ، ولقد وصل إلى علمى أن هذه الأميرة الجبارة . . .

وقالت السيدة الوراقة وهى فى حانوتها عند أول الشارع الكبير الموصل إلى القصر حيث كان الأمريكيون الصغار يحصلون على الإذن بدخول المكاتب الحكومية :

— إنهم يقولون . . .

وقال تم بكرون مشيراً إلى الإشاعات الرائجة :

— لقد خولنا أن نفى . . .

وهكذا بدأت المشكلة .

٤

وقالت الأميرة لحبيبها :

— يقولون إننا يجب أن نفترق

وصاح قائلا :

— ولماذا نفترق ؟ وأى سخف جديد انتاب عقول القوم ؟

وسألته قائلة :

— هل تعلم أنهم يعدون حبك لى . . . خيانة عظمى ؟

وصاح قائلا :

— وماذا يهمنا من قولهم ؟ وماذا يهمنا من حقهم — حقهم الذى لا يستند إلى أساس — وخيانتهم وولائهم ؟

— إذن فاسمع .

وأخذت تعيد على مسامعه ما قيل لها ، قالت :

— لقد جاءنى رجل صغير هو أعجب مارأيت فى حياتى ، وكان ذا صوت جميل وحركات خفيفة لطيفة ، وتسلل إلى حجرتى كما تتسلل إليها القطة ، وكان يشير بيده اللطيفة البيضاء كلما أراد أن يقول شيئاً هاماً ، وكان أصلع الرأس ولكن صلعه لم يكن كاملا شاملا رأسه كله ، وكان أنفه ووجهه صغيرين أحمرين ، وكان ذا لحية تنتهى بطرف مدبب جميل . وكان يدعى أن فى صدره عواطف جائشة تظهر فى عينيه البراقتين ، وهو كما تعلم صديق الأسرة المالكة فى هذا البلد ، وكان يدعونى سيدته العزيزة ، وكان يظهر العطف الشديد علىّ من بداية الأمر وقال لى ، « أى سيدتى العزيزة ! إنك تعرفين أن من

واجبك أولا...» وكرر هذا القول عدة مرار، ثم قال: «إن عليك واجباً».

— وأين يصنعون أمثال هذا الرجل؟

وقالت:

— إنه يحب عمله هذا؟

— ولكنى لا أرى.

— وأفضى إلىّ بأمور خطيرة.

والتفت الشاب إليها فجأة وقال لها:

— وهل كان لما قاله لك معنى؟ لست أظن هذا.

فأجابته:

— لقد كان له معنى من غير شك.

— أتقصدين؟

— أقصد أننا قد اعتدينا دون علم منا على أقدس آراء القوم الصغار، فهم يرون أننا أبناء الملوك طبقة منفصلة عن سائر الناس، فنحن سجناء معبودون، ودمى يحتفى بها، ونحن نؤدى ثمن هذه العبادة بما نفقده من حريتنا الأساسية، وهم يريدون أن يزوجونى بذلك الأمير، ولست أظنك تعلم عنه شيئا. إنه أمير قزم لا يهتم كثيراً بهذا الزواج، ولكن يلوح أنه زواج يراد منه أن يقوى الروابط بين بلدى وبلد آخر، وهم يقدرون أن هذا البلد الذى أنا فيه الآن — سيفيد أيضاً من هذا الزواج. فهل فى وسعك أن تتصور هذا؟ إنه زواج يقوى الروابط!

— وماذا يريدون بك الآن؟

— إنهم يريدون منى أن أجاريهم فيما يريدون، كأن لم يحدث بينى وبينك شىء.

— لا شىء!

— نعم! وليس هذا كل شىء. لقد...

— ومن الذى قال ؟ أهو الإخصائى الذى يعلمك آداب اللياقة ؟

— نعم ! لقد قال إن من الخير لكَ ، ومن الخير لجميع الجبابرة ، ألا يكون بيننا لقاء أو حديث ، هذا ما قاله لى .

— وماذا هم فاعلون إذا لم نمتنع ؟

— قال إنهم يتركونك حرا .

— أنا !

— وقال لى بصفة التأكيد : « سيدتى العزيزة إنه أجدر بك ، وأحفظ لكرامتك أن تبتعدى عنه باختيارك . » ذلك ما قاله لى وقد أكد لفظ باختيارك .

— ولكن ... وما شأن هؤلاء المنكودين الصغار بحبنا ، كيف يكون وأنى يكون ؟ ما شأنهم هم وما شأن عالمهم بنا ؟

— إنهم لا يفكرون هذا التفكير .

— وأنت بطبيعة الحال لا تعنين بشىء من هذا .

— يخيل إلىّ أن ذلك منتهى السخف .

— إنه لسخف حقًّا أن يقيدونا بشرائعهم ، وأن نرتبط نحن فى بداية حياتنا بمواثيقهم القديمة ونظمهم التى لا ترمى إلى غاية ، لا إن هذه كله لا يعنينا .

— إننى لك ما دامت الأمور . . .

— ما دامت الأمور ؟ ولم تقولين ما دامت الأمور ؟

— ولكنهم . . . وإذا أرادوا أن يفرقوا بيننا ؟

— وماذا يستطيعون أن يفعلوا ؟

— إننى لا أعرف . ماذا يستطيعون أن يفعلوا ؟

— ومنذا الذى يعنى بما يستطيعون أن يفعلوه أو بما يفعلونه ؟ إنى لك وأنت لى ، وأى شىء بعد هذا ؟ إنى لك وأنت لى — أبد الدهر . وهل

تظنين أنى سأتقيد بقوانينهم الصغيرة وأوامرهم ونواهيهم ولوحاتهم الحمراء وأبتعد عنك ؟

— نعم ! ولكنى ما زلت أسأل : ماذا يستطيعون أن يفعلوا ؟

وأجابها :

— إنك تقصدين ماذا يجب أن نفعل نحن ؟

— نعم ؟

— نحن ؟ إنا سنستمر .

— وإذا حاولوا أن يفرقوا بيننا ؟

ولوح الفتى بقبضته ونظر إلى خلفه كأن الخلائق الصغار قد جاءوا فعلا ليفرقوا بينهما . ثم أدار وجهه عنها ونظر إلى العالم وقال :

— نعم ، لقد كان حقًا ما تسألين . نعم ماذا يستطيعون أن يفعلوا ؟

— هنا فى هذه الأرض الصغيرة .

قالت ذلك ثم سكتت .

وكأنه فى هذه اللحظة كان يجول ببصره فى العالم كله :

— إنهم فى كل مكان .

— ولكن فى وسعنا أن . . .

— أين هذا ؟

— نستطيع أن نذهب ، نستطيع ان نسبح فى البحار معاً — إن وراء البحار . . .

— إننى لم أذهب إلى ما وراء البحار .

— إن هناك جبالا عظيمة قفراء لا نظهر فيها إلا كالخلائق الصغار ، وهناك وديان بعيدة مهجورة ، وهناك بحيرات خافية على الخلائق ، وهضاب يحيط بها الثلج لم تطأها بعد قدم الإنسان ، هناك . . .

— ولكننا لا نستطيع الوصول إلى تلك الأماكن إلا بعد أن نكافح ونقاتل ، ونشق طريقنا إليها وسط ملايين الملايين من بنى الإنسان .

— ذلك هو أملنا الوحيد ، أما فى هذه البلاد المزدحمة بالخلائق فليس لنا ملجأ أو عاصم . وهل ثمة مكان لنا بين هذه الجموع ؟ إن فى مقدور الصغار أن يختفى بعضهم عن أعين بعض ، ولكن أين نختفى نحن ؟ ليس ثمة مكان نطعم فيه أو مكان ننام فيه ، وإذا فررنا منهم فإنهم سيطاردوننا ويقتفون آثارنا بالليل والنهار

ولاحت له فكرة قال على أثرها :

— إن لنا مكاناً واحداً فى هذه الجزيرة نفسها .

— أين ؟

— المكان الذى أنشأه إخوتى هناك . لقد أنشأوا سورا حول بيتهم أحاطوه به من الشمال والجنوب ، ومن الشرق ومن الغرب ، وحفروا حوله خنادق عميقة ومكامن خفية — وقد جاءنى واحد منهم من زمن قليل وقال لى — إننى لم ألق بالى إلى ما قاله لى وقتئذ — ولكنه كان يتحدث عن الأسلحة ، ولعلنا نجد لنا ملجأ هناك . . .

وسكت قليلا ثم واصل حديثه قائلا :

— إنى لم أر إخوتى من زمن طويل — أى حبيبتى لقد كنت فى أثنائها أحلم وقد نسيت ! ولقد مرت الأيام وكان كل همى أن أنتظر لقائك . . . وعلىَّ الآن أن أذهب إليهم ، وأتحدث إليهم ، وأقص عليهم قصتك وقصة الأخطار التى تهددنى أنا وأنت . وإذا شاءوا أن يساعدونا فإن فى مقدورهم أن يفعلوا ، وإذا فعلوا كان لنا أن نرجو الخير على أيديهم ، ولست أعرف ما عليه مكانهم من المنعة ولكنى لا أشك فى أن كوسار قد حصنه ، وإنى لأذكر الآن أن الشر كانت تبدو بوادره قبل هذا كله ، وقبل أن تأتى أنت إلينا . لقد كانت هناك انتخابات بها يفصل الناس الصغار فى أمورهم

بأن يعدوا رؤوسهم ، وما من شك فى أنهم قد فرغوا منها الآن ، وكانوا فيها يهددون جنسنا كله ، — أقصد جنسنا كله إلا أنت وحدك ! ومن أجل ذلك أرى أن لابد لى من الذهاب لرؤية إخوتى ، ولا بد لى أن أطلعهم على ما دار بيننا ، وعلى الخطر المحدق بنا .

٥

وجاء فى موعدها التالى متأخرا بعض الوقت ، فقد اتفقا على أن يتقابلا حوالى الظهر فى بستان واسع عند ثنية من ثنايا النهر ؛ وانتظرته فى ذلك المكان ووضعت يدها فوق عينيها وأخذت تتطلع نحو الجنوب ، وخيل إليها أن العالم كله ساكن لا حراك فيه كأنه هو أيضاً يفكر فى سكون . ثم أدركت أن العيون التى كانت تتبعها كلما أتت إلى صديقها لم يظهر لها أثر فى هذه المرة ، وإن كان قد مضى وقت طويل من النهار ، وتلفتت يمنة ويسرة فلم تر أحدا ، ولم تر قارباً واحدا يسبح فوق مياه نهر التيمز الفضية ، وأخذت تفكر فى سبب هذا السكون الغريب الذى كان يسود العالم فى ذلك الوقت .

وبينما هى غارقة فى تفكيرها إذ أبصرت الشاب ردوود فى فرجة بين الأشجار الكبيرة البعيدة التى تحد أفقها .

ولكنه لم يلبث أن اختفى بين الأشجار ، ثم لاح لها يشق طريقه بينها ، وكان فى وسعها أن تتبين أنه فى هذه المرة ليس كمثله فى المرات السابقة ، فقد رأته يسير مسرعا على غير عادته ، وأنه يعرج فى مشيته . وأشار بيده إليها فسارت نحوه ، ولما اقتربت منه وأبصرت وجهه فى وضوح عرفت أنه يتألم فى كل خطوة يخطوها ، فأزعجها ذلك وأقلق بالها .

وجرت نحوه وهى قلقة وجلة وفى عقلها مئات من الأسئلة تريد أن تسأله عنها ، واقترب منها وأخذ يحدثها دون أن يحييها .

وسألها فى لهفة :

— هل لابد أن نفترق ؟

فأجابته :

— لا ! ولم هذا السؤال ؟ ومالى أراك مضطربا ؟

فقال لها :

— ولكن إذا لم نفترق . . . وجب علينا الآن . . .

— خبرنى ماذا أصابك ؟

— لا أريد أن نفترق ولكن . . .

ثم قطع حديثه وسألها فجأة :

— أتريدين ألا تفارقينى ؟

ونظرت إلى عينيه نظرة قوية وسألته ؛

— قل لى ماذا حدث ؟

— ألم يحدث شىء بعد ؟

— وإلى متى ؟

— قد يكون إلى عدة سنين .

— أنفترق ؟ لا !

وسألها :

— هل فكرت فى الأمر ؟

وأمسكت بيده وقالت :

— إنى لن أفارقك ، ولن أسمح لك بفراقى ولو كان فى ذلك الموت العاجل .

وقال :

— ولو كان فيه الموت ؟

وشعرت بيده تقبض على أصابعها .

وتلفت حوله كأنه يخشى أن يرى الخلائق الصغار مقبلين عليه وهو يتحدث إليها ثم قال :

— قد يكون فى ذلك الموت .

فقالت له :

— أفصح عن حقيقة الأمر .

— لقد حاولوا أن يمنعونى من الحضور إليك .

— كيف ؟

— خرجت من مصنعى حيث كنت أصنع طعام الآلهة ليخزنه أبناء كوسار فى معسكرهم ، فجاءنى رجل صغير من رجال الشرطة — يرتدى ملابس زرقاء ويلبس فى يديه قفازين ناصعى البياض — وأشار إلى أن أقف ثم قال : إن هذا الطريق مقفل ؛ ولكنى لم أعبأ به كثيراً وسرت حول مصنعى حيث يوجد طريق آخر متجه إلى الغرب ، ولكنى رأيت هناك رجلا آخر مثله قال لى : إن هذا الطريق مقفل ! وأضاف إلى ذلك قوله : إن كل الطرق مقفلة .

— وبعدئذ ؟

— وحاججته بعض الوقت وقلت : إن هذا طريق عام .

فقال :

— ومن أجل هذا أمنعك ، إنك تتلف هـذا الطريق الذى يسير فيه الجمهور .

فقلت له :

— حسن إذن سأسير فى الحقول . وفى هذا الوقت خرج رجال آخرون من خلف السور وقالوا لى :

— إن هذه الحقول من الأملاك الخاصة .

فقلت لهم ألا لعنة الله على أملاككم العامة والخاصة ، إنى ذاهب إلى أميرتى . ثم انثنيت وأمسكت به بلطف — وهو يضرب برجليه ويصرخ

بأعلى صوته — ونحيته عن طريق . وما هى إلا لحظات حتى امتلأت الحقول التى حولى بالرجال ، وكلهم يهرولون ويسرعون ، ورأيت واحداً منهم على ظهر جواد وقف إلى جانبى وأخذ يقرأ شيئا — بصوت عال ، ولما فرغ من قراءته ركض بجواده وابتعد عنى منكس الرأس ، ولم أفهم ما كان يقرأ ثم سمعت من خلفى دوى البنادق .

— بنادق !

— نعم بنادق كالتى يطلقونها على الجرذان ، ودوى الرصاص فى الهواء . وأصابتنى واحدة منها فى ساقى .

— ثم جئت الىّ ؟

— ثم جئت إليك هنا وتركتهم يصرخون ويهرولون ويطلقون الرصاص من خلفى . والآن . . .

— والآن ؟

— ليس هذا إلا البداية . إنهم يريدون أن نفترق ، وهم فى هذه اللحظة مقبلون علينا .

— لن نفترق .

— نعم لن نفترق ، ولكننا إذا لم نرد أن نفترق وجب عليك أن تأتى معى إلى إخوتى .

وقالت :

— وأين الطريق الموصل إليهم ؟

— جهة الشرق ، هذا هو الطريق الذى سيأتى منه المطاردون ، وذاك إذن هو الطريق الذى يجب أن نسير فيه ، ذاك الطريق المظلل بالأشجار ، و بأسير فيه أمامك حتى إذا رأيتهم ينتظروننا . . .

وخطا خطوة واحدة ولكنها أمسكت بذراعه .

وقالت له :

— لا تسر وحدك . سأسير إلى جانبك وأمسك بك ، فقد أكون من نسل الملوك ، وقد يكون محرما عليهم أن يؤذونى ، وإذا أمسكت بك فلعلهم لا يطلقون الرصاص عليك . وليتنا نستطيع أن نطير وذراعى من حولك .

وطوقت بذراعها كتفه ، وأمسكت بيده والتصقت به وكررت قولها :

— فلعلهم لا يطلقون الرصاص عليك .

وفى هذه اللحظة ثارت عواطفه الكامنة فضمها إلى صدره وقبلها فى خدها وظل ممسكا بها لحظة قصيرة ، وقالت بصوت خافت :

— ولو كان فى ذلك موتى .

وطوقت عنقه بذراعيها ورفعت وجهها إلى وجهه وقالت له :

— أى حبيبى قبلنى مرة أخرى .

وضمها إليه مرة ثانية وأخذ كلاهما يقبل الآخر فى شفتيه ، وظلا كذلك وقتا ما ثم وضعت يدها فى يده وحرصت هى أن تكون قريبة كل القرب منه ، وسارا يريدان أن يصلا إلى معسكر أبناء كوسار قبل أن يلحق بهم الخلائق الصغار .

وبينما هما يسيران فى أرض البستان الممتد خلف القصر إذ خرج عليهما من بين الأشجار فرسان أطلقوا لجيادهم العنان ، وحاولوا عبثا أن يلحقوا بهما ، ثم رأيا أمامهما بيوتا ورجالا مسلحين بالبنادق يخرجون منها . وأراد هو أن يواصل سيره وهمّ أن يقاتلهم ويبعدهم عن طريقه ، ولكنها طلبت إليه أن يتجه نحو الجنوب . وسمعا وهما سائران أزيز رصاصة تمر فوق رأسيهما .

الفصل الثالث

كادلز الصغير فى لندن

١

واختار كادلز هذا الوقت الذى نتحدث عنه ليخرج من مقلع أحجار الطباشير ويرى العالم . ولم يكن يعرف وقتئذ الأحداث التى كانت تقع من حوله ، ولا القيود التى كانت تضيق دائرتها على الأخوان الجبابرة جميعهم ، بل لم يكن يعرف فى واقع الأمر أن له أخا على ظهر الأرض . وهداه تفكيره إلى هذا فى آخر الأمر حين لم يجد أحدا فى تشيزنج آيبريت يجيبه عن أسئلته ، فقد كان القس الجديد أقل ذكاء من القس القديم نفسه ، وبقى هو إلى ذلك الوقت يجهل الأسباب الخفية التى تضطره إلى هذا الكدح المتواصل الذى لا غاية له ، حتى لم يعد يطيق صبرا عليه ، وسأل نفسه :

— لِمَ يرغمونني على العمل فى هذه الحفرة يوما بعد يوم ؟ ولِمَ يضيقون علىَّ هذا التضييق فيضربوا حولى نطاقا لا أتعداه ، ويحرموا علىَّ أن أرى ما وراءه من عجائب العالم ؟ وماذا جنيت حتى يحكم علىَّ بهذا كله ؟

ووقف يوما من الأيام منتصب القامة وقال بصوت عال :

— لا لن أستمر .

ثم بدأ يصب اللعنات على الحفرة بصوته الجهورى .

وشرع من ذلك الحين يعبر عما يجيش فى صدره من الأفكار بأفعاله

لا بأقواله ، لأن ما يعرفه من الألفاظ كان قليلا لا يسعفه ، فأخذ عربة ملأى بالطباشير إلى نصفها ورفعها بيده وقذف بها عربة أخرى مثلها ، فتحطمت العربتان ؛ ثم أمسك صفا كاملا من العربات الفارغة وألقى به إلى أسفل السور ، وقذف وراءه صخرة من الطباشير ، واقتلع بقدمه اثنتى عشرة باردة من القضبان الحديدية ، ثم شرع يحطم كل ما فى حفرة الطباشير وهو مرتاح الضمير لما يفعل . وقال :

— أأقضى جميع أيامى أكدح هذا الكدح ؟

وقضى فى هذا التدمير خمس دقائق دهش لها عالم طبقات الأرض الذى غفل عنه كادلز فى أثناء اضطرابه الفكرى . واستطاع هذا المخلوق الصغير أن ينجو بنفسه بعد أن كاد حجران كبيران من الحجارة التى اقتلعها كادلز يهشمان رأسه فخرج مسرعا من الزاوية الغربية واعتلى التل وحقيبته تتخبط على جنبه وسرواله يبرق على ساقيه ، وقد تساقطت وراءه طائفة من حفريات الحيوانات البحرية ذوات الجلد القنفذى . وبعد أن أرضى كادلز الصغير نفسه بما أحدثه من الدمار خرج من الحفرة ليؤدى رسالته فى هذا العالم .

— أأكدح فى هذه الحفرة حتى أموت وتتعفن جثتى وتنتن ؟ . . . أى روح حقيرة يظنونها ساكنة فى هذا الجسم الجبار ؟ أأظل أقتلع الطباشير لمالا أعرف من الأغراض السخيفة ؟ لا ! لن أفعل !

ولعل اتجاه الطريق والخط الحديدى هما اللذان وجهاه نحو لندن ، أو لعل المصادفة المحضة هى التى وجهته هذه الوجهة . ومهما يكن السبب فقد سار نحو العاصمة الكبيرة بخطاه الواسعة فوق التلال ووسط المراعى عصر ذلك اليوم الحار ، وأثار بعمله هذا دهشة العالم كله . ورأى فى طريقه إعلانات ممزقة بيضاء وحمراء كتبت عليها أسماء مختلفة معلقة على كل هرى وجدار ، فلم يفهم معناها لأنه لم يكن يعرف شيئا عن الثورة الانتخابية التى رفعت كترهام « چاك قاتل المردة » إلى كرسى الحكم ؛ ورأى على لوحة

من لوحات الإعلانات عند كل مركز من مراكز الشرطة أمراً عالياً من كترهام يحرم على كل شخص جبار وكل إنسان يزيد طول قامته على ثمانى أقدام أن يبعد أكثر من خمسة أميال عن « موضع إقامته إلا بإذن خاص » . ورأى وراءه مأمورين صغاراً من رجال الشرطة يتبعونه ولا يستطيعون اللحاق به ، ولعلهم قد أنقذهم من ورطتهم أنهم لم يستطيعوا اللحاق به ، فأخذوا يلوحون إليه من وراء ظهره باوراق فى أيديهم . رأى هذا كله فلم يفهم منه شيئاً ولم يعره التفاتاً ؛ لقد خرج ذلك الشخص الغبى من مسكنه الساذج ظهر ذلك اليوم ليطلع على ما فى العالم ، واعتزم ألا يسمح لأولئك القوم الذين كانوا يتبعونه ويصرخون فى وجهه أن يقفوا فى سبيله . ولما اجتاز رشستر وجرنيتش رأى البيوت تتقارب وتكتر ، فأبطأ قليلا فى مشيته ، وأخذ يجيل النظر فيما حوله ويلوح بساطور ضخم فى يده .

وكان أهل لندن قد سمعوا شيئاً عنه من قبل ، سمعوا انه غبى وظريف ، وأن وكيلة السيدة وندرشوت وقسيس القرية كان لهما عليه سلطان عجيب ، وسمعوا أنه كان يجلهما ويشكر لهما عنايتهما به ، وسمعوا عنه أشياء أخرى غير هذه وتلك . فلما عرفوا من الصحف فى عصر ذلك اليوم أنه هو أيضاً « أضرب عن العمل » خيل إليهم أن هناك مؤامرة مدبرة مقصودة .

وقال الرجال العائدون فى القطار من مقر أعمالهم إلى بيوتهم :

— إنهم يريدون أن يختبروا قوتنا .

— ولكن من حسن حظنا أن كترهام يتولى أمورنا .

— إن فى عمله هذا تحدياً لأوامر كترهام .

وكان رجال النوادى أدرى من هؤلاء بالحقيقة ، فكانوا يلتفون حول لوحات الأخبار فى النوادى أو فى حجرات التدخين ويقولون :

— إنه لا يمتلك سلاحاً ، ولو أمر أن يذهب إلى سفن أوكس لذهب إليها من فوره .

— وسيكفينا كترهام شره . . .

وتحدث التجار بهذا إلى زبائنهم ، وقرأه فى صحف المساء خدم المطاعم بعد فراغهم من تقديم الطعام إلى رُوّادها ، وقرأه سائقو العربات بعد قراءة أخبار الرهان . . .

ونشرت صحيفة الحكومة الكبرى المسائية بحروف كبيرة خبر «استئصال الشر» ، كما نشرت غيرها « ردوود الجبار لايزال يقابل الأميرة » معتمدة على ما يحدثه هذا من أثر فى الجماهير . واختطت صحيفة « الصدى » لنفسها خطة خاصة بها فكتبت تقول : « يشاع أن الجبابرة قد ثاروا فى شمال انجلترا . جبابرة سندرلاند يرحلون إلى اسكتلنده » . وأخذت «غازت وستمنستر» تنذر كعادتها فقالت :«احذروا الجبابرة» ، وحاولت أن تستخدم هذه الحوادث لتوحيد صفوف حزب الأحرار ، وكان الحزب وقتئذ قد تفرق وذهبت ريحه بسبب الخلاف القائم بين سبعة من زعمائه الشديدى الأنانية . وتشابهت لهجات الصحف بعد تلك الحادثة أو كادت ونشر معظمها أخبار « الجبابرة فى طريق نيوكنت » .

وقال شاب أصفر الوجه فى حانوت يبيع الشاى :

— إن الذى أريد أن أعرفه هو : لم لا نسمع شيئاً عن أبناء كوسار ، وكنا نظن أن سيكون لهم الشأن الأكبر فى هذا الاضطراب ؟

وقالت خادمة الحانة وهى تمسح قدح شراب بيدها :

— يقولون إن جباراً آخر من أولئك الجبابرة قد هرب . لقد كنت أقول على الدوام إن وجودهم بجوارنا من أشد الأخطار ، وإن الواجب كان يقضى بأن يبعدوا عنا من بداية الأمر . . . وبأن يوضع حد لهذه الأعمال ، وأرجوا ألا يجىء إلينا هنا .

وقال أحد الشبان الذين كانوا فى الحانة مظهراً عدم الاهتمام :

— إنى أحب أن أنظر إليه .

ثم أضاف إلى ذلك :

— لقد رأيت الأميرة .

وقالت خادمة الحانة :

— أتظن أنهم سيؤذونه ؟

وقال الشاب بعد أن فرغ من احتساء قدحه :

— قد يضطرون إلى ذلك اضطرارا .

وفى جو مملوء بهذه الأحاديث وآلاف الآلاف من أمثالها وصل كادلز الصغير إلى لندن .

٢

وكلما فكرت فى كادلز تمثلت لى صورته وهو فى طريق كنت الجديد ، وشمس الأصيل ترسل أشعتها الدفئة على وجهه المضطرب ، والطريق غاص بالمركبات على اختلاف أنواعها ، من سيارات عامة ومركبات ترام وعربات للركوب تجرها الجياد ، وعربات للنقل ودراجات وسيارات ، وجماهير كثيرة تتسكع فى الطريق من نساء ورجال وأطفال وخدم وربات منازل خرجن ليبتعن حاجياتهن ، وشبان أفاقين ، وكلهم يقتفون خطاه السريعة . وكانت اللوحات معلقة فى الطريق وعليها إعلانات الانتخابات الممزقة وكان يحيط به فى سيره خليط من الأصوات المتباينة ، فكنت ترى البائعين والمشترين على أبواب المتجر ، والوجوه تطل عليه من النوافذ ، والغلمان فى الطرقات يهرولون ويصرخون ، ورجال الشرطة يقفون جامدين وهادئين ، وعمال البناء يسقطون من فوق القوائم الخشبية ، وجملة القول إنك كنت ترى الخلائق كلهم فى هرج ومرج وعلت أصوات هؤلاء جميعهم ما بين مشجع ومتوعد وشاتم ، وحدق هو فيهم من فوقهم ، وكانوا خليطا لم يتصور وجوده فى العالم من قبل .

واضطر بعد أن دخل لندن أن يسير على مهل ، لأن الخلائق الصغار التفوا

حوله وكادوا يسدون عليه الطريق ، وأخذت الجماهير تزداد كلما خطا خطوة فى داخل المدينة حتى وصل إلى مفرق طريقين ، فأحاط به الناس من جميع الجهات وعجز عن مواصلة السير .

ووقف كادلز حيث هو ، وقدماه متباعدتان قليلا ، وأسند ظهره إلى جدار مصنع للقطن يعلوه برج عال ويبلغ ارتفاعه ضعفى قامته ، وأخذ ينظر إلى الأقزام من حوله ويعجب من أمرهم . وما من شك فى أنه كان فى تلك الساعة يحاول أن يوفق بين ما يرى وبين ما مر به من الحوادث فى حياته الماضية التى قضاها بين الأودية والتلال والعاشقين المتلاقين فى الليل والغناء فى الكنائس وقطع الطباشير فى كل يوم . واختلطت هذه كلها بغرائزه وخطر الموت المحدق به وجمال السماء من فوقه . وحاول أن يرى فيها كلها وحدة مرتبطة ذات معنى . وقطب حاجبيه وحك شعره بمخلبه الضخم وأنّ أنيناً عاليا .

وقال :

— لست أراه .

قال ذلك فى لهجة لم يألفها الناس من قبل ، فعلت أصواتهم ، وكانت أصواتاً تتخللها أجراس مركبات الترام تشق طريقها بين الجماهير ، وكأنها زهر الخشخاش الأحمر فى حقول القمح .

وتساءل بعضهم :

— ماذا قال ؟

وأجاب بعضهم الآخر :

— يقول إنه لم ير .

وقال غيرهم إنه يقول :

— أين البحر ؟

وصاح جماعة آخرون :

— بل يقول أين المقعد ؟ فهو يبحث عن مكان يجلس فيه : أليس فى وسع هذا الأبله أن يجلس على سطح بيت أو نحوه ؟

وصاح كادلز :

— ماذا تريدون أيها الخلائق الصغار المجتمعون؟ وماذا تفعلون ؟ ولماذا جئتم كلكم إلى هذا المكان ؟

— ماذا تفعلون كلكم فى هذا البلد أيها الخلق الصغار ، وأنا غارق فى تلك الحفرة العميقة أقطع لكم الطباشير ؟

وسمعت هذه الجموع صوته الغريب الذى أخل بنظام المدرسة فى تشيزنج آيبريت فعقل ألسنتها وسادها صمت عميق ، ثم دفعها فى آخر الأمر للصراخ والضجيج وسمع شخص يصرخ قائلا :

— إنه يتكلم ! إنه يتكلم !

وكان الذى يشغل بال هذا الجمع كله هو أن يعرفوا ماذا يقول هذا الشخص العجيب . وساد الاعتقاد بأنه ثمل ، وأخذ سائقو السيارات العامة وهم يشقون طريقهم بين الجماهير المتلاصقة يسخرون منه . وقال بحار أمريكى لعبت برأسه الخمر وهو يدفع الناس من حوله :

— ماذا يريد هذا الإنسان ؟

ومر به رجل يتجر فى الخرق البالية يحملها على مركبة صغيرة ، وعلا صوته فوق أصوات الحاضرين جميعهم وصاح فى وجهه :

— ارجع إلى بيتك أيها الجبان الأبله ، ارجع إلى بيتك أيها الشىء الأبله الخطر ! ألست ترى أنك أرعبت الخيل ؟ عد إلى بيتك . أليس فى هذا الجمع كله من هداه تفكيره إلى أن يذكرك بما يوجبه عليك القانون ؟

ووقف كادلز وسط هذا الضجيج متحيراً مضطربا يحدق فى هذه الجموع بعينيه ولا يتكلم .

وأقبلت طائفة من رجال الشرطة الوقورين، وتسللوا بمهارة فائقة بين الجماهير وهم يقولون :

— تنحوا عنه وابتعدوا قليلا . واستمر أنت فى سيرك من فضلك .

وأبصر كادلز شيخا صغيرا يدق قصبة ساقه ورأى يدين بيضاوين تشيران إليه فقال وقد انحنى إلى الأمام :

— ماذا تريدون ؟

فأجابه مفتش الشرطة :

— إنا لا نسمح لك بالوقوف هنا .

وكرر قوله :

— إننا لا نسمح لك بالوقوف هنا .

— وأين أذهب إذن ؟

— عد إلى قريتك ، إلى حيث تقيم ، ومهما يكن المكان الذى تذهب إليه فإن عليك أولا أن تتحرك من هنا . إنك تعطل حركة المرور ؟

— وأى مرور ؟

— المرور فى هذا الطريق ؟

— ولكن إلى أين يؤدى هذا الطريق ؟ ومن أين يأتى ؟ وما معنى هذا الذى أرى ؟ ولماذا يحيطون بى ؟ وماذا يريدون منى ؟ وماذا يفعلون ؟ أريد أن أفهم . لقد تعبت من الوحدة ومن قطع الطباشير . وماذا يفعل هؤلاء لى وأنا أكدح فى قطع الطباشير ؟ أريد أن أعرف هذا كله الآن قبل أن أغادر هذا المكان.

— نأسف لأن الإجابة عن هذه الاسئلة ليست من عملنا ، والذى نطلبه إليك أن تتحرك من هذا المكان .

— ألا تعرف ما سألتك عنه ؟

— إنى أطلب إليك ألا تقف هنا من فضلك . . . وأنصحك أن تعود

إلى بيتك . إنا لم نتلق أوامر بشأنك حتى الآن ، ولكن وجودك هنا مخالف للقانون . . . فسر فى طريقك ولا تعطل حركة المرور .

وتلفت كادلز إلى شماله ، فرأى الطوار خاليا ، فخطا خطوة فى هذه الجهة ولكن لسانه انطلق من عقاله فى تلك اللحظة وقال فى نفسه :

— إنى لا أفهم شيئاً من هذا ، ولا أفهم شيئاً من هذا كله .

وود لو يستطيع أن يسأل الجماهير التى ما زالت واقفة إلى جانبه ومن خلفه وقال :

— لم أكن أعرف أن هناك بلادا مثل هذا البلد . وماذا تفعلون كلكم أيها الناس ؟ وما هى الغاية التى تعملون لها ؟ ما هى هذه الغاية ؟ وما هو نصيبى أنا من العمل لها ؟

وسرعان ما أخذت عبارته هذه تلوكه الألسنة . فأخذ الشبان الظرفاء المتحمسون ينادى بعضهم بعضاً : ما هى الغاية التى تعملون لها ؟ ما هى الغاية التى تعملون كلكم لها ؟ ما هى الغاية التى تعملون كلكم لها ؟

وأجابوا عن هذه الأسئلة بطائفة من الإجابات الفكهة المختلفة معظمها خال من الأدب . وكان أكثر ما يتردد على الألسنة من هذه الإجابات قولهم « أمسك لسانك » ، ومنهم من قال فى سخرية :

— اذهب من هنا !

إلى غير هذه وتلك من العبارات التى سرت بين الجمهور .

٣

وأى شىء كان يريد ؟ لقد كان يريد شيئاً لا يريده له عالم الأقزام ، وكان يسعى إلى غاية يمنعها عنه عالم الأقزام ، بل يمنعه حتى من أن يراها واضحة جلية ، غاية قدر عليه ألا يراها قط واضحة جلية ، أما هذه الغاية فهى الحياة

الإجتماعية التى يريد أن يحياها هذا المخلوق الأصم الجبار المتطلع فى عالم الأحياء إلى أمثاله من بنى جنسه ، وفى عالم الجماد إلى الأشياء التى تلائمه ، وإلى شئ يستطيع أن يحبه وأن يعمل له ، وإلى غرض يفهمه ، وأمر يستطيع أن يصدع به . كل هذا كان كامنا فيه ، يضطرب فى عقله ، ولا يستطيع الإفصاح عنه ، لا يستطيع الإفصاح عنه ولو قابل جباراً مثله . إنه لم يعرف من الحياة إلا الطواف صامتا حول القرية ، ولم يعرف من الألفاظ إلا حديث الكوخ ذلك الحديث الذى عجز عن أن يفى بأقل حاجياته الضخمة ، ولم يعرف هذا المخلوق الأبله الضخم شيئاً عن المال ولا عن التجارة ولا عن المظاهر الكاذبة المعقدة التى يقوم عليها مجتمع الخلائق الصغار . لقد كان فى حاجة ولكنه لم يكن فى وسعه أن يحصل على ما هو فى حاجة إليه .

وقضى نهار الصيف وليله يتجول ، حتى عضه الجوع وإن ظل نشطا لم يتعب ، وأخذ يرقب الغادين والرائحين فى الشوارع المختلفة ، ويشاهد أعمال هؤلاء الخلائق الصغار الكثيرة المعقدة التى لم يفهم منها إلا أنها اضطراب لا نهاية له .

وقيل إنه أنزل سيدة من عربتها فى كنزنجتن ، وكانت ترتدى ملابس سهرة أنيقة ، وحدق فيها ، ونظر إلى ثوبها الطويل وإلى كتفيها برهة قصيرة ثم وضعها فى مكانها — من غير عناية كبيرة — وهو يتحسر ويتأوه كما يقول البعض وإن لم أكن واثقاً من صحة هذا القول ، وظل ساعة أو نحوها ينظر إلى الناس وهم يتزاحمون فى السيارات العامة فى ميدان پكادلى ، وشوهد يطل على ملعب كنزنجتن عصراً ، فلما رأى من فيه من الجماهير منصرفين إلى مشاهدة لعبة الكرة والمضرب ولا يعيرونه شيئاً من الاهتمام سار فى طريقه متألما .

وعاد إلى ملعب پكادلى بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة ليلا ، ووجد فيه جمهوراً من نوع جديد ، ولديهم أشياء يريدون لسبب لا يعرفه أن

يعملوها ، وأشياء اخرى لا يريدون أن يعملوها . فلما وقعت عينهم عليه حدقوا بأبصارهم فيه وسخروا منه وواصلوا أعمالهم . وسارت عربات الركوب بعضها فى أثر بعض بجوار الطوار المزدحم بالمارين ، ورأى الناس يدخلون المطاعم ويخرجون منها ، فى وقار وجد وتفكير عميق ، أو فى لطف ورقة واضطراب ويقظة لا يستطيع معها أمهر خدم الفندق أن يخدعهم ، ووقف المارد الجبار فى أحد الأركان وأخذ يتطلع إليهم ، وقال فى نفسه بصوت خافت حزين :

— وما الغاية التى تُبتغى من هذا كله ؟ وما الغاية من هذا كله ؟ إنى أراهم كلهم مجدين نشطين ، ولكن هناك شيئاً لا أفهمه .

ويلوح أن أحداً منهم لم يكن يرى من كان يرى هو فى أحد الأركان من النساء البائسات الثملات المصبوغات الوجوه ، والرجال البائسين عند مجارى المياه القذرة ، أو يدرك مافى النظام الذى يسمح بوجود هؤلاء وأولئك من عبث — من عبث لا حد له ! ويلوح أيضاً أن أحدا منهم لم يشعر بشىء من حاجات هذا الفتى الجبار أو يفكر فى المستقبل الماثل أمام أعينهم . . .

ورأى فى الجانب الآخر حروفا غريبة من نور تظهر وتختفى ، ولو أنه استطاع أن يقرأها لعرف أهم ما يعنى به الناس وقتئذ ، ولخبَّرته هذه الحروف بضرورات الحياة كما يراها الخلائق الصغار ؛ نعم لو أنه كان يستطيع القراءة لقرأ أولا :

ن

ثم ب

ثم ى

ثم ذ

وهكذا حتى تظهر امامه هذه الرسالة القيمة المرسلة إلى كل من ينوء بأعباء الحياة :

نبيذ تير المقوى

ثم تختفى هذه العبارة فى ظلمة الليل بأسرع من لمح البصر وتعقبها عبارة أخرى لا يقل اهتمام الناس بها عن اهتمامهم بسابقتها :

صابون التجميل

وليس هذا كما ترى صابونا للنظافة بل صابونا « مثاليا » أو فى على الغاية فى الجودة كما يقولون . وتجىء بعد هذين ثالثة الحاجيات التى يعنى بها الخلائق الصغار :

حبوب يانكر الصفراء

ثم تبدأ الدورة من جديد فيظهر بحروف قرمزية وهاجه

نبيذ تير . . .

ويظهر أن كادلز وصل إلى ريجنت پارك فى سكون الصباح الباكر ، وتخطى الأسوار ورقد على الكلأ قرب المكان الذى يتزلق عليه الناس فى الشتاء ، ونام هناك ساعة أو نحوها . وفى الساعة السادسة صباحا وجد نفسه يتحدث إلى امرأة قذرة فى أثمال باليـة كانت نائمة فى حفرة قرب مرج هامپستد ويسألها حادا عن الغاية التى تبتغيها من حياتها .

٤

وانتهت جولات كادلز فى لندن فى صباح اليوم التالى بعد أن غلبه الجوع وأضعف قواه ، فوقف حيث كانت عربة يقذف فيها خبز خرج لساعته من التنور ، فما كان منه بعد أن شم رائحة الخبز إلا أن ركع على ركبتيه فى هدوء وبدأ يختطفه من العربة . وذهب صاحب العربة يستدعى الشرطة ، فلما عاد وجده قد أتى على كل ما وضع فيها ، ثم انتقل منها إلى حانوت خباز وأكل كل ما وجده فيه ، وقبل أن يفرغ من أكل ما كان بيده سار يبحث عن حانوت آخر ليتم به وجبته . واتفق أن كان ذلك فى وقت قل فيه العمل وارتفع ثمن الطعام ، فكانت الجماهير تعطف على هذا الجبار وهو يغتصب الطعام الذى يحتاجونه كلهم ، وأخذوا يصفقون له أثناء الدور الثانى من أدوار وجبته ، ويضحكون منه وهو يعبس فى وجه الشرطى ويسخر منه .

وقال وفمه لا يزال ممتلئا بالطعام :

— لقد كنت جائعا .

وصاح الجمع المحتشد :

— مرحى ! مرحى !

ولما هم بالاستيلاء على مافى حانوت الخباز الثالث جاءه ستة من رجال الشرطة وأخذوا يضربونه على ساقيه بعصيهم ومنعوه أن ينال بغيته .

وقال له رئيس هذه القوة :

— تعال معى أيها الجبار الظريف ، إننا لا نسمح لك بالخروج من بيتك بهذه الطريقة . تعال معى أعدك إلى منزلك .

وبذلوا ما فى وسعهم للقبض عليه ، وقيل إنه كانت معهم عربة تسير وراءهم فى الشوارع التى كانوا يطاردونه فيها ، وعليها عدة لفات من السلاسل

وحبال المراكب ليقيدوا بها يديه حين يقبضون عليه ، إذ لم يكن فى نيتهم حتى هذا الوقت أن يقتلوه . ذلك أن كترهام قد قال :

— إنه ليس من المشتركين فى المؤامرة ، ولست أريد أن أريق بيدى دما بريئا .

ثم أضاف إلى ذلك :

— حتى أجرب كل ما لدى من الوسائل الأخرى .

ولم يفهم كادلز فى أول الأمر غرضهم من هذا كله ، فلما فهمه طلب إلى رجال الشرطة ألا يركبوا رؤوسهم ، ثم خطا بضع خطوات واسعة خلفتهم وراءه ، وسار من حانوت الخباز فى هرو رود إلى غابة سنت چون ، ثم جلس فى حديقة خاصة لينظف أسنانه ، ولكنه ما لبث أن هاجمه عدد آخر من رجال الشرطة . فصاح فيهم :

— اتركونى وشأنى .

ومشى فى البستان وأتلف جزءاً كبيراً منه ، وهدم أحد أسواره ، ورجال الشرطة الصغار من خلفه ، بعضهم فى داخل البستان وبعضهم فى الطريق أمام المنازل . وكان من بينهم واحد أو اثنان يحملان سلاحا ولكنهما لم يستخدماه . فلما خرج من الحديقة إلى الطريق العام رأى لوحة جديدة وحركة جديدة بين الجماهير ، ولحق به شرطى على ظهر جواد ، ومشى الجواد فوق قدمه ولكنه اصطدم به ووقع هو وجواده على الأرض .

والتفت كادلز إلى الجماهير التى كانت تلهث من الجرى وقال لها :

— اتركونى وشأنى ! إنى لم أسئ إليكم قط .

ولم يكن معه فى ذلك الوقت سلاح ، فقد ترك ساطوره فى الطريق ، ولكنه شعر بشدة الحاجة إليه فرجع إلى فناء البضائع التابع لسكة الغرب الحديدية العظيمة ، وانتزع عموداً من أعمدة النور ، وكان عموداً ضخما بالنسبة إليه نفسه ، وألقى به على كتفه . ولما رأى الشرطى من ورائه يضايقه

تابع السير إلى كركل وود واتجه نحو الشمال وهو عابس مكتئب .

وظل سائرا حتى وصل إلى ولتهام ، ثم اتجه غربا ، ثم اتخذ طريقه مرة أخرى إلى لندن ، فاخترق المقابر ومر بهاى جيت ، وأشرف على المدينة الكبيرة مرة أخرى حوالى الظهر . وجلس يستريح فى إحدى الحدائق ، وأسند ظهره إلى جدار بيت ، وولى وجهه نحو المدينة ، وقد أضناه التعب وظهرت على وجهه علائم الغضب . ولم تلتف الجماهير حوله فى هذه المرة كما التفت حوله فى المرة الأولى ، ولكن الناس اختبئوا فى الحديقة المجاورة وأخذوا يطلون عليه من حيث لا يراهم . ذلك أنهم عرفوا وقتئذ أن ليس الأمر من السهولة كما يظنون . وقال كادلز :

— لا أدرى لم لا يتركوننى وشأنى ؟ أليس من حقى أن آكل ؟ لم لا يتركوننى وشأنى ؟

وجلس كادلز متجهم الوجه يعض بنانه وينظر إلى لندن ؛ وفى ذلك الوقت بلغ منه التعب والضيق والاضطراب والغضب غايتها . وقال بصوت خافت :

— إنهم لا يريدون شيئا ، إنهم لا يريدون شيئا ، ولكنهم لا يتركوننى وشأنى بل يقفون فى سبيلى .

وأخذ يكرر قوله : لا يريدون شيئا .

— أف من الخلائق الصغار .

وأخذ يعض بنانه بشدة ، وزاد وجهه عبوسا ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

— أنا أقطع لهم الطباشير ، وهم يملكون العالم كله ، ولا يسمحون لى بشىء منه ، ولا مكان فيه .

وزاد غضبه وعبوسه حين رأى الشرطى مرة أخرى يقفز فوق سور الحديقة . وقال الجبار بصوت عال :

— دعنى وشأنى ! دعنى وشأنى !

وقال الشرطى الصغير ذو الوجه الأبيض والعزيمة الماضية :

— إنى أؤدى واجبى .

— دعنى وشأنى ، إن من حق أن أعيش كما تعيشون ، ومن حقى أن أفكر وأن أطعم كما تفكرون وتطعمون ، فدعنى وشأنى .

ووقف الشرطى حيث هو وقال :

— إنه القانون ، ولسنا نحن الذين وضعنا القانون .

وقال كادلز :

— ولم أضعه أنا ، لقد وضعتموه أنتم أيها الخلائق الصغار قبل أن أولد ، وضعتم أنتم قانونكم هذا ، وذكرتم فيه ما هو واجب على وما هو محرم على ؛ ولم تعطونى طعاماً إلا إذا كدحت من أجله كدح العبيد ، ولم تسمحوا لى بالراحة ولا بالمسكن ولا بشىء قط ثم تقولون لى . .

وقال الشرطى :

— ليس هذا من شأنى ، وليس من حقى أن أحاججك ، وكل الذى علىّ أن أنفذ القانون .

ثم وضع رجله الأخرى على سور الحديقة وبدا أنه يهم بالنزول ، وظهر خلفه عدد آخر من زملائه .

وأمسك كادلز الصغير بعمود النور الضخم واصفر وجهه ، ورفع إصبعه منذراً الشرطى بسوء العاقبة وقال :

— اعلم أنى لا خصومة بينى وبينك ، ليس بينى وبينك خصومة ، ولكن عليك أن تتركنى وشأنى .

وحاول الشرطى أن يخفى اضطرابه ، وإن كان قد رأى أمامه مأساة مروعة وشيكة الوقوع ، ونادى زميلا له من خلفه لم يكن يراه وقال له :

— أعطنى الإعلان الذى معك .

فناوله هذا ورقة صغيرة بيضاء .

وناداه كادلز مرة أخرى وهو مقطب الجبين مضطرب الأعصاب متحفزاً :

— دعنى وشأنى .

وقال الشرطى قبل أن يقرأ :

— إنى آمرك أن تعود إلى بيتك ، وأن تعود إلى مقلع الطباشير وإلا أصابك الضرر .

وزمجر كادلز ولم يفعل شيئاً .

ولما فرغ الشرطى من قراءة الإعلان أشار بيده ، فظهر على الفور أربعة رجال مسلحين بالبنادق ، ووقفوا جميعاً وظهورهم إلى الجدار متصنعين الهدوء . وكانوا يلبسون حللا رمادية . ولما أبصر كادلز البنادق انفجر بركان غيظه وتذكر ما أصابه من بنادق زراع ركستون ، وأشار بيده إلى رجال الشرطة وقال لهم :

— أتريدون أن تطلقوا هذه البنادق علىّ .

فظنه الشرطى خائفاً ، فقال له :

— إذا لم تعد إلى حفرة الطباشير .

ولم تمض إلا برهة وجيزة حتى كان الشرطى يتسور الحديقة إلى خارجها ومن ورائه عمود النور الضخم . وانطلقت البنادق ، وتطايرت أحجار السور وأرض الحديقة ، وتطايرت معها أشياء تركت نقطاً حمراء على يدى أحد الضاربين . وتحرك رجال الشرطة يمنة ويسرة ثم أجمعوا أمرهم واستعدوا لإطلاق النار من جديد . وأصيب كادلز برصاصتين اخترقتا جسمه ، والتفت ليرى من الذى أصابه إصابة قوية فى ظهره ، وفى هذه اللحظة أطلقت عليه النار مرة أخرى . وارتسمت فى خياله فى هذه اللحظة صور البيوت والحدائق والناس يطلون عليه من النوافذ ، ورأى هذه الأشياء تهتز وتضطرب اضطراباً غريباً ، وخطا ثلاث خطوات ، ورفع عمود النور الذى كان معه ، ولكنه ألقاه على الأرض من فوره ، وأمسك بصدره وهو يتلوى من الألم .

وشعر بشيء دفئ يبلبل يديه .

وشاهد وجهه رجل كان يطل من نافذة حجرة نومه ، ورآه يحدق فيما حوله وهو مقطب الوجه يبكى من الألم ، ويده ملوثة بالدماء ، ثم انثنت ركبتاه من تحته ، وسقط على الأرض ، فكان أول الجبابرة الذين خروا صرعى أمام عزيمة كترهام . وكان هذا السياسى يظن أن كادلز سيكون آخر من يسقط منهم فى يده .

الفصل الرابع

يومان من أيام ردوود

١

وما كاد كترهام يعلم أن قد حان الوقت الذى يريد أن « يجتث فيه الشر من منبعه » حتى جمع سلطان القانون كله فى يديه وأرسل رجاله ليقبضوا على ردوود .

ووجد أولئك الرجال ردوود فى المكان الذى ذهبوا إليه ليقبضوا عليه فيه . وكانت عملية جراحية قد أجريت له فى جنبه ، وأمر الأطباء أن يبعد عنه كل ما يثير شعوره حتى يجتاز دور النقاهة ؛ فلما اجتازه رفعوا عنه هـذا القيد . وكان حين أقبلوا عليه قد غادر الفراش من زمن قليل ، وجلس فى حجرة مدفأة ، وحوله كومة من الصحف كان يقرأ فيها لأول مرة عن الاضطراب الذى ألقى بالبلاد فى قبضة كترهام ، وعن المتاعب التى كانت تحيط بابنه وبالأميرة . وكان ذلك فى صباح اليوم الذى مات فيه كادلز الصغير ، وهو نفس اليوم الذى حاول فيه رجال الشرطة أن يمنعوا اتصال ردوود الصغير بالأميرة . على أن آخر الصحف التى قرأها لم ترسم لهذه الحوادث الخطيرة إلا صورة مبتورة ، وأخذ الرجل يقرأ هذه النذر الأولى بقلب وجل ، ويرى شبح الموت كامنا وراءها يكاد يراه رأى العين ، ولـكنه مع ذلك واصل القراءة ليشغل نفسه حتى تصل إليه أخبار جديدة .

ولما جاء رجال الشرطة إلى حجرته وراء خادمه نظر إليهم فى قلق واضطراب .

ثم قال لهم :

— أظن أن صحيفة من صحف المساء الأولى . . .

ثم وقف فى مكانه وغير لهجته على الفور وقال :

— ما هذا ؟

وظل ردوود بعد هذا اللقاء يومين كاملين يجهل كل ما يحدث .

ذلك أن رجال الشرطة جاءوا معهم بعربة ليحملوه فيها ، فلما تبينوا أنه مريض قرروا أن يتركوه يوماً أو يومين حتى لا يصيبه أذى فى أثناء نقله ، واتخذوا من بيته فى هذه الأثناء سجناً مؤقتاً له . وكان بيته هذا هو البيت الذى ولد فيه ابنه ردوود الجبار ، والذى قدم فيه هرقليوفوربيا لأول إنسان على ظهر الأرض ، وكان ردوود يعيش فى هذا البيت أعزب من ثمانى سنين .

وقد أصبح وقتئذ أسمر اللون ، ذا لحية صغيرة مدببة ، وعينين عسليتين سريعتى الحركة ، ولكنه بقى كما كان نحيل الجسم هادئ الصوت ، وبدا على ملامحه ذلك المظهر الذى لا يمكن وصفه ، والذى يبدو دائماً على كل من يقضى وقته يفكر فى عظائم الأمور . وبدا لضابط الشرطة أن مظهره الهادئ لا يتفق مطلقا مع الجرائم الشنيعة التى اقترفها ، وقال لمرؤوسه الذى يليه فى المرتبة :

— هذا هو المجرم الأثيم الذى لم يترك شيئاً إلا أفسده ، ومع ذلك ترونه هادئاً وقوراً كأنه من أعيان الريف ، على حين أن القاضى هانجبراو الذى يقيم العدل والنظام بين الناس ، يُرى له رأس كرأس الكلب . ثم انظر إلى أخلاقهما تر أحدهما يسيل رقة وكياسة ، والآخر يخور كالثور أو يقبع كالخنزير ؛ ألا يدلك هذا على أن المظاهر خداعة لا تتفق فى شىء مع الحقيقة ؟

ثم حدث ما بدل أفكاره عن رفة ردوود وكياسته ، فقد سبب للضابط متاعب جمة فى أول الأمر ، ولم يخضع لرجال الشرطة إلا بعد أن تبين من أقوالهم أن لا فائدة ترجى من الجدل أو من طلب الأوامر المكتوبة ، وفتشوا حجرة مكتبه ، وأخذوا جميع أوراقه رغم احتجاجه وضجيجه وقوله لهم مراراً وتكراراً :

— ألا ترون أن ولدى الوحيد هو الذى حلت به المصائب كلها ؟ إنى لا يهمنى ما يؤول إليه أمر الطعام ، بل الذى يهمنى أن أعرف ما أصاب ابنى .

وقال له الضابط :

— ليتنى أستطيع أن أخبرك شيئاً عنه ، ولكن أوامرنا ياسيدى صريحة لا أستطيع أن أحيد عنها أبدا .

وسأله ردوود :

— ومن أين جاءتك هذه الأوامر ؟

فأجابه وهو يتحرك نحو الباب :

— من هنالك ياسيدى . . .

وقال الشرطى الثانى حين رأى رئيسه مقبلا عليه :

— إنه يسير فى الحجرة جيئة وذهابا ، ولا ضرر من أن يفعل هذا ، فلنسمح له بالسير فيها قليلا .

وقال كبيرهم :

— أرجو أن يداوم على ذلك ، والحق أنى لم أر المسألة من قبل كما أراها الآن ، ولكن الفتى الجبار الذى كان ذا صلة بالأميرة كان ابن هذا الرجل كما تعرف .

وأخذ الرجلان يحدق أحدهما فى الآخر ، ويحدق كلاهما فى الشرطى الثالث لحظة قصيرة .

وقال الشرطى الثالث :

— وإذن فسوف يلحق به من جراء هذا بعض الأذى .

وتبين ساعتئذ أن ردوود لم يكن قد عرف بعد أن كل صلة بينه وبين العالم الخارجى مقطوعة ، فقد سمعوه يسير نحو الباب ويدير مقبضه ويحاول فتحه ، فصاح به الشرطى الذى كان واقفا عند رأس السلم إنه يحاول عبثا . ثم ذهب نحو النافذة ، ورأى الواقفين فى خارج الدار ينظرون إليها ، وقال له الشرطى الثانى :

— لا فائدة ترجى من هذه الناحية .

ثم أخذ ردوود يضغط على الجرس فجاءه كبير الشرطة وقال له فى هدوء إنه لافائدة من ضغط الجرس على هذا النحو ، وإنه إذا ظل يفعل ذلك لغير فائدة كما يفعل الآن فإن أحدا لن يجيبه بعد ذلك إلى مايطلبه إذا كان فى حاجة إليه .

— إننا على استعداد لأن نجيبك يا سيدى إلى ما تطلبه إذا كان ما تطلبه معقولا ، أما إذا ظللت تدق الجرس ولا تقصد بدقه إلا الاحتجاج فسنضطر يا سيدى إلى قطع التيار .

وكانت آخر كلمة سمعها الشرطى هى قول ردوود بصوت عال :

— ولكنكم تستطيعون على الأقل أن تخبرونى هل ولدى . . . ؟

٢

وكان ردوود يقضى الجزء الأكبر من وقته بعد ذلك اليوم واقفاً أمام نوافذ بيته .

ولكن هذه النوافذ لم تنبئه بشىء عن سير الحوادث فى خارج الدار ، لأن الشارع الذى تطل عليه كان هادئا فى جميع الأوقات ، وكان أهدأ مايكون فى اليوم الذى قبض عليه فيه ! فلم تمر فيه عربة ركوب ولا عربة نقل طول الصباح . وكان يمر بين الفينة والفينة رجال لا تنم وجوههم عن علمهم

بمجرى الحوادث ، وجماعات من الأطفال ، أو خادمة أو امرأة خرجت من دارها لتبتاع بعض حاجياتها من السوق . مر هؤلاء كلهم أمام البيت متجهين يمنة أو يسرة نحو وسط المدينة أو نحو طرفها غير مبالين بشيء مما يحدث حولهم ، انهم إلا ما يمس مصالحهم الخاصة . وكانوا ينظرون إلى البيت الذى يحاصره رجال الشرطة بشيء من الدهشة ثم يتجهون إلى الناحية المضادة له ويمرون بالنبات المتسلق الضخم الذى يظلل الطوار ، ويحدقون بأبصارهم فى الدار ويشيرون إليها بأيديهم ؛ وكان يأتى من حين إلى حين رجل يسأل الشرطى سؤالا ولكنه لا يلقى منه إلا ردا موجزا لا يشفى غليلا . . .

وكان كل شيء أمام البيت ساكنا سكون من فى القبور ، وحدث مرة أن أطلت خادمة من نافذة حجرة فى البيت أمامه ، وأبصرها ردوود ، وهم بأن يشير إليها بيده ، وظلت هى زمنا ما ترقب حركاته بشيء من الاهتمام فى ظنه ، وأجابت عن إشاراته إجابة غامضة المعنى ، ثم نظرت إلى خلفها وأدارت وجهها واختفت من أمامه . وخرج شيخ أعرج من باب الدار رقم ٣٧ ومشى نحو اليمين من غير أن يلقى نظرة إلى أعلى ، وظل الطريق وقتا ما خاليا ليس فيه من الكائنات الحية إلا هرة . . .

وطال صباح ذلك اليوم المفعم بالحوادث ، ولكن الدار ومن فيها لم تشهد إلا أمثال تلك الحادثات التافهة التى مر ذكرها .

فلما انتصف النهار أقبل باعة الصحف من الطريق المجاور للبيت ينادون بصوت عال ، ولكنهم لم يلبثوا أن اختفوا هم أيضاً عن الأنظار ، ولم يسيروا فى شارع ردوود على خلاف عادتهم المألوفة ، ولاح للرجل أن رجال الشرطة يسدون منافذ الشارع ، ويمنعون المرور ، وحاول أن يفتح النافذة ولكن هذه المحاولة جاءته بشرطى على الفور . . .

ودقت ساعة الكنيسة الثانية عشرة ، ومرت فترة طويلة دقت بعدها واحدة .

وجاءوا له بما يسمونه غذاء من قبل السخرية .

فأكل منه شيئاً قليلا ثم أبعده عنه بيده ، وطلب إلى من جاءوا له به أن يأخذوه ، وشرب كثيرا من الوسكى ، وأخذ بيده مقعدا ووضعه إلى جوار النافذة . ومرت الدقائق مرا بطيئاً ولعله نام بعض الوقت .

واستيقظ وهو يشعر بارتجاج بعيد لا يعلم حقيقته ، ورأى النافذة ترتجف كأنما الأرض تميد من زلزال، ودامت هذه الرجفة دقيقة سكتت بعدها قليلا ، ثم عادت من جديد . . . ثم سكتت مرة أخرى ، وظنها أول الأمر صادرة من مركبة ثقيلة تمر فى الطريق العام ؛ وماذا يمكن أن تكون غير هذا ؟ . . .

وبعد فترة قصيرة بدأ يظن أنه واهم ، ويرتاب فى أنه سمع صوتا على الإطلاق .

وشرع يحاور نفسه حواراً طويلا ، فسأل نفسه لأى سبب يقبضون عليه ؟ لقد تقلد كترهام مقاليد الحكم من يومين ، وهى مدة تكفى لأن « يجتث فيها الشر من أصوله » نعم يجتث الشر ، يجتث الشر المستطير ، وتملكت هذه الفكرة عقله وشغلت باله .

ولكن أى شىء يستطيع أن يفعله كترهام ؟ أليس هو رجلا متديناً تقياً ؟ ألا يحتم عليه دينه ألا يصطنع العنف مع الناس من غير سبب ؟

وهو يريد أن يجتث الشر ! لعله يريد مثلا أن يقبض على الاميرة ويخرجها من البلاد ، ولعل ابن ردوود قد أثار بعض المشاكل . وفى هذه الحال . . . ! ولكن لم قبضوا عليه ؟ ولم يحرصون على أن يبقى منقطع الصلة بشىء مثل هذا ؟ إن هذا وحده ليوحى بأن ثمة أموراً على جانب من الخطورة .

فلقد يكون فى نيتهم مثلا أن يقبضوا على الجبابرة جميعاً ، وان يقبضوا

عليهم كلهم فى وقت واحد . لقد كانوا يشيرون إلى ذلك فى خطب الدعاوة الانتخابية . وماذا يفعلون بهم بعد ذلك ؟

وما من شك فى أنهم قبضوا على كوسار أيضاً .

ولكن ردوود لم يستطع أن ينسى قط أن كترهام رجل متدين ، غير أن عقله الباطن كان أشبه بلوحة سوداء تظهر عليها حيناً وتختفى منها حيناً آخر كلمة . . . كلمة رهيبة كتبت بحروف من نار . وكان يحاول على الدوام أن يمحو هذه الكلمة ، ولكنها كانت إذا محيت لا تلبث ان تعود بدايتها من فورها إلى الظهور . ثم لا تتم جميعها .

واضطر أخيراً أن يقرأ هذه الكلمة ويعرف معناها فإذا هى المذبحة نعم المذبحة بكل ما يحمل هذا اللفظ من وحشية .

لا ! لا ! لا ! لا ! إن ذلك مستحيل ، إن كترهام لرجل متدين ، ورجل متمدن ، أبعد هذه السنين كلها وبعد هذه الآمال كلها . . . ؟

وقفز ردوود من مكانه وأخذ يخطو فى الحجرة يحدث نفسه ثم صاح قائلا :

— لا .

— إن الإنسان لم يركب رأسه إلى هذا الحد ، إنه لا يفعل هذا أبداً ، إن ذلك مستحيل ، إنه غير معقول ، ولا يمكن أن يكون . وأى خير يرجى من قتل الجبابرة من بنى الإنسان إذا كان عهد الجبابرة فى الكائنات الحية من غير بنى الإنسان قد أصبح لا مفر منه ؟ لا إنهم لم يبلغوا من الجنون هذا المبلغ !

وقال بصوت عال :

— يجب أن أطرد هـذه الأفكار من عقلى ، يجب أن أطردها ! طرداً أبدياً .

واضطربت أعصابه فجأة . ما هذا ؟

لا شك فى أن النوافذ قد ارتجفت ، وذهب ليطل من إحداها على

الشارع ، وما كاد يفعل هذا حتى تثبت بعينيه مما سمعه بأذنيه ، فقد أبصر فى حجرة النوم فى المنزل رقم ٣٥ امرأة ، وفى يدها منشفة ، ورأى فى مطعم المنزل رقم ٣٧ رجلا خلف إناء ضخم ، وكان كلاهما ينظر إلى الشارع فى خوف ظاهر ودهشة ، ورغبة فى معرفة ما هو حادث . وكان فى وسعه أن يرى أن الشرطى الواقف على الطوار قد سمع هو الآخر هذا الصوت ، فلم يكن منشأه إذن خياله .

وعاد أدراجه إلى حجرته المظلمة وقال :

— أهى مدافع ؟

ثم أخذ يفكر .

— أهى مدافع ؟

وجاءوا له بشاى مركز كالذى اعتاد أن يشربه ، واتضح له أن السيدة التى يقيم عندها قد استشيرت فى أمره ، وشرب الشاى ، ولكن اضطرابه كان أقوى من أن يمكنه من الجلوس عند النافذة ، فأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهاباً ، واستطاع عقله أن يفكر تفكيراً مسلسلا منتظماً .

وكانت هذه الحجرة حجرة مكتبه من أربع وعشرين سنة ، أثثها وقت زواجه ، ولم يزد على هذا الأثاث شىء هام بعد ذلك التاريخ ، فكان فيها مكتبه الكبير ، وكرسيه الدوار ، وكرسيه المريح المجاور للموقد ، ورف الكتب الدوار ، والعيون المرقومة التى تملأ أحد الجدران . وكان فيها بساط تركى زاهى اللون ، وسجاجيد من آخر عهد الملكة فكتوريا ، وستائر ذهبت بعض جدتها فأكسبها ذلك شيئاً من الوقار . وكان وهج النار ينعكس على نحاس المدفأة ، فترسل الضياء والدفء فى الحجرة . وحل النور الكهربائى محل المصابيح القديمة ، وكان هذا أهم ما حدث من التغيير فى أثاث الحجرة الأولى . غير أن صلته بالطعام تركت آثاراً كثيرة فى هذا الأثاث ، فقد علقت على أحد جدرانها طائفة كبيرة من الصور الشمسية

وغير الشمسية فى أطر سود ، تمثل ابنه وأبناء كوسار وغيرهم من أبناء طعام البدن فى مراحل مختلفة من نموهم ، وفى أوساط مختلفة . ولم تخل هذه المجموعة من وجه كادلز الذى يفصح عن خلو باله . وكان فى أحد أركان الحجرة حزمة من كلأ المراعى جاء بها من تشيزنج آيبريت ، وعلى مكتبه ثلاثة من رؤوس الخشخاش لا يقل حجمها عن حجم القبعات ، واتخذ من سيقان الكلأ عصيا للستائر ، وعلق فوق الموقد جمجمة خنزير أوكهام الضخمة ، ووضع فى مكان العينين فيها إناءين من الخزف الصينى وفم كل منهما متجه إلى أسفل نحو الموقد . . .

وكانت الصورة الشمسية ، وخاصة صور ولده ، هى التى اتجه ردوود نحوها وقتئذ .

وذكرته هذه الصور بأشياء كثيرة ذهبت من ذاكرته . ذكرته بأيام الطعام الأولى ، وذكرته ببنزنجتن ومخاوفه ، وبابنة عمه چين ، وكوسار ، وبليلة مزرعة التجارب ؛ وعادت الأشياء كلها وقتئذ إلى ذاكرته صغيرة واضحة مفصلة كأنه يراها من خلال منظار مقرب فى يوم مشمس . ثم مرت بخياله الحجرة الكبيرة التى كانت مخدعا للأطفال ، وذكر الجبارة فى طفولتهم ومحاولتهم النطق ، وذكر أول ما شعر بعاطفة الحب .

والمدفع ؟

ثم غمره شعور قوى شامل لم يقو على مقاومته بأن فى خارج هذه الدار ، وفى خارج هذا السكون الرهيب المشئوم ، وهذا الغموض العجيب ، كان ابنه وأبناء كوسار هم وجميع الثمار الجيدة الأولى للعهد العظيم المقبل ، كان هؤلاء جميعا فى تلك الساعة . . . يقاتلون . يقاتلون طلبا للحياة ، وقد يكون ابنه هو فى تلك اللحظة فى ورطة موئسة مضطربا جريحا مغلوبا على أمره . . .

وابتعد عن هذه الصورة وأخذ يخطو فى الحجرة ويحرك يديه حركات عصبية ، ثم صاح قائلا :

— إن ذلك لا يكون ! إن ذلك لا يكون ! تلك خاتمة لا يمكن أن تكون !

— وما هذا الذى أسمع ؟

ووقف وقد جمدت عضلاته فلم يقو على الحركة .

ذلك أن النوافذ بدأت ترتجف مرة أخرى ، ثم سمعت هدة ارتج لها المنزل كله ، وخيل إليه أنها دامت سنين طوالا ، وما من شك فى أنها كانت جد قريبة ؛ وخيل إليه هنيهة أن شيئاً قد ألقى على المنزل من أعلاه — وقد شعر بصدمة قوية أعقبها تساقط زجاج النوافذ ، ثم ساد السكون وانتهت هذه الصدمة بصوت واضح لا خفاء فيه ، ناشئ من أقدام تجرى فى الطريق .

وأطلقته هذه الأقدام من جموده ، فاتجه إلى النافذة ووجد زجاجها مهشما وقد سقط بعضه وبقى البعض الآخر .

ودق قلبه دقات منذرة بحوادث حاسمة توشك أن تطلقه من أسره . ثم عاوده عامه بضعفه وقيوده فوقف متحيراً مبهوتا !

ولم يكن فى وسعه أن يرى شيئاً فى خارج حجرته إلا أن المصباح الكهربائى الصغير الذى كان أمام النافذة لم يكن مضاء ، ولم يكن فى وسعه أن يسمع شيئاً بعد الصوت الأول الذى بعث فى نفسه الفزع الشديد ، ولم يكن يستطيع أن يضيف إليه شيئاً يفسر به ذلك الغموض الرهيب إلا وميضاً أحمر مضطربا أبصره فى السماء فى الجهة الجنوبية الشرقية .

وقوى الضوء ثم ضعف ، فلما ضعف لم يصدق أنه كان فى وقت ما قويا . ذلك أنه أقبل عليه شيئاً فشيئا من خلال الظلام ، وكان هو أهم ما حدث له فى ليلته ، ليلة الانتظار الطويل الرهيب ، وخيل إليه وقتاً ما أنه كان يضطرب لاضطراب اللهب ، ثم حسبه فى وقت آخر انعكاس أضواء المساء المعتادة . وأخذ هذا الضوء يقوى ويضعف خلال ساعات الليل الطويلة ، ولم يختف إلا بعد أن طغى عليه ضياء القمر ، فهل كان معناه أن . . . ؟ ماذا عسى أن

يكون معناه ؟ إنه لا يكاد يخالجه شك فى أنه نار من نوع ما ، قريبة كانت أو بعيدة ، ولكنه لم يستطع أن يتبين هل كان الذى مر فى عرض السماء من فوقه دخانا أو سحابة ؟ ثم رأى حوالى الساعة الواحدة صباحا أضواء كاشفة تظهر وتختفى خلال اللهيب الأحمر ، وظلت كذلك فيما بقى من هذه الليلة الليلاء . وهذه الأنوار أيضاً قد يكون لها معان كثيرة ، فماذا عسى أن تدل عليه هذه الأنوار ؟ وماذا كان معناها ؟ لم يكن فى مخيلته وقتئذ إلا السماء الملوثة المضطربة التى أوحت إلى عقله بحدوث انفجار من نوع ما شغله وزاد فى قلقه . ولم تصل إلى آذانه أصوات أخرى ، ولا وقع أقدام قوم يجرون ، وكل ما سمعه صراخ قد لا يكون إلا صراخ قوم سكارى بعيدين عنه . . .

ولم يضىء أنوار حجرته بل ظل واقفا أمام نافذته المهشمة فى تيار الهواء ، يراه الشرطى الذى كان من حين إلى حين يطل عليه فى الحجرة ويأمره أن يستريح ، فيبدو له شبحا ضئيلا يائسا .

وظل ردوود الليلة كلها واقفا عند النافذة ، ينظر إلى السماء التى يحاول أن يخترق حجبها السميكة ، ولم يخضع لمطلب جسمه المنهوك إلا فى مطلع الفجر ، فألقى بنفسه على السرير الصغير الذى أعدوه له ، بين المكتب والموقد الذى خبت ناره تحت جمجمة الخنزير الضخمة

٣

وظل ردوود ستا وثلاثين ساعة سجينا لا تصل إليه أنباء المأساة العظيمة التى دامت يومين كاملين ، كان الخلائق الصغار فى خلالها يقاتلون أبناء الطعام الذين ظهروا فى مخ العظمة ، فلما ارتفع عنه الستار الحديدى بعد هذه الفترة وجد نفسه قريبا من مركز الكفاح . وكان ارتفاع الستار

فجأة كما كان نزوله من قبل فجأة ، فقد أقبل على النافذة حين سمع صوت مركبة تقف عند باب الدار ، ونزل منها شاب رآه بعد دقيقة واحدة واقفاً أمامه فى الحجرة ؛ وكان شابا صغير الجسم لعله كان فى الثلاثين من عمره ، حليق اللحية أنيق الملبس ، مؤدبا ظريفا .

وبدأ حديثه بقوله :

— سيدى مستر ردوود ، أتسمح بمقابلة المستر كترهام ؟ إنه يريد أن يراك عاجلا .

فأجابه ردوود :

— يريد أن يرانى !

وخطر لردوود على الفور سؤال ظل لحظة قصيرة عاجزا عن أن ينطق به .

وتردد ثم قال بصوت مضطرب :

— ماذا فعل بابنى ؟

ثم حبس أنفاسه ووقف ينتظر الجواب .

— ابنك يا سيدى ؟ إن ابنك يتحسن ، أو أن هذا على الأقل هو الذى يمكن استنتاجه .

— يتحسن ؟

— لقد جرح بالأمس يا سيدى ، ألا تعلم ذلك ؟

ولم يطق ردوود صبرا على هذه الادعاءات الباطلة ، ولم يكن صوته بعدئذ صوت الخائف بل صوت الغاضب فقال :

— إنك تعرف أنى لم أسمع ، تعرف أنى لم أسمع شيئا .

— ولقد كان مستر كترهام ياسيدى يخشى أن . . . لقد كان الوقت وقت اضطراب وثورة ، وأخذنا كلنا على غرة ! وقد ألقى القبض عليك يا سيدى ليمنع عنك كل سوء . . .

— لقد ألقى القبض علىَّ ليمنعنى أن أحذر ولدى ، أو أن أسدى

إليه النصيحة — قل لى ماذا حدث ؟ هل نجحتم ؟ هل قتلتوهم جميعا ؟

وخطا الشاب خطوة أو اثنتين نحو النافذة ثم التفت وأجاب عن سؤاله جواباً موجزاً :

— لا يا سيدى .

— ماذا تريد أن تقول لى ؟

— إن فى هذا يا سيدى لدليلا على أننا لم نسع إلى هذا القتال ، ولم ندبر أمره ، بل فوجئنا به . . . ولم نكن مستعدين له مطلقاً .

— ماذا تقصد ؟

— الذى أقصده يا سيدى أن الجبابرة قد صمدوا — بعض الصمود .

وتبدل العالم فى نظر ردوود ، واستولى على عضلات وجهه وحلقه لحظة من الزمان نوع من الهستريا ، ثم أخرج من قلبه لفظ « آه » . وكاد قلبه يطير فرحاً « إن الجبابرة قد صمدوا ! »

— لقد قامت حرب عوان ، دمرت كل شىء ، وكان منشأها سوء فهم شنيع . . . وقتل عدد من الجبابرة فى الشمال وفى الوسط . . . وفى كل مكان .

— وهم يقاتلون الآن ؟

— لا يا سيدى لقد رفعت راية الهدنة .

— من جانبهم ؟

— لا ياسيدى ، لقد أرسل إليهم كترهام رسولا يحمل راية الهدنة . ذلك أن الأمر كله نشأ من سوء فهم شنيع . ومن أجل هذا يريد أن يتحدث إليك ليشرح له القضية كما يراها هو . وهم يصرون على أن تتدخل أنت فى الأمر .

وقاطعه ردوود قائلا :

— وهل تعرف ماحدث لولدى ؟

— لقد جُرِح .

— قل لى ! قل لى !

— لقد جاء هو والأميرة . . . قبل أن . . . يتم الحصار الذى كان يراد فرضه على . . . معسكر أبناء كوسار فى تشزل هرست ، وجاءا على حين غفلة يا سيدى مندفعين وسط أجمة كثيفة من نبات الشوفان الضخم ، قرب النهر ، وهجما على كتيبة من الفرسان ... وكان الجند قد قضوا النهار كله وأعصابهم متوترة ففزعوا .

— وأطلقوا الرصاص عليه ؟

— لا يا سيدى . بل فروا ، وأطلق بعضهم الرصاص عليه — فى أثناء فزعهم — مخالفين فى ذلك ما صدر إليهم من الأوامر

وأظهر ردوود أنه لا يصدق هذا القول .

— إنه صحيح ياسيدى ، ولست أدعى أن الأوامر التى صدرت إليهم بعدم إطلاق الرصاص كانت من أجل ولدك ، فالحقيقة أنها كانت من أجل الأميرة .

— نعم هذا صحيح .

— وانطلق الجباران نحو المعسكر ، وجرى الجند فى جهات مختلفة ، ثم بدأ إطلاق النار ، ويقولون إنهم رأوه يترنح .

— آه .

— أجل يا سيدى . ولكننا نعرف أن جرحه غير خطر .

— آه .

— وكيف عرفتم ذلك ؟

— لقد بعث برسالة يا سيدى يقول فيها إنه يتماثل للشفاء .

— إلىّ ؟

— ولمن غيرك يا سيدى ؟

ووقف ردوود نحو دقيقة مطوى الذراعين يتفهم هذا النبأ ، ثم انفجر مرجل غضبه .

— إنكم تريدون منى ألا أعُدَّكم سفاكين ، قتلة عامدين ، لأنكم سلكتم فى عملكم هذا سبيل الجهلة الأغبياء ، وأخطأتم التقدير ، وارتكبتم أشنع الأغلاط ، وفوق هذا فإنكم . . . وماذا حدث بعدئذ ؟

ونظر الشاب نظرة المستفهم .

— والجبابرة الآخرون ؟

ولم يتظاهر الشاب بعد هذا بأن القتال نشأ من سوء فهم . وقال بصوت منخفض :

— لقد قتل منهم يا سيدى ثلاثون .

— عدا الجرحى ؟

— نعم يا سيدى .

وقال فى غضب :

— وبعدئذ يريد كترهام أن يقابلنى . . . وأين الباقون ؟

— ذهب بعضهم إلى المعسكر فى أثناء القتال يا سيدى . . ويلوح أنهم عرفوا . . .

— نعم عرفوا بطبيعة الحال . . . ولولا كوسار . . . هل كوسار هنالك ؟

— نعم ياسيدى ، وهناك أيضاً جميع الجبابرة الأحياء ، فالذين لم يصلوا إلى معسكرهم فى أثناء القتال قد ذهبوا إليه أو هم يذهبون إليه الآن فى حماية راية الهدنة .

وقال ردوود :

— إن معنى هذا أنكم هزمتم .

— لا ! ياسيدى لم نهزم ، إنك لا تستطيع أن تقول إننا هزمنا ، ولكن أبناءكم خالفوا قوانين الحرب ، خالفوها مرة فى الليلة الماضية ، وخالفوها مرة أخرى فى هذه الليلة ، بعد أن وقف هجومنا عليهم . وقد بدأوا عصر هذا اليوم يطلقون القنابل على لندن .

— إن من حقهم أن يفعلوا هذا !

— إنهم يطلقون عليها قنابل محشوة . . . بالسم .

— بالسم ؟

— نعم بالسم . . . بالطعام . . .

— هرقليوفوربيا ؟

— نعم ياسيدى . والمستر كترهام يا سيدى ؟

— لقد هزمتم ! لا شك فى أن هذا سيؤدى إلى هزيمتكم ، إنه من فعل كوسار . وماذا ترجون أن تفعلوا الآن ؟ وأى فائدة ترجونها من أى شىء تفعلونه الآن ؟ إنكم ستستنشقونه فى الغبار الذى يتطاير فى كل شارع من شوارعكم . وأى شىء تريدون أن تحاربوا من أجله بعد هذا ؟ وتقولون قوانين الحرب ! والآن يريد كترهام أن يخدعنى فأساعده على أن يساومهم . رحماك اللهم ! وما الذى يحملنى على الدفاع عن قضيتكم الخاسرة ؟ لقد فعل فعلته . . . فقتل وارتكب أشنع الأغلاط ، وما الذى يوجب علىّ أن أساعده .

ووقف الشاب مظهرا الاحترام واليقظة ثم قاطعه بقوله .

— الحق ياسيدى أن الجبابرة يصرون على مقابلتك ، ولن يقبلوا سفيرا سواك ، فاذا لم تذهب إليهم فإنى أخشى ياسيدى أن تراق دماء أخرى .

— منكم على ما أظن ؟

— لا ياسيدى بل من الجانبين . إن العالم يريد أن تختم هذه المأساة .

وأجال ردوود بصره فى مكتبه ، ووقعت عيناه على صورة شمسية لولده ، ونظر إليها لحظة ثم التفت ورأى الشاب فى انتظار الجواب ، وقال أخيراً :

— نعم سآتى إليهم .

٤

وكان اجتماعه بكترهام يختلف كل الاختلاف عما كان يتوقعه؛ ولم يكن قد أبصر كترهام قبل هذا اللقاء إلا مرتين اثنتين فى حياته ، إحداهما فى وليمة والأخرى فى حجرة الانتظار فى مجلس النواب . ومن أجل هذا لم تكن الصورة المرتسمة له فى ذهنه صورة كترهام الإنسان الحق ، بل كانت صورة الإنسان الذى خلقته الصحف وخلقه الرسامون الهزليون ، كترهام الخيالى « قاتل المردة » پرسيوس وما إلى ذلك ؛ فلما رآه رأى العين بددت شخصيته الحقة كل ما ارتسم فى خياله من صور زائفة .

فلم يكن وجهه كما صوره الرسامون والهازلون ، بل كان وجه شخص شاحب منع عنه النوم طويلا ، واستطال وكثرت غضونه ، واصفر بياض عينيه ، وظهر ضعفه على جانبى فمه . نعم إنه رأى العينين الحمراوين العسليتين ، والشعر الأسود ، والأنف الأقنى الذى اختص به هذا الزعيم الشعبى ، ولكنه رأى شيئاً آخر قضى على ما كان يجول فى خاطره من استهزاء بهذا الرجل وانطلاق لسانه فيه . لقد كان يقاسى آلاما مبرحة وينوء كاهله بعبء ثقيل ، وبدا فى أول نظرة أنه متكلف متصنع ، فلما أشار بيده إشارة واحدة خفيفة تبين ردوود أنه يحتفظ بقواه بتعاطى بعض العقاقير . وسرعان ما وضع إصبعه فى جيب صديريته ، وبعد أن نطق بعبارات قليلة كشف عن حقيقة أمره ووضع قرص الدواء بين شفتيه .

وكان كترهام على الرغم من العبء الثقيل الملقى على عاتقه ، وعلى الرغم من أنه كان على ضلال ، وأنه كان أصغر من ردوود بنحو اثنتى عشرة سنة ، كان على الرغم من هذا لا يزال يحتفظ بتلك الصفة العجيبة — التى أستطيع أن أسميها الجاذبية الشخصية — لأنى لا أجد لها خيراً من هذا الاسم ، والتى

شقت له طريقاً إلى ذلك المجد الذى يوشك أن يؤدى به إلى الهلاك . وتلك أيضاً من الأشياء التى لم يكن ردوود قد حسب لها حسابا . وسيطر كترهام من أول الأمر على الموقف ، سيطر على سير الحديث وموضوعه . فقد كان هو الذى أوجد الجو الذى ساد المرحلة الأولى من الحديث ، وقرر نغمته وطريقته ومجراه . وجرى هذا الحديث كأنه كان أمراً طبيعياً لا تكلف فيه . ولم يكد ردوود يراه حتى تبدد كل ما هيأه أو توقعه ، فقد سلم عليه كترهام بيده قبل أن يتذكر ردوود أنه يريد أن يفر من هذه الألفة ، وجعل الحديث من بداية الأمر واضحاً قويا يرمى إلى البحث عن خير الطريق للخروج من هذا المأزق الخطر .

وإذا أخطأ فى شىء فقد كان هذا الخطأ يقع حينما يتغلب عليه التعب فيشرد عقله وينسى أنه فى حديث خاص ، فيتكلم كأنه يخطب فى مجتمع عام . وكان بعدئذ يعود إلى نفسه فيشد جسمه — لأن الرجلين كانا يتحدثان وهما واقفان طوال الوقت — ويدير وجهه عن ردوود ، ثم يعود إلى موقفه الخطابى فيحاور ويدافع عن نفسه ، وبلغ به الأمر أن قال مرة :

— أيها السادة !

ثم انطلق يتحدث فى هدوء . . .

وتخللت الحديث لحظات لم يكن ردوود يشعر فيها أنه جاء ليناقش محدثه ، فكان الحديث كله من جانب واحد ، وأصبح هو مجرد مشاهد لظاهرة عجيبة وخيل إليه أنه ليس من نوع ذلك المخلوق الذى يتحدث إليه بلا انقطاع ، والذى يغمره صوته العذب الجميل . لقد كان هذا العقل الذى أمامه عقلا قوياً ، ولكنه عقل محدود . ومرت بخيال ردوود فى أثناء الحديث صور شاذة غريبة أثارها نشاط هذا الرجل وقوة شخصيته وغياب بعض الأشياء عن عقله . ولم ير فيه ردوود عدوا له من بنى جنسه ، فى وسعه أن يحمّله التبعة الخلقية لما يعمل ، وأن يتقدم إليه بمطالب معقولة ، بل خيل إليه أنه

يرى مخلوقا أشبه ما يكون بحيوان ضخم — حيوان ضخم متمدن — ولد فى آجام الدمقراطية الشائكة ، ذى قوة لا تطاق فى الهجوم وفى الدفاع ، وكانت له الغلبة على الدوام فى كل ما احتدم وقتئذ من نزاع . فإذا ما انقض النزاع ؟ وكان الرجل إلى هذا مخلوقا لا يماثله أحد فى قدرته على أن يشق طريقه بين آلاف الرجال . وكانت أكبر الأغلاط فى نظره أن يناقض الرجل نفسه ، وأهم العلوم لديه علم التوفيق بين « المصالح » المتضاربة ، أما الحقائق الاقتصادية ، والحاجيات المادية ، والكنوز العلمية التى لم تكد تمسها يد الإنسان ، فلم يكن يعرف عنها أكثر مما يعرف أسلافه من الحيوانات عن السكك الحديدية والمدافع الرشاشة والكتب الجغرافية . إن الذى يعرفه هو الاجتماعات والمقابلات السرية وأصوات الناخبين — أصوات الناخبين بنوع خاص ، فلم يكن هو إلا أصوات الناخبين مجسمة — ملايين الأصوات .

وفى خلال هذه الأزمة المستحكمة الحلقات التى أوهنت قوة الجبابرة وإن لم تقض عليها ، أخذ هذا المخلوق الهائل — مخلوق الأصوات الانتخابية — يتحدث .

واتضح أن الرجل حتى فى ذلك الوقت نفسه كان يجهل الشىء الكثير ، فلم يكن يعرف أن هناك قوانين طبيعية وقوانين اقتصادية لا يستطيع البشر مهما اقترعوا ضدها أن يبطلوها ، لأنها أوتيت من القوة ما تستطيع به أن تدمر من عصاها ، ولم يعرف أن ثمة قوانين خلقية لا تنقض مبادئها وإن تغاضى الناس عنها ، وأنها فضلا عن ذلك قوية عنيفة تثأر لنفسها ممن يتغاضون عنها . وتبين ردوود أن هذا الرجل لا يستنكف أن يحمى نفسه من نيران المدافع أو من يوم الحساب بأصوات يزيفها فى مجلس العموم إذا استطاع إلى ذلك سبيلا .

ولم يكن ما يشغل باله ويقلقه فى تلك الأيام العصيبة هو القوى المسيطرة على الحصون فى جنوب المدينة أو الهزيمة أو الموت نفسه ، بل كان الذى

يشغله هو ما عسى أن يكون لتلك القوى وللهزيمة والموت من أثر فى الأغلبية التى تؤيده ، وهى الحقيقة الكبرى فى حياته . ذلك أنه لم يكن أمامه إلا واحدة من اثنتين : فإما أن يهزم الجبابرة وإما أن يسقط هو من عليائه . ولم يكن فى ذلك الوقت قد فقد كل أمل فى النصر . لقد كان هذا الرجل يعانى مرارة الخيبة ، بعد أن أزهق الأرواح ، وأهلك الحرث والنسل ، وأعد العدة للتقتيل والتدمير فى المستقبل القريب ، وللقضاء على مصائر العالم . ولكنه كان يسعه فى الوقت الذى يعمل فيه هذا كله أن يعتقد أن فى مقدوره أن يستعيد قواه بما وهب من صوت جهورى ، وقدرة على شرح الحقائق وتفسيرها وفق ما يشتهى . ولسنا نشك لحظة فى أنه كان فى حيرة وفى ضنك ، وفى أنه كان منهوك القوى يعانى أشد الآلام ، ولكنه كان يعتقد أنه إذا استطاع أن يصبر وأن يداوم على الكلام . . .

وخيل إلى ردوود أن الرجل كان فى أثناء حديثه يتقدم ويتقهقر ، ويتمدد وينكمش ، وكان نصيبه هو من الحديث ضئيلا ، ولم ينطق إلا ببضع كلمات كانت كالأسافين يدقها على حين غفلة فى حديث كترهام ، فلم تزد عبارته على : « ذلك كله لغو وسفه » « لا » « لا فائدة ترجى من اقتراحك هذا » « ولم إذن كنت البادىء بالعدوان ؟ »

على أننا نرتاب فى أن يكون كترهام قد سمع شيئاً من هذا ، وقد كان كلامه يفيض جول هذه العبارات الناشزة كما يفيض النهر السريع حول صخرة فى مجراه . لقد وقف هذا الرجل وقفة لا يعتقد أحد أن فى مقدوره أن يقفها ، وقف على بساط حجرة عمله الرسمى يتكلم ويتكلم بقوة ومهارة تجاوز تا كل حد ، وكان لا يسكت عن الكلام لحظة ، ولعله كان يعتقد أنه إذا لم يواصل حديثه وشرحه وعرضه لآرائه ووجهات نظره ووسائله برز من فوره أثر معادله — أثر صوتى لأن ذلك هو الأثر الوحيد الذى يفهمه ويرهبه . نقول مرة أخرى وقف كترهام فى هذه الحجرة الرسمية التى ذهب

عنها بعض ما كانت تشتمل عليه من رونق وبهاء ، والتى يعتقد كل من دخلها من حكام أن الدول لا تقام قواعدها إلا إذا قام هو بأمرها . . .

وكلما طال حديث هذا الرجل زاد ردوود اقتناعاً بضآلة شأنه وعديم نفعه ؛ وأخذ يسأل نفسه هل يدرك هذا الرجل أن العالم كله يتحرك من حوله ، وأنه هو واقف يتكلم ، وأن تيار النماء الجارف يكتسح كل شىء أمامه ؟ وهل كان يدرك أن ثمة ساعات غير ساعات البرلمان ، أو أسلحة فى أيدى من سيثأرون للدم المسفوك ؟ لقد كانت فى خارج حجرته وهو يتكلم ورقة واحدة من نبات زاحف غطت نافذة منها ، وحجبت الضوء عنها ، وأخذت تلطم زجاجها دون أن يحس بها إنسان .

وأراد ردوود أن ينهى هذا الحديث الفردى العجيب ، وأن يفر إلى مكان العقل والحكمة ، إلى المعسكر المحاصر ، إلى معقل المستقبل الحصين ، إلى مركز القوة والعظمة حيث اجتمع الأبناء الجبابرة الذين صبر من أجلهم على هذا الحديث الطويل . ولقد داخله فى هذا الوقت شعور عجيب ، وهو أنه إذا لم ينه هذا الحديث الفردى غلبه صاحبه على أمره ، وأن من واجبه لهذا السبب أن يجاهد للتخلص من صوت كترهام ، كما يجاهد للتخلص من المخدرات ؛ لقد تغيرت الحقائق وما زالت تتغير بالقوة السحرية الكامنة فى هذا الصوت .

وماذا كان يقول هذا الرجل ؟

لقد كان ردوود يرى أن لأقواله شيئاً من الخطر ، لأن عليه أن ينقلها إلى أبناء الطعام ، ولهذا رأى أن من واجبه ان يصغى إليه ، وأن يحتفظ بقدرته على إدراك الحقائق بقدر ما يستطيع .

لقد قال الشىء الكثير عن سفك الدم البرىء ، ولكن هذا لم يكن إلا من قبيل البلاغة الخطابية وليس له خطر كبير . ثم ماذا ؟

وكان يقترح أن يلقى أبناء الطعام أسلحتهم ويستسلموا له .

وأن يخرج من بقى من أبناء الطعام من معسكرهم ويستسلموا وينشئوا لهم مجتمعاً خاصاً بهم ، وقال إن لهذا الاقتراح سوابق أخذ بها ، وإن فى وسعه أن يخصص لهم إقليما . . .

وقاطعه ردوود وهو يتحفز لمناقشته بقوله :

— وأين يكون هذا الإقليم ؟

وتشبث كترهام بهذه النقطة التى ظن أن ردوود سلم بها ، فالتفتت إليه وأخذ يحاجه ويحاول إقناعه ، فقال إن من السهل تعيين هذا الإقليم ، وإن تحديده من الأمور الثانوية ، ثم أخذ يشترط بعض الشروط فقال :

— ولا بد أن تكون لنا السيطرة التامة على كل شىء ، عدا هؤلاء الأبناء والمكان الذى يكونون فيه ، ويجب أن يقضى على الطعام وعلى جميع ما أنتجه الطعام .

ووجد ردوود نفسه يساوم كترهام فقال :

— والأميرة ؟

— إن الأميرة لها شأن آخر لا يشاركها فيه غيرها .

فقال ردوود ، وقد حاول أن يعود إلى مركزه الأول قبل أن ينحدر إلى هذه المساومة :

— لا ! ذلك مستحيل .

— فلنترك أمرها إلى ما بعد ، ومهما يكن قرارنا فى هذه المسألة فقد اتفقنا على أنه يجب الامتناع عن صنع الطعام . . .

— إنى لم أوافق على شىء ولم أقل شيئاً .

— ولكن هل يستطيع جيلان من الناس أحدهما كبير والآخر صغير أن يعيشا على كوكب واحد ؟ فكر فيما حدث حتى الآن وانظر إلى ما يمكن أن يحدث فى المستقبل القريب إذا ظل هذا الطعام يسير فى طريقه المرسوم ،

وانظر إلى ما جنيتموه على هذا العالم ! وإذا قدر أن يعيش على هذه الأرض جيل من الجبابرة يتضاعف عددهم باستمرار .

وقال ردوود :

— ليس من حقى أن أجادل فى هذا ، إن علىّ أن أذهب إلى أبنائنا ، وأنا فى حاجة إلى الذهاب إليهم ، ومن أجل هذا جئت إليك ، فقل لى بالضبط ماذا تريد أن تعرض عليهم ؟

وألقى كترهام خطابا أعلن فيه شروطه .

فقال إن أبناء الطعام سيخصص لهم إقليم واسع — قد يكون فى أمريكا الشمالية وقد يكون فى إفريقية — يقضون فيه حياتهم كما يشتهون .

ورد عليه ردوود قائلا :

— هذا كلام سخيف ، لأن ثمة جبابرة غيرهم فى خارج إنجلترا منتشرين فى جميع أنحاء القارة الأوربية !

فقال كترهام :

— إن فى مقدورنا أن نعقد لهذا الغرض ميثاقا دوليا ، وليس ذلك من الأمور المستحيلة . والواقع أنه قد جرت فى هذا الشأن محادثات . . . وفى وسعهم أن يقضوا حياتهم كما يشتهون ، وأن يفعلوا ما يريدون ، ويصنعوا لنا نحن بعض ما نحتاج إليه ، وقد يكونون فى هذه الحياة سعداء . فكر فى هذا !

— على شرط ألا يوجد على الأرض أطفال غيرهم من نوعهم ؟

— هذا بالضبط ما أريد أن أقوله ، سيكون إنتاج الأطفال مقصوراً علينا نحن ، وبهذه الطريقة يا سيدى نستطيع أن ننقذ العالم ، ننقذه إلى الأبد من ثمار هذا الكشف الرهيب ؛ ولم تفلت الفرصة بعد من أيدينا ، وكل ما فى الأمر أننا نريد أن نسلك إلى غايتنا سبيل الرحمة ، ونحن فى هذه الساعة نحرق الأماكن التى سقطت عليها قذائفهم بالأمس ، ونتلفها ، وفى وسعنا

أن نتغلب على آثار الطعام ، وما من شك فى أننا نستطيع التغلب عليها ، ولكن فى غير ظلم وفى غير قسوة .

— وإذا فرضنا أن الأطفال لم يقبلوا هذا العرض ؟

وحدق كترهام فى وجه ردوود لأول مرة مذ بدأ حديثهما وقال :

— يجب عليهم أن يقبلوه !

— لست أظن أنهم سيقبلونه .

وسأله فى دهشة عظيمة متعمدة :

— ولم لا يقبلونه ؟

— افرض أنهم لم يقبلوه ؟

— وهل يمكن أن يؤدى ذلك إلى غير الحرب ؟ إنا لا نقبل ياسيدى أن تستمر هذه الحالة . لا نقبل ذلك ، أليس لديكم أيها العلماء شىء من الخيال ؟ أليس فى قلوبكم رحمة ؟ إننا لا نطيق رؤية هذه الأرض التى نعيش عليها يطؤها بأقدامهم العمالقة الجبابرة الذين أنشأهم طعامكم هذا كما أنشأ غيرهم من المخلوقات الجبابرة . لا نطيق ذلك ولا نطيقه أبداً ! وإنى أسألك ياسيدى هل يمكن أن يؤدى ذلك إلى غير الحرب ؟ وأحب أن أذكرك أن ما حصل حتى الآن ليس إلا البداية ، فهو لم يكن أكثر من مناوشة بسيطة ، أو فتنة لا يتطاب قمعها أكثر من رجال الشرطة ، فلا تغرنكم المظاهر ، لا تغرنكم ضخامة الأشياء الجديدة ، إن من ورائنا الأمة كلها ، ومن ورائنا الإنسانية بأجمعها ، ومن وراء الآلاف الذين ماتوا ملايين غيرهم لم يموتوا ؛ ولولا حرصنا ياسيدى على ألا نسفك الدماء البريئة لأعقب هجومنا الأول هجوم ثان فى هذه الساعة التى أحدثك فيها ؛ وسواء كان فى وسعنا أن نقضى على الطعام أو لم يكن ، فإن فى وسعنا من غير شك أن نقتل أبناءكم ! إنك تركن كثيراً إلى حوادث الأمس القريب ، وإلى الحوادث التى لم يمر عليها أكثر من عشرين عاماً ، وإلى واقعة واحدة جرت بالأمس ، ولا تشعر مطلقاً

بمجرى التاريخ البطىء . ولست أعرض عليكم هذا العرض لأنه يمكن أن يغير مجرى الحوادث أو يحول دون الغاية المحتومة ، بل لأنه يحفظ عليكم أرواحكم ؛ وإذا كنتم تظنون أن فى مقدور عشرين من جبابرتكم المساكين أن يغلبوا هـذه الأمة كلها ، وأن يغلبوا الأمم الأخرى التى ستشد إزرنا وتنضم إلى صفوفنا ، وإذا كنتم تظنون أن فى مقدوركم أن تبدلوا الإنسانية كلها بضربة واحـدة وفى جيل واحد ، وأن تغيروا طبيعة الإنسان وقامة الإنسان . . .

ولوح بذراعه فى الهواء وقال :

— فلتذهب إليهم يا سيدى الآن ! ولتنظر إليهم ترهم جاثمين بين جرحاهم على الرغم مما اقترفوه من آثام . . .

وسكت كأن عينه قد وقعت على ابن ردوود مصادفة وسكت ردوود أيضاً . ثم كرر قوله :

— اذهب إليهم يا سيدى .

— ذلك ما أريد أن أفعله .

— إذن فاذهب إليهم الآن . . .

ثم أدار وجهه عنه ، وضغط على زر كهربائى سمع على أثره وقع أقدام تقبل مسرعة ، وأبواب تفتح .

وانتهى الحديث ، وأسدل الستار على هذا المنظر التمثيلى ، ولاح أن كترهام قد انكمش فجأة وأصبح كما كان من قبل رجلا شاحب الوجه منهوك القوى متوسط الجسم والسن . وخطا خطوة إلى الأمام كأنما يخطو من صورة ، وتكلف ذلك الظرف الكامن على الدوام وراء جميع المنازعات التى يثيرها الجنس البشرى ، ومد يده إلى ردوود .

وسلم عليه ردوود بيده مرة أخرى كأنما كان هذا السلام أمراً تفرضه طبيعة الأشياء .

الفصل الخامس

معسكر الجبابرة

١

ولم يلبث ردوود أن رأى نفسه راكباً فى قطار يتجه نحو الجنوب محاذيا لنهر التيمز . وظل وقتاً قصيراً يشاهد النهر تنعكس على صفحته ضواء الليل ، ويشاهد الدخان ينبعث من الموضع الذى سقطت فيه القذيفة على شاطئه الشمالى ، حيث أعدت طائفة كبيرة من الناس لتحرق ماسقط على الأرض من هرقليوفوربيا . وكان شاطئ النهر الجنوبى مظلماً ، وحتى الشوارع المطلة عليه لم تضأ لسبب ما . وكل ما استطاع أن يشاهده واضحاً فى هذه الجهة هو أبراج الإنذار المرتفعة ، والمبانى الضخمة والمدارس . وبعد أن دقق النظر فى هذا كله لحظة قصيرة أدار ظهره للنافذة وأسلم نفسه لأفكاره . ذلك أنه لم يكن لديه ما يهمه أن يراه أو يعمله حتى يرى الأبناء . . .

وكان قد حل به التعب لكثرة ما أجهد نفسه فى اليومين الأخيرين ، وظن أن هذا الجهد سيحول بينه وبين التفكير المنظم ، ولكنه كان قبل ركوب القطار قد شرب مقداراً من القهوة المركزة فاستطاع أن يفكر تفكيراً واضحاً منتظماً . فكر فى كثير من الأشياء ، فى الطريقة التى جاء بها الطعام إلى هذا العالم وانتشر فيه ، وقد فكر فيها الآن فى ضوء ما صحب هذا الانتشار من أحداث .

وقال لنفسه بصوت خافت وابتسامة باهتة :

— لقد كان بنزنجتن يظن أنه سيكون خير طعام للأطفال .

ثم مرت بخاطره شكوكه الأولى التى روعته فترة من الزمن بعد أن أطعم ابنه الطعام ، وذكر كيف انتشر فى جميع أنحاء العالم رغم ما بذل من جهود جبارة للقضاء عليه واقامة العقبات فى سبيله ، وماذا كانت النتيجة ؟

وقال لنفسه مرة أخرى : وإذا قتلوهم عن آخرهم فإن ذلك لا يفيدهم ، لقد قضى الأمر .

ولقد عرفت طريقة صنعه وذاعت ولم تعد سراً خفياً ، وكان ذلك من عمله هو ، وفى الأرض نبات وحيوان وطائفة من الأطفال البائسين يأتمرون بالعالم ليرغموه على أن يعود إلى الطعام ، ولن يستطيع العالم أن يقف فى سبيلهم مهما تكن نتيجة النزاع القائم فى هذه الأيام ، وحاول أن يحصر أفكاره فيما كان يشغله فى تلك اللحظة ، وهو أمر الأطفال وأمر ولده ، ولكنه كان يحاول المستحيل ، فقد كانت تشغله أمور أجل خطراً وأعظم شأنا ، وقال مرة أخرى بصوت خافت : « لقد قضى الأمر » ثم عاد يفكر فى أمر الأطفال ، فهل يا ترى يجدهم جرحى جياعا ، أنهكت قواهم الجهود التى بذلوها فى الموقعة الأخيرة ، وقد غلبوا على أمرهم أو يكادون يغلبون ، أو هل يجدهم أقوياء عظيمى الأمل مستعدين لصراعهم الفذ الرهيب ؟ . . . لقد جرح ابنه ولكنه بعث برسالة !

وعاد خياله إلى مقابلة كترهام .

وأيقظه من تفكيره هذا وقوف القطار من محطة تشزلهرست ، وعرف المكان من البرج العظيم القائم على تل كامدن لإنذار الناس بغارة الجرذان ، وعرفه كذلك من صفوف نبات الشيكران الضخم المزهر على جانبى الطريق . . .

وجاء أمين سر كترهام الخاص من عربة القطار الأخرى وقال له إن الخط

الحديدى قد قطع على بعد نصف ميل من هذا المكان ، وإن عليه أن يتم ما بقى من الرحلة فى سيارة . ونزل ردوود على طوار يضيئه مصباح يد ، ويهب عليه نسيم الليل البارد . وتأثر الرجل لساعته من السكون الذى شمل هذه الضاحية المهجورة القائمة فى وسط الغاب والأعشاب ، والتى هجرها أهلها حينما احتدم القتال فيها بالأمس ، ولجأوا إلى لندن . وسار به مرشده ونزلا بضع درجات قليلة حتى وصل إلى سيارة شديدة الضوء كانت تنتظره فى ذلك المكان ، وكان ضوؤها هو الضوء الوحيد فيه ، وأسلمه إلى سائقها وودعه وقال له وهو يمسك بيده ويحاول أن يقلد صوت رئيسه :

— إنك لن تدخر جهداً فى العمل من أجلنا .

ولم يكد ردوود يطمئن فى مكانه حتى انطلقت السيارة تنهب الأرض فى جنح الليل ، ووقفت لحظة قصيرة سارت بعدها على مهل ، ثم اندفعت بسرعة منحدرة إلى أسفل المرتفع القائمة عليه المحطة ، ومرا بمنعرج أو منعرجين واخترقا شارعاً قامت على جانبه بيوت صغيرة ذات حدائق ، ثم وصلا إلى الطريق العام ، فاندفعت فيه السيارة بأقصى سرعتها يمر بها الليل الحالك مر السحاب . لقد كان كل شىء تحت قبة السماء المرصعة بالنجوم أسود حالك السواد ، وكان العالم كله ساكناً لا يسمع له صوت ولا يبدى حراكا ، وكانت البيوت الصغيرة الساكنة البيضاء الحائلة اللون القائمة على الجنبين ذوات النوافذ المظلمة كأنها صفوف من جماجم الموتى . وكان السائق الجالس إلى جواره ساكناً بطبعه ، أو لعل ظروف الرحلة هى التى ألزمته السكون ، وكان يجيب عن أسئلة ردوود بكلمات مفردة قصيرة ، وبغير قليل من الخشونة ، وكانت الأنوار الكشافة ترى من حين إلى حين تشق طريقها الصامت فى عرض السماء ، وكانت هى وحدها التى تذكر من فى السيارة بأنهما يسيران فى عالم الأحياء .

وما لبث الطريق أن أحاط به من الجانبين الحشائش الضخمة والقراص الذى طال كالأشجار وحجب عنه أضواء النجوم الضئيلة ؛ وارتقت السيارة بعد كستن سفح تل وسارت على مهل ، فلما وصلت إلى أعلاه أوقفها السائق وأشار بإصبعه إلى شىء أسود غير واضح المعالم أمام ردوود وقال :

— ها هو ذا .

ورأى ردوود على بعد السورَ العظيم يعلوه الضوء الساطع الذى تخرج منه الأنوار الكشافة تخترق السماء وتضىء الربا المحيطة به كأنها تخط فيه رقى سحرية . وقال السائق آخر الأمر :

— لست أدرى .

وما من شك فى أنه كان يخشى أن يسير إلى أبعد من ذلك المكان .

ثم شق السماء ضوء كشاف وقف عندها ، وكشف كل شىء فيهما ، وكاد يذهب بأبصارهما ، لولا أعواد قليلة من الغاب الضخم حجبت بعضها عن أعينهما . وجلس الرجلان ووضعا قفازيهما على أعينهما ، وحاولا أن يستعينا بهما على مقابلة هذا الضوء .

وقال ردوود بعد هنيهة :

— استمر فى السير .

ولكن السائق ظل مترددا ، وحاول أن يعبر عن مخاوفه ، وكل ما طاوعه لسانه على النطق به أن قال مرة أخرى :

— لا أعرف .

ثم استجمع قواه أخيراً وقال :

— فلنسر .

ودفع السيارة إلى الأمام مرة أخرى وواصل السير ومن ورائه ذلك الضوء الساطع الكبير .

وخيل إلى ردوود لحظه من الزمان أنهما لا يسيران على الأرض بل

تحملهما سحابة من نور ، وأطلق السائق لسيارته العنان ، وأخذ صوت بوقها يرن فى سكون الليل — ولست أدرى أى دافع عصبى كان هو الذى يدفع السائق إلى هذا السير السريع .

ومرا بطريق مسور مظلم رحبا بالسير فيه ، ثم انحدرا إلى منخفض يقوم على جانبيه عدة بيوت ، سارا بعدها مرة أخرى فى الطريق المكشوف على منحدر قليل الارتفاع ، وأحاطت بهما النباتات الضخمة من جديد ، ومرت بهما مسرعة ، ورأيا أمامهما فجأة شبح أحد الجبابرة العظام يلتمع فى ضوء النور الكشاف ، ويظلم إذا تعداه ، وصاح بهما :

— قفا إن الطريق ينتهى هنا . . . أهذا الأب ردوود ؟

ووقف ردوود وأجاب عن هذا السؤال بصيحة غامضة المعنى ، لم يلبث بعدها أن رأى كوسار فى الطريق إلى جانبه يمسكه بكلتا يديه ويخرجه من العربة .

وسأله ردوود :

— ماذا أصاب ولدى ؟

فأجابه كوسار :

— إنه بخير . إنهم لم يصيبوه فى مقتل .

— وأبناؤك ؟

— بخير ، كلهم بخير ، ولكننا لم ننجهم إلا بعد قتال شديد .

وكان الجبار يقول شيئاً لسائق السيارة ، وأفسح لهما ردوود الطريق ، ودارت السيارة ، ثم اختفى كوسار فجأة واختفى كل شىء ، ووقف ردوود هنيهة فى الظلام الحالك ، لأن الضوء كان يتبع السيارة وهى تصعد فوق تل كستن ، وأخذ يراقب هذه العربة الصغيرة تبتعد عنه وسط الهالة البيضاء ، وخيل إليه وهو ينظر إليها أنها لا تتحرك ، وأن الذى يتحرك هو الهالة المضيئة نفسها ، وكشف الضوء عن عدد من أشجار الزيزفون الضخمة ، ثم توارت هى الأخرى فى الظلام ، والتفت ردوود إلى شبح

كوسار الواقف إلى جانبه ، وأمسك بيده ، وقال له :

— لقد ضيقوا علىَّ الحصار ، ومنعوا عنى الأخبار يومين كاملين .

وقال له كوسار :

— ولقد أطلقنا عليهم الطعام ، أطلقنا عليهم ثلاثين طلقة !

— وأنا آت من عند كترهام .

فأجابه وهو يضحك ساخراً :

— أنا أعرف ذلك ، وأظنه الآن يعمل على محو طعامنا .

٢

وسأله ردوود :

— أين ولدى ؟

— إنه بخير والجبابرة فى انتظار رسالتك .

— نعم ، ولكن ولدى .

وسار مع كوسار فى نفق طويل مائل أضيء لحظة قصيرة بنور أحمر ثم أظلم ، وخرجا منه إلى الحفرة العظيمة التى اتخذها الجبابرة ملجأ لهم .

وكانت الصورة الأولى التى انطبعت فى ذهن ردوود من هذه الحفرة صورة ميدان عظيم أحاطت به صخور عالية ، وتناثرت على أرضه أشياء كثيرة . وكان المكان مظلماً إلا حين تنعكس عليه الأضواء الكشافة التى لم تكن تنقطع عن المرور من فوقه ، وكان يضيئه من حين إلى حين وهج أحمر ينبعث من مكان قصيى يعمل فيه اثنان من الجبابرة بين رنين المعادن ؛ ورأت عينه فى الضوء الكشاف مظلات العمل واللعب التى جاء بها كوسار لأولاده معلقة عند حافة الحفرة وأصابتها مدافع كترهام بأضرار بالغة . وكان بالقرب منها قواعد خيل إليه أنها مواضع للمدافع ، وإلى جانبها أكوام من

الاسطوانات الضخمة لعلها كانت ذخائر حربية . وانتشرت على أرض الحفرة الواسعة فى غير نظام آلات عظيمة وأدوات ضخمة لم يعرف الغرض منها ؛ وكان العالقة يظهرون ويختفون بين هذه الأشياء فى الضوء المنقطع . وكانوا عمالقة حقاً يتناسب حجمهم مع العُدد والآلات التى تحيط بهم والتى يتحركون بينها . وكان بعضهم يشتغلون جادين ، وبعضهم جالسين أو ممددين على الأرض ينتظرون النوم . ورأى كوسار واحدا قريباً منه معصوب الجسم راقداً على محفة ساذجة من أغصان الصنوبر ، مستغرقاً فى النوم ؛ وحدق ردوود فى أجسامهم وتنقلت عيناه من واحد منهم إلى الآخر .

— أين ولدى يا كوسار ؟

ثم وقعت عينه عليه .

وكان ابنه جالساً فى ظل جدار عظيم من الصلب ، ولم يتبينه أول الأمر إلا من جلسته لأن معارفه لم تكن واضحة ، وكان يضع ذقنه على يديه كأنه متعب و غارق فى التفكير ، وأبصر ردوود إلى جانبه شبح الأميرة ، ولم يتبين صورتها هى الأخرى فى أول الأمر حتى عاد الضوء من الحديد المنصهر البعيد ، فأبصر فى وجهه الأحمر وجهها الرقيق يفيض حنوا وشفقة ؛ وكانت واقفة تنظر بعينيها إلى حبيبها ، وتتكئ بيدها على الجدار الحديدى ، وخيل إليه أنها تسر إليه شيئاً . وهم ردوود بالذهاب ولكن كوسار قال له :

— تمهل وأطلعنا أولا على رسالتك .

وقال ردوود :

— نعم ، ولكن . . .

ثم وقف ورأى ابنه فى ذلك الوقت يرفع عينيه إلى وجه الأميرة ، ويتحدث إليها بصوت خافت لم يسمعه هو ولا كوسار . وقد رفع ردوود الصغير وجهه ، وانحنت هى نحوه ، والتفتت إلى جانبها قبل أن تتكلم .

وسمعا صوت ردوود الخافت يقول :

— ولكن إذا هزمنا

وسكتت الأميرة ، وكشف الضوء الأحمر عن عينيها تبرقان ، وفيهما دمعتان حائرتان . وقربت وجهها منه أكثر من ذى قبل ، وتحدثت إليه بصوت أكثر انخفاضاً من صوتها الأول . وكانت هيئتها ، وكان صوتها الرقيق ، يوحيان بأنهما يتحدثان فى أمر يخصهما دون غيرهما من الناس ، فشعر ردوود أن ليس من حقه أن يقطع عليهما حديثهما — وإن كان قد بقى يومين كاملين لا يفكر إلا فى ولده . ثم انقطع تيار أفكاره ، وفجأة ، ولعل هذه هى المرة الأولى التى أدرك فيها أن الابن قد يكون أعظم قدراً عند أبيه من الأب عند ابنه . ذلك أنه عرف فى هذه اللحظة غلبة المستقبل على الماضى ، وشعر أنه لا مكان له بين هذين المحبين ، وأنه من هذه الناحية قد أدى رسالته . والتفت وقتئذ إلى كوسار ، والتقت أعينهما ، وظهر فى صوته الجد والعزيمة وقال له :

— سأبلغهم رسالتى الآن وبعدئذ . . . ولن يكون الوقت قد فات .

وكانت الحفرة كبيرة الحجم مملوءة بالعدد والأدوات ، فسار بينها ردوود فى طريق طويل ملتو ليصل إلى المكان الذى يستطيع أن يتحدث فيه إلى الأبناء كلهم .

ومشى هو وكوسار فى طريق شديد الانحدار يمر تحت قوس من الآلات البخارية المشتبكة ، ثم وصلا إلى ممر كبير عميق يخترق قاع الحفرة ، وشاهد ردوود هذا الممر الواسع فى نظره والضيق إذا قيس إلى ما كان حوله ، وأبدى ما أحاط به فى هذا المكان فزاده شعوراً بضآلته . وكان هذا الممر أشبه بأخدود منحوت ، تشرف عليه الصخور القاتمة العالية ، وتدور حوله الأنوار الكاشفة ، تظهر أشباح العمالقة غادين ورائحين ، ينادى بعضهم بعضاً بأصوات العمالقة ، ليجتمعوا فى مجلس الحرب ويستمعوا إلى ما أرسله إليهم كترهام من الشروط . وانحدر الممر الضيق مرة أخرى إلى مكان أسود فسيح ،

فيه ظلال وفيه أشياء غامضة خفية لا يفهم حقيقتها . سار بينها ردوود بخطاً بطيئة وجلة واخترقها كوسار بخطى الواثق المطمئن .

واخترقها ردوود وهو مشتت الفكر .

وسرعان ما أطبق الظلام على الرجلين ، فأمسك كوسار بمعصم صديقه وسارا على مهل .

وأنطق ذلك ردوود فقال :

— كل هذا عجيب .

وقال كوسار :

— ضخم .

— عجيب وأعجب منه أن أراه أنا عجيباً ، أنا الذى يصح أن يقال عنى إننى سبب هذا كله ، إنه . . .

وسكت كأنه يحاول أن يمسك بالمعنى الذى يريد أن يفلت منه ، وأشار بيده إلى الصخرة إشارة لم يرها صديقه .

— إننى لم أفكر فى هذا من قبل . لقد كنت كثير العمل ، ومرت بى السنون سراعا ، والآن أرى أنه جيل جديد يا كوسار ، وعواطف جديدة ، وحاجات جديدة ، إن هذا كله يا كوسار . . . ورأى كوسار فى هذا الوقت إشاراته إلى ما حوله .

— إن هذا هو الشباب

ولم يجب كوسار بشىء ، وظل سائراً بخطاه غير المنتظمة .

— وليس هو شبابنا يا كوسار ، إنهم يأخذون منا كل شىء . وهم الآن فى بداية عواطفهم الخاصة ، وتجاربهم الخاصة ، ووسائلهم الخاصة . لقد أنشأنا عالماً جديداً ، ولكنه ليس عالمنا ، بل هو عالم لا يعطف علينا ؛ إن هذا المكان العظيم . . .

وقال كوسار وقد قرب منه وجهه :

— لقد رسمت أنا خطته .

— والآن ؟

— أسلمته لأبنائى .

وشعر ردوود بيد كوسار تتحرك وإن لم يرها بعينه وسمعه يقول :

— ها قد وصلنا وانتهى سيرها . . . أو كاد .

— بلغ رسالتك .

— نعم ، وبعدئذ .

— نكون قد فرغنا من أداء واجبنا .

— ثم ماذا ؟

وقال كوسار :

— لست أنكر أننا قد فرغنا من أدائه ، وأننا الآن شيخان كبيران .

وواصل حديثه وقد ظهر على صوته غضبه المألوف :

— نعم إننا شيخان كبيران ، ليس منا من ينكر هذا، ولقد خلق كل إنسان للعصر الذى يعيش فيه ، ونحن الآن فى بداية عصرهم هم . هذا كله حق لا مرية فيه ، وما أشبهنا بطائفة من الفعلة يحفرون منجما ، إذا فرغوا من عملهم ذهبوا لشأنهم وجاء بعدهم غيرهم . ومن أجل هذا كان الموت . فنحن فى حياتنا نستنفد كل ما أوتينا من عقول صغيرة وعواطف صغيرة ، ثم نذهب ويأتى غيرنا . ثم يذهب هؤلاء ويأتى غيرهم وغيرهم . هذا كله سهل الإدراك، فأى مشقة فى هذا ؟

ووقف كوسار ليأخذ بيد ردوود ويقوده بضع خطوات ، وقال ردوود :

— كل هذا صحيح ولكن الإنسان يشعر . . .

وسكت دون أن يتم عبارته .

وسمعه كوسار من تحته يؤكد قوله :

— ومن أجل هذا كان الموت ، وليس ثمة وسيلة إلى هذا سواه ، من أجل هذا كان الموت .

٣

ووصلا بعد أن اجتازا طرقا ملتوية ودرجا متعددة إلى لسان بارز من الصخر يستطيع الواقف عليه أن يجيل بصره فى الجزء الأكبر من الحفرة ، حفرة الجبابرة ، ويستطيع منه ردوود أن يُسمع صوته جميع من حضروا لاستماعه . وكان الجبابرة قد اجتمعوا كلهم أسفل منه ومن حوله على مرتفعات مختلفة ليسمعوا إلى الرسالة التى جاءهم بها ؛ ووقف أكبر أبناء كوسار على السور الأعلى يرقب ما يظهره النور الكشاف ، لأنهم كانوا يخشون أن ينقض أعداؤهم شروط الهدنة . وظهر الجباران اللذان يعملان فى الجهاز الآخر واضحين فى الضوء المنبعث منه ، ولم يكن عليهما إلا قليل من الملابس ، وكان وجهاهما نحو ردوود ، ولكنهما كانا على الدوام يرقبان الأجهزة التى لم يكن فى وسعهما أن يهملا أمرها . أما أقرب الجبابرة إليه فلم يكن يراهم فى وضوح ، لأن الضوء كان يمر بهم ثم يبتعد عنهم . وأما البعيدون عنه فكانوا أقل وضوحاً من هؤلاء الأقربين فكانت أشباحهم تظهر من الهوة العميقة ثم تعود فتختفى فيها . ذلك بأن الجبابرة لم يكن لديهم من الضوء فى معسكرهم إلا الضرورى الذى لا غنى عنه ، حتى تستطيع أعينهم أن تبصر أية قوة مهاجمة تنقض عليهم من الظلام المحيط بهم .

وكان ضياء ساطع يسقط بين آن وآخر على هذه الطائفة أو تلك من اجسام الجبابرة القوية فيكشفها للعيان ، وكان عمالقة سندرلاند يلبسون ثيابا من المعدن بعضها فوق بعض ، أما غيرهم فكانوا يرتدون ثيابا من الجلد أو الحبال أو المعادن المفتولة ، حسبما تقضى عليهم أحوالهم . وكانوا كلهم بين آلات وأسلحة تتناسب مع قوتهم وضخامتهم ، بعضهم يقفون منتصبين إلى جانبها ، وبعضهم الآخرون يضعون أيديهم عليها ، وكلما كشف الضوء عن وجوههم وأبصر ردوود عيونهم رآها ثابتة قوية .

وحاول أن يبدأ حديثه ، ولكنه لم يستطع ، ثم تبدى له وجه ابنه فى وهج نار حارة ، ورآه يلقى عليه نظرات حنان ، ولكنها نظرات قوية ؛ فلما رآه استجمع كل ما كان لديه من قوة وأرسل صوته إلى ابنه من خلال الفضاء وقال :

— إنى موفد إليكم من قبل كترهام ، فقد أرسانى لأبلغكم الشروط التى يعرضها عليكم .

وصمت قليلا ثم قال :

— والآن وقد رأيتكم مجتمعين فى هذا المكان ، فإنى أرى أنها شروط لا يستطاع قبولها . نعم إنها شروط لا يمكن قبولها ، ولكنى جئت بها إليكم لأنى أردت أن أراكم جميعاً . . . وأرى ولدى . . . وأقول مرة أخرى . . . إنى أردت أن أرى ولدى . . .

وقال كوسار :

— قل لهم ما هى الشروط .

— وهذا ما يعرضه عليكم كترهام : إنه يطلب إليكم أن تتفرقوا وترحلوا عن عالمه هذا !

— وإلى أين ؟

— هذا ما لا يعرفه . اذهبوا إلى مكان ما فى العالم ، سيخصص لكم فيه مكان متسع . . . وعليكم ألا تصنعوا شيئاً من الطعام بعد الآن ، وألا يكون لكم أبناء ، وأن تقضوا ما بقى من حياتكم بالطريقة التى تختارونها .

ثم سكت .

— وهذا كل ما جئتكم به .

وساد المكان صوت عميق ، وخيل إليه أن الظلام الذى يلف الجبابرة ينظر إليه نظر المفكرين .

وشعر بيد تمس مرفقه ، ورأى كوسار يأتى إليه بكرسى ، وهو قطعة غريبة من أثاث دمية كان يلعب بها الأبناء فى طفولتهم بين هذه الأشياء الضخمة المتراكمة بعضها فوق بعض . وجلس ردوود على الكرسى ولف ساقاً بساق ، ثم وضع إحدى ساقيه على ركبته الأخرى ، وأمسك بحذائه مسكة عصبية ، وشعر فى هذه اللحظة بذاتية وبصغره وضآلته وحرج مركزه .

وسمع صوتاً نسى نفسه مرة أخرى حين سماعه .

وقال الصوت البعيد بين الظلال :

— لقد سمعتم أيها الإخوان .

وأجابه صوت آخر :

— لقد سمعنا .

— وبماذا تجيبون أيها الإخوان ؟

— بماذا نجيب كترهام ؟

— بالرفض .

— وبعدئذ ؟

وساد الصمت بضع ثوان .

وسمع بعدها صوت يقول :

— إن أولئك القوم على حق ، أقصد أنهم على حق حسب نظرتهم هم إلى الحق . لقد كانوا على حق فى قتل كل ما كان أكبر من جنسهم — من حيوان ونبات وكل ما نشأ من الكائنات الحية العظيمة . وكانوا على حق فيما حاولوا من قتلنا عن آخرنا . وهم على حق حين يقولون إننا يجب ألا نتزوج من بنى جنسنا . إنهم على حق حسب نظرتهم هم إلى الحق . فهم يعرفون — وقد آن لنا أن نعرف ايضاً — أن وجود الأقزام والعمالقة جنباً إلى جنب فى هذا العالم أمر مستحيل ، ولقد طالما قال كترهام فى ذلك

قولا — واضحاً لا خفاء فيه — سيكون العالم إما لهم وإما لنا .

وقال آخر :

— إننا لانبلغ الآن الخمسين عدا ، وهم يعدون بالملايين وملايين الملايين .

— قد يكون هذا ولكن الحقيقة هى التى حدثتكم عنها .

وساد صمت طويل مرة أخرى .

— وهل نموت إذن ؟

— لا قدر الله .

— وهل يموتون هم ؟

— لا .

— لكن هذا هو ما يقوله كترهام ! فهو يريدنا أن نحيا حياتنا ، وأن نموت واحداً بعد واحد ، حتى لا يبقى منا إلا واحد ، وحتى يموت هذا الواحد أيضاً . وسيقطع هو وأتباعه النبات والغاب الضخم ، ويقتلون الكائنات الحية الضخمة ، ويحرقون آثار الطعام ، ويقضون علينا وعلى الطعام قضاء لا مرد له . وبذلك ينجو عالم الأقزام الصغير ، ويحيون حياة الأقزام ، — آمنين إلى آخر الدهر — يحيون حياة الأقزام ، ويحسن أفراده ويسىء بعضهم إلى بعض إحسان الأقزام وإساءاتهم ، بل إنهم قد يتطلعون إلى نوع من سعادة الأقزام ، فيمنعون الحروب فيما بينهم ، ويمنعون ازدحام العالم بالسكان ، ويعيشون فى مدينة تشمل العالم كله ، يمارسون فنون الأقزام ، يعبد بعضهم بعضا حتى يبدأ العالم فى التجمد . . .

وسقط فى هذه اللحظة لوح من الحديد على الأرض فى أحد الأركان وسمع له صوت كصوت الرعد .

— أيها الإخوان إننا نعرف ما نريد فعله .

ورأى ردوود فى ضوء الأنوار الكاشفة وجوه الشباب المجدين تتجه نحو ولده .

— لقد أصبح من السهل علينا أن نصنع الطعام ، وليس يصعب علينا أن نصنع منه ما يكفى العالم كله .

وقال صوت آخر خارج من الظلام :

— هل تعنى يا أخانا ردوود أن الخلائق الصغار سيأكلون الطعام ؟

— وهل فى استطاعتنا أن نعمل غير هذا ؟

— إنا لا تبلغ عدتنا الخمسين ، وهم يعدون بالملايين .

— ولكنا صمدنا لهم .

— نعم حتى الآن .

— وسنصمد إن شاء ، وسنصابر ونرابط !

— نعم ولكن فكروا فيمن ماتوا !

وسمع صوت آخر يقول :

— من ماتوا ؟ وفكروا فيمن سيولدون . . .

وسمع صوت ردوود الصغير يقول :

— أيها الإخوان ! هل لنا من سبيل إلا أن نقاتلهم ، حتى إذا غلبناهم أرغمناهم على أكل الطعام ؟ إنهم يأخذون الطعام الآن مرغمين ، وإذا فرض أننا تخلينا عن هذا التراث الذى ورثناه ، وقبلنا ذلك السخف الذى يعرضه علينا كترهام ، ولم نطع ذلك الصوت الذى يناديا من داخلنا ، وأنكرنا ما علينا من الدين لآبائنا — نعم ذلك الدين الذى ندين به لك أيها الأب — واستوفينا حظنا من الحياة ثم غادرنا هذا العالم دون أن نترك فيه أثراً ، إذا فرض أننا فعلنا ذلك كله ، فماذا تكون الحال بعدئذ ؟ وهل يبقى عالمهم الصغير كما كان من قبل ؟ إن فى وسعهم أن يقاتلوا العظمة التى نمثلها نحن ، ولكن هل يستطيعون أن يقتلوها ؟ ولو أنهم أهلكونا جميعاً فرداً فرداً فماذا تكون النتيجة ؟ هل ينجيهم هذا ؟ كلا ! لأن العظمة لم تعد محصورة فينا ولا فى الطعام وحده ، بل صارت هى الغاية التى تعمل لها

الأشياء جميعها ، فهى كامنة فى طبيعة الأشياء كلها ، وهى جزء من الفضاء والزمن ، وسينمو كل شيء ، وسيواصل النمو ، سينمو من البداية إلى النهاية ؛ تلك هى طبيعة الكائن الحى ، وذلك هو قانون الحياة . وهل ثمة قانون غير هذا؟

— أتقصد القانون الذى يقضى بأن يساعد الإنسان غيره ؟

— أقصد قانون النماء ، النماء المتواصل . وإذا لم نعنهم نحن على أن يفشلوا . . .

وقال آخر :

— إنهم سيحاربوننا ، وسيبذلون كل مافى وسعهم ليقهرونا .

وسمع صوت آخر يقول :

— وماذا يهمنا من هذا ؟

وقال ردوود الصغير :

— ولست أشك فى أنهم سيحاربوننا إذا لم نقبل شروطهم ، وإنى لأرجو أن يصارحونا العداء ويحاربونا ، فأنا أعتقد أنهم حين يعرضون علينا السلم إنما يخادعوننا ليتمكنوا بعد ذلك من أن يهاجمونا ونحن غافلون . فلا تخطئوا هذا الخطأ أيها الإخوان ، بل خذوا حذركم . إنهم سيحاربوننا بطريقة ما ، لقد أوقدوا نار الحرب ، ولابد لنا أن نصلى سعيرها ، وإذا لم نحسن تدبير أمرنا فقد نجد بعد حين أننا لم نعش على هذه الأرض إلا لنصنع لهم سلاحا خيراً من سلاحهم ، يقتلون به أبناءنا وبنى جنسنا . وليس الذى حدث حتى الآن إلا بداية الواقعة ، وستكون حياتنا كلها حربا مستعرة ، وسيخر بعضنا صرعى فى ميدان القتال ، وسيقتل بعضنا غيلة وغدرا ، وليس النصر قريب المتناول سهل المرام ، بل ليس ثمة نصر لنا إلا وهو نصف هزيمة . لا تشكوا فى هذا أبداً ولكن لاترهبوه ، وكل الذى نرجوه أن نمكّن لغيرنا فى هذه الأرض ، ونترك فيها من بعدنا طائفة تدافع عن قضيتنا ، إذا قضى علينا نحن !

— وماذا نحن فاعلون غداً ؟

— سننشر الطعام ، سنشبع العالم بالطعام .

— وإذا قبلوا شروطنا .

— ليس لنا شروط إلا الطعام . إن الصغار والعظمة لا يستطيعان أن يعيشا فى صفاء ووئام ، فإما هذا وإما ذاك . وأى حق للأب أن يقول : لن يرى إبنى نوراً إلا النور الذى رأيت ، ولن ينال من العظمة أكثر مما نلت ؟ هل أعبر بقولى هذا عن رأيكم أيها الإخوان ؟

وقالوا جميعاً بصوت واحد خافت إنه يعبر عن رأيهم .

وقال صوت خارج من وسط الظلام :

— وهو رأى الأطفال الذين سيكونون نساء ، كما هو رأى الأطفال الذين سيكونون رجالا .

— بل إن أولئك أقوى صوتاً من هؤلاء ، فسيكن أمهات لجيل جديد ...

وقال ردوود وهو ينظر إلى وجه ولده :

— ولكن الجيل التالى يتطلب اقواماً صغاراً وكباراً ، سيتطلبهما أجيالا عدة ، وسيكون الصغار عقبة فى سبيل الكبار ، وسيضغط الكبار على الصغار يا أبت .

— وسيحتدم بينهم النزاع .

— وسيكون نزاعاً لا آخر له ، وسيسىء هؤلاء فهم أولئك ، فالصغار والكبار لايستطيعون أن يتفاهموا ، ولكن الذى لاشك فيه يا أبى ردوود أن بذرة العظمة كامنة فى كل طفل يولد فى هذا العالم تنتظر الطعام لتنمو وترعرع .

— إذن سأعود إلى كترهام وأنبئه .

— بل ستقيم معنا يا أبى ردوود وسنبعث نحن بجوابنا إلى كترهام فى مطلع الفجر .

— يقول إنه سيحارب . . .

وقال ردوود الصغير :

— فليكن .

ووافق الجمع على قوله هذا بأصوات منخفضة .

وسمع صوت يقول :

— إن الحديد فى الانتظار .

وبدأ الجباران اللذان كانا فى ركن المعسكر يضربان الحديد ضربات منتظمة ، كانت هى موسيقا هذا المنظر من الرواية . وكان المعدن فى هذه المرة أكثر توهجاً مما كان فى يوم من الأيام الماضية ، ورأى ردوود فى ضوئه معسكر الإخوان أوضح مما رآه من قبل ، رأى طوله كله من أوله إلى آخره ، ورأى آلات القتال الكبيرة مصفوفة معدة ، ورأى بيت أبناء كوسار بعيداً عنه يعلو عن المكان الذى هو واقف فيه ، ورأى حوله الشبان الجبابرة ضخام الأجسام حسان الوجوه ، يتلألأ لباسهم ويعدون العدة للغد ؛ واغتبط بذلك كله وثلج به صدره ، فقد كانوا كباراً وأقوياء ، وطوالا وظرفاء ، وكانوا متزنين ثابتين فى حركتهم وسكونهم ، وكان من بينهم ولده ، وكانت معهم الأميرة أولى النساء الجبارات . . .

وخطرت له فجأة طائفة من أعجب المتناقضات . وتذكر بتزنجتن مبتهجاً وصفيراً ، تذكره ويده بين الزغب النامى على صدر أول فرخ ضخم ، وتصوره وهو واقف فى حجرته بين أثاثه الذى لم يغيره قط ، ينظر شزراً من فوق منظاريه إلى ابنة العم چين وهى تغلق الباب بقوة . . .

لقد حدث ذلك كله بالأمس القريب ، الأمس الذى لم يمض عليه أكثر من إحدى وعشرين سنة .

ثم تملكه على حين غفلة خاطر غريب ، فقد خطر له أن المكان الذى هو واقف فيه ، وأن العظمة التى يراها ، لم يكونا إلا أضغاث أحلام ؛ وظن أنه

يحلم وأنه سيستيقظ بعد هنيهة ويجد نفسه مرة أخرى فى مكتبه ، وقد قتل الجبابرة عن آخرهم ، وأعدم الطعام ، وسيق هو إلى السجن . وهل الحياة فى الواقع إلا هذا ؟ — أن يكون الإنسان سجيناً على الدوام . وكان آخر ما انتهى إليه حلمه أنه سيصحو من نومه ، فيرى نفسه بين الحرب والدم المسفوك ، ويجد أن طعامه لم يكن إلا أسخف الخيالات ، وأن آماله العظيمة واعتقاده بحلول عالم أعظم من عالمنا هذا ليست كلها إلا شريطاً ملوناً فى قاع مستنقع من الضعف والانحطاط غير ذى قرار ، وأن الصغار قوى لا يغلب . . .

وتملكته وقتئذ موجة من اليأس فاعتقد أنه مخدوع ، وأن الغطاء سينكشف عن عينيه بعد قليل . كانت هذه الموجة قوية عميقة أزعجته فقام واقفاً على قدميه ، ووضع قبضتيه على عينيه ، وظل كذلك برهة طويلة يخشى أن يفتحهما حتى لا ينظر إلى ما حوله فيرى أن الحلم قد زال .

وأخذ الأطفال الجبابرة يتحدثون بصوت خافت طغى عليه صوت مطارق الحدادين . ثم ضعفت موجة شكوكه ، وسمع أصوات الجبابرة ، وسمع وقع أقدامهم حوله كما كان يسمعه من قبل . إذن لقد كان الذى يراه حقيقة ، نعم كان حقيقة لا شك فيها ، ولا تقل فى واقعيتها عن أعمال الحقد التى يرتكبها بنو الإنسان . وقد انبعثت منها العظمة التى كانت حوله ، وستنبعث منها أشياء أخرى عظيمة هى التى سيأتى بها المستقبل ، وأشياء غيرها مناقضة لها ، وهى صغار بنى الإنسان وحيوانيتهم وضعفهم التى ستنمحى من الوجود . وفتح ردوود عينيه . وقال أحد الحدادين :

— قد انتهينا .

وقذف هو وزميله مطرقتيهما على الأرض .

وسمع ردوود صوتا آخر من مكان عال فولى وجهه نحوه فرأى ابن

كوسار على السور العظيم واقفا بين زملائه وقد أخذ يخاطبهم جميعا بقوله :

— لسنا نريد أن نخرج الخلائق الصغار من العالم لنحتفظ به أبد الدهر لأنفسنا ، فلسنا نحن أرقى منهم ولا أبعد عن صغارهم إلا قليلا ، ونحن لا نحارب من أجل أنفسنا ، بل من أجل الخطوة الثانية المرتقبة . . . وما هى الغاية من وجودنا هنا أيها الأخوان ؟ إننا هنا لنقوى الروح التى انبعثت فينا ونؤدى الرسالة التى جئنا لأدائها ، وأبدئ القول ثم أعيده أننا لا نحارب من أجل أنفسنا ، فلسنا نحن إلا الأيدى والأعين المؤقتة لحياة هذا العالم . هكذا علمتنا يا أبانا ردوود ، ولسنا نحن والخلائق الصغار إلا الأداة التى يطل منها الروح المرتقب على العالم ويتعلم وينتقل منها ومنهم إلى حياة أعظم وأكمل . فلم يخلق هذا العالم للركود والجمود ، ولم نخلق للهو واللعب ، ولو كان الأمر كذلك لقدمنا رقابنا طائعين لسيوف الخلائق الصغار ، ولما كنا أجدر منهم بالحياة ، ولكانوا هم أيضا جديرين بالخضوع للنمل والحشرات . إنا لا نحارب من أجل أنفسنا ، بل نحارب من أجل النماء ، النماء المطرد المستمر إلى أبد الدهر . وسواء حيينا غداً أو متنا فاننا سنمهد السبيل إلى غلبة النماء . ذلك هو قانون الروح السرمدى ، قانون النماء الذى أرادته العناية الآلهية ، لتخرج الكائنات الحية الصغيرة من هذه الشقوق والثقوب ومن هذه الظلال والظلمات ، إلى العظمة والنور .

ثم قال بصوت هادئ رزين :

— إلى العظمة أيها الإخوان ثم إلى ما هو أعظم منها . إلى النماء ثم إلى النماء ، النماء الذى يقرب الإنسان من الله ، ويعينه على إدراك أسرار الله ، النماء الذى يجعل الأرض طريقا إلى دار أخرى أرقى منها وأعظم . . . والذى يؤمن الروح من الخوف ، ويرقى بها إلى هناك . . .

وأشار بيده نحو السماء .

وسكت الصوت ومرت أشعة الضوء الكشاف القوية ، وسقطت لحظة قصيرة فوق رأسه ، فظهر فيها جبارا عظيما يشير بيده إلى السماء .

وظل فترة قصيرة باديا للعيان ، ينظر فى غير خوف إلى السماء المرصعة بالنجوم ، وظهرت ملابسه الحديدية ، وجسمه القوى ، وعزيمته الماضية ، وسكونه الرهيب . وجاوزه الضوء فتركه كما كان شبحا أسود تحت قبة السماء المرصّعة بالنجوم ، رافعاً يده يهدد بها السماء ، وكل ما فيها من نجوم .

مطبعة المكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية

[redacted]
بشران، محمد
طعام الآلهة وكيف جاء الى الارض
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031983



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT